نموذج ترخيص

أنا الطالب : كفاح ناجح بدر رشق أمنح الجامعة الأردنية و/ أو من تفوضه ترخيصاً غير حصري دون مقابل بنشر و / أو استعمال و / أو استغلال و / أو ترجمة و / أو تصوير و / أو إعادة إنتاج بأي طريقة كانت سواء ورقية و / أو إلكترونية أو غير ذلك رسالة الماجستير / الدكتوراه المقدمة من قبلي وعنوانها.

مدينة عسقلان منذ القرن الرابع الهجري وحتى نهاية القرن السادس الهجري - العاشر الميلادي الى الثاني عشر الميلادي.

وذلك لغايات البحث العلمي و / أو التبادل مع المؤسسات التعليمية والجامعات و / أو لأي غاية أخرى تراها الجامعة الأردنية مناسبة، وأمنح الجامعة الحق بالترخيص للغير بجميع أو بعض ما رخصته لها.

اسم الطالب: كفاح ناجح رشق.

التوقيع:

التاريخ: ٢٨/٨/٢٠١٣م

مدينة عسقلان منذ القرن الرابع الهجري وحتى نهاية القرن السادس الهجري- العاشر الميلادي-الى الثاني عشر الميلادي

اعداد

كفاح باسم رشق

المشرف

الأستاذ الدكتورصالح درادكة

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

آب ، 2013

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة/(مدينة عسقلان منذ القرن الرابع الهجري وحتى نهايــة القــرن الــسادس الهجري – العاشر الميلادي الى الثاني عشر الميلادي . وأجيزت بتاريخ (٢٠١٣/٥/١٢.

أعضاء لجنة المناقشـــــــــة	التوقيع ،
الأستاذ الدكتور صالح درادكة مشرفا أستاذ ــ تاريخ إسلامي	…………………
الدكتور عصام مصطفى عقلة، عضوا أستاذ ــ تاريخ حديث	…………………
الدكتور يوسف بني ياسين عضواً أستاذ ــ تاريخ المغرب العربي	…………………
الدكتورعليان الجالودي، عضواً تاريخ إسلامي جامعة مؤتة	…………………

الإهداء

الى امي التي انجبتنا وانجبت كل ما فينا، كفاية،
ولم تقل كفاية

والى اختي العزيزة نيرة
لوح نجدتنا في بحر الملمات

والي خالي الاسير المحرر بعد عقدين من الزمن
في بطن الحوت "يوسف الخالص" اليك حيث انت هناك
في غزة على ساحل بحر الروم بالقرب من عسقلان

شكر وتقدير

إنّ من واجب الوفاء، وردّ الجميل، وإحقاق الحقّ أن أنتهز هذه الفرصة، لأتقدّم بوافر الشكر الجزيل وعظيم التقدير والامتنان والعرفان، لكلّ من أسهم في إخراج هذه الدراسة المتواضعة إلى حيّز الوجود، وأخصّ بالذكر مشرفي **الأستاذ الدكتور صالح درادكة**، الذي شرّفني بقبوله الإشراف على هذه الرّسالة، وحباني من واسع علمه وخُلاصة تجربته الشيء الكثير، ولم يبخل بوقته وجهده وتوجيهاته السديدة. فضلاً عن سعة صدره وتحمّله ظروفي الصعبة، فجزاه الله خير الجزاء، وجعل ذلك في ميزان حسناته. كما أتقدّم بخالص الشكر والتقدير إلى أعضاء الهيئة التدريسيّة كافة في قسم التاريخ على عطائهم الدؤوب منذ اليوم الأول بعد التحاقي بالجامعة.

أمّا والديَّ، فلهما البرُّ كلَّ البرّ، والشكر كلَّ الشكر على ما تكبّداه من نفقات وما قدّما إليَّ من حسن رعاية منذ نعومة أظفاري. وكذا فإنني أشكر أفراد أسرتي كافة؛ إخوتي وأخواتي، وأخصّ منهم أختي العزيزة "نيرة" على ما تجشّمته من عناء في نقلي ومساعدتي في إعداد هذه الرّسالة. والشكر أيضًا لصديقتيّ "رئيفة العوّاد" و"صفيّة محمّد سلامين"، اللتين زوّدتاني بالعديد من المصادر والمراجع، ونابتا عني في كثير من المهمّات الإداريّة في أثناء الغياب. ولا يفوتني في هذا المقام أن أتوجّه بجزيل الشكر والتقدير إلى زوجيَ الطالب علي حبيب الله"، الذي جمعني به قسم التاريخ، على ملاحظاته السديدة، وتدقيقه الدراسةَ لغويًّا، وترجمته للمراجع العبريّة.

وكلّ التحيّة والشكر والتقدير إلى العاملين في مكتبتنا الرائدة، في الجامعة الأردنيّة؛ لِما قدّموه من مساعدة وتسهيلات في البحث والإعارة.

فهرس المحتويات

مدينة عسقلان منذ القرن الرابع الهجري حتى القرن السادس الهجري، العاشرة الميلادي الثاني عشر الميلادي.

إعداد
كفاح باسم رشق

المشرف
الأستاذ الدكتور صالح دراركة

المُلخّص

تتناول هذه الدراسة تاريخ مدينة عسقلان، من القرن الرّابع الهجريّ وحتى نهاية القرن السادس الهجريّ؛ أي من العاشر حتى القرن الثاني عشر للميلاد. إلا أنّ هذه الدراسة ترتكز أكثر على الجانبين: السياسيّ والعسكريّ؛ بسبب أنّ هذه المرحلة خاصّة أكثر بمدينة عسقلان، وجميع بلاد الشام، في ظلّ النزاعات المحليّة أولاً، والحروب الصليبيّة ثانيًا.

وقد قُسّمت هذه الدراسة إلى مقدّمة وتمهيد وثلاثة فصول؛ أمّا المقدّمة فتناولت فيها أسباب اختياري موضوعَ مدينة عسقلان، وأهميّة هذه المدينة من الناحية التاريخيّة، ومسوّغات كتابة تاريخها. كما أشرت فيها إلى أسباب اختيار هذه الفترة بالتحديد من تاريخ مدينة عسقلان، وكذلك تعرّضت إلى الصعوبات التي واجهتني في أثناء البحث. بالإضافة إلى المنهج الذي اتّبع في كتابة تاريخ مدينة عسقلان. وأمّا التمهيد، الذي يعدّ مدخلاً للدراسة، فتناولت فيه تاريخ مدينة عسقلان قبل الفترة المحدّدة للدراسة، كما تناولت أصل تسمية مدينة عسقلان، وموقعها الجغرافيّ، ونشأة المدينة

حضاريًّا قبل الفتح العربيّ الإسلاميّن، ثمّ انتقلت إلى أهميّة مدينة عسقلان لدى المسلمين من الناحية الدينيّة، وفتحها أيام عمر بن الخطاب، والظروف التي لحقت المدينة في صدر الإسلام.

وأمّا الفصل الأول، فجاء بعنوان "عسقلان بين القِوى الحاكمة في بلاد الشام ومصر"، ويؤرّخ لمدينة عسقلان تحت سيطرة الدولة العباسيّة سنة ١٣٢ هـ على بلاد الشام، ومن ثَمّ فإنه يتناول عسقلان وسيطرة الفاطميّين عليها، والقوى المحليّة التي ظهرت في بلاد الشام، من مثل: بني الجرّاح في فلسطين وصراعهم معَ الفاطميّين ودور عسقلان في هذا الصّراع، بالإضافة إلى الصّراع السلجوقيّ- الفاطميّ على عسقلان.

وأمّا الفصل الثاني فجاء بعنوان: "دور عسقلان في فترة الحروب الصليبيّة"، ويؤرّخ لمدينة عسقلان طَوال فترة الحروب الصليبيّة، ويتعرّض للظروف التي عصفت بها في جميع مناحي الحياة، كما يتناول أسباب الحروب الصليبيّة على المشرق، وسقوط بيت المقدس بأيدي الصليبين، ومعركة عسقلان سنة (٤٢٢هـ/١٠٩٩م)، والحملات العسكريّة الفاطميّة ضدّ الصليبين في فلسطين، التي كانت تنطلق من مدينة عسقلان، حتى حصار عسقلان وسقوطها بأيدي الصليبين سنة (٥٤٨هـ / ١١٥٣م).

وأمّا الشقّ الثاني من هذا الفصل فيتابع تاريخ مدينة عسقلان بعد سيطرة الصليبين عليها، وظهور الأيّوبيين وخصوصًا صلاح الدين واسترداده المدينة سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، ومن ثَمّ سقوطها ثانية بأيدي الصليبين سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م)، ودخول المدينة مرحلة المفاوضات التي

عرفت بمفاوضات صلح الرّملة في العام نفسه من سقوطها، بالإضافة إلى تجدّد الصّراع الإسلاميّ– الصليبيّ على المدينة واسترداد المسلمين لها سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م).

وأمّا الفصل الثالث، وهو الأخير، فأتى بعنوان: عسقلان بعد الحروب الصليبيّة، ويـؤرخ لتاريخ المدينة في ظلّ عهد المماليك في مصر، ومن ثَمّ يتطرّق إلى الجوانب الأخرى من حياة المدينة: الاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة، والعلميّة طَوال فترة الدراسة، وتأثير الصّراع الإسلاميّ _ الصليبيّ في هذه الجوانب من حياة المدينة. يلي ذلك الخاتمة، التي تتضمّن أهمّ النتائج التي توصّلت إليها الدراسة.

المُقدّمة

من غير أدنى شكّ، فإنّ عمليّة التأريخ للمدينة العربيّة الإسلاميّة، قد شهدت نشاطًا بارزًا خلال القرن العشرين، ومطلع القرن الحالي من قِبل مجموعة مؤرّخين، من جميع أقطار العالم العربيّ والإسلاميّ؛ إذ عاد هؤلاء المؤرّخون إلى تتبّع حركة تأسيس المدينة العربيّة الإسلاميّة وتطوّرها منذ مرحلة صدر الإسلام، عندما كانت الدولة العربيّة الإسلاميّة ما تزال في نعومة أظفارها. معَ لفت النظر إلى أنّ بناء المدينة العربيّة الإسلاميّة قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بحركة الفتوحات العربيّة الإسلاميّة، التي انطلقت في السنة الثامنة للهجرة- ٦٢٩م باتجاه بلاد الشام والعراق، فكان لا بدّ حينئذٍ من إقامة معسكرات في البلاد المفتوحة لجيوش الفاتحين، عُدّت النواة الأولى لتشكّل المدينة العربيّة الإسلاميّة.

هذا على المستوى العامّ، أمّا على المستوى الخاصّ فقد شهد النصف الثاني من القرن العشرين جملة من المؤرّخين العرب، الذين سعوا إلى كتابة تاريخ المدينة العربيّة الفلسطينيّة خاصّة بعد المحنة (النكبة) التي تعرّضت لها فلسطين عام ١٩٤٨م، إثر احتلال الحركة الصهيونيّة لها. فكان ذلك هو الدافع الأساس وراء كتابة مجموعة من المؤرّخين وغير المؤرّخين تاريخ المدن والقرى الفلسطينيّة؛ بهدف تأكيد هُويَّتِها العربيّة الإسلاميّة على مدار قرون طويلة.

ومن هنا، آثرنا في هذه الأطروحة إفرادَ دراسة، تؤرّخ لإحدى أهمّ المدن العربيّة الفلسطينيّة الساحليّة، هي عسقلان، وقد كان الدافع وراء اختيارنا كتابة تاريخ هذه المدينة جملة من العوامل والأسباب، أبرزها:

- ما حلّ بمدينة عسقلان بعد احتلالها عام (١٩٤٨م) من تشويه، وطمس لمعالمها العربيّة الإسلاميّة على أيدي الصهاينة. وهذا يستلزم منا إعادة كتابة تاريخها العربيّ الإسلاميّ في مراحلَ مختلفة.
- أهميّة مدينة عسقلان، من حيثُ موقعُها الجغرافيُّ على الساحل؛ فهي مدينة استراتيجيّة، وكانت محطّ أنظار الغُزاة في مراحلَ تاريخيّة مختلفة.
- موقعها الجغرافيّ البريّ في جنوبي بلاد الشام؛ فهي تعدّ حلقة وصل وجسر عبور بين بلاد الشام ومصرَ. وقد ترك موقعها البري أثرًا مهمًّا على العلاقات الشاميّة المصريّة في عدّة مراحلّ تاريخيّة مختلفة.
- التعريف بمدينة عسقلان؛ فالكثيرون يجهلون تاريخها، وطبيعة هذه المدينة من النواحي: السياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والعلميّة، وكذلك العمرانيّة.

وتشير هذه العوامل وراء اختياري لمدينة عسقلان، إلى أهميّة هذه المدينة، فبالإضافة إلى موقعها الجغرافيّ من الناحيتين: البحريّة والبريّة، فإنها أيضًا نقطة التقاء بين الشرق والغرب، وقد أدّت هذا الدور على مر التاريخ، سواء من الناحية التجاريّة وتبادل البضائع معَ الأوروبيين ووجود مينائها المشهور، أو من النواحي: الدينيّة والثقافيّة والسياحيّ. فضلاً عن أنّ عسقلان كانت على مدار التاريخ حامية وقاعدة عسكريّة أمنيّة بالنسبة إلى فلسطين وبلاد الشام جميعها؛ فأمن المدن الفلسطينيّة الداخليّة واستقرارها من أمن عسقلان واستقرارها.

إنّ هذه الدراسة المتواضعة ليست الدراسة الأولى التي تتناول تاريخ مدينة عسقلان، فهناك عدّة دراسات أخرى سابقة تناولت تاريخ المدينة في مراحل تاريخيّة مختلفة، منها:

- دراسة بعنوان: "**عسقلان ودورها في الصّراع الصليبيّ – الإسلاميّ**"، وهي رسالة جامعيّة قدّمها مصطفى عبدالعزيز العسقلانيّ، تغطي تاريخ مدينة عسقلان في أثناء فترة الحملات الصليبيّة من سنة (٤٩٢-٦٤٥هـ/١٠٩٩-١٢٤٧م). وتركّز هذه الدراسة على الجانبين: السياسيّ، والعسكريّ فقط، فضلاً عن أنها تتعرّض للمتغيّرات التي حدثت للمدينة في هذين الجانبين طَوال فترة الحملات الصليبيّة.

- دراسة بعنوان: "**الحياة العلميّة في غزة وعسقلان – منذ بداية العصر العباسيّ حتى الغزو الصليبيّ (١٣٢ هـ-٤٩١ هـ/٧٥٠-١٠٩٧م)**"، أعدّها الباحث زهير أبو رحمة، وهي دراسة تؤرّخ لمدينتي: غزّة وعسقلان، وتتناول الحياة العلميّة والثقافيّة فيهما في جميع المجالات العلميّة التي عرفها المسلمون العرب، كما أنها تطرّقت إلى الجانب السياسيّ وتأثيره في الحياة العلميّة في عسقلان تحديدًا، كما تطرّقت إلى الأوضاع الإداريّة والحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في هاتين المدينتين منذ بداية العصر العباسيّ حتى الغزو الصليبي.

- دراسة بعنوان: "**عسقلان منذ (منتصف القرن الرّابع الهجريّ وحتى النصف الثاني من القرن السابع الهجريّ)، دراسة تاريخيّة حضاريّة (٣٥٥-٦٦٩هـ/٩٦٩-١٢٧٠م)**"، وهي رسالة دكتوراه من إعداد عادل محمّد جعفر نبهان عبدالهادي، يتناول فيها مدينة عسقلان في مبحثين، الأول: الأهميّة التاريخيّة والجغرافيّة لعسقلان، والثاني: عسقلان قُبيل استيلاء الفاطميّين عليها. وقد تطرّقت الدراسة إلى جوانب الحياة في مدينة عسقلان، سواء الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة أو العلميّة أو العمرانية طَوال فترة الدراسة.

وعلى الرّغم من أنّ الدراساتِ السابقةَ قد قدّمت قسطًا وافرًا مـن المعلومـات، وأضـاءت جوانبَ مهمّة من تاريخ مدينة عسقلان، فقد سعت الباحثة في هذه الدراسة إلى اختيار مدينة عسقلان لكتابة تاريخها في فترة محدّدة، تمتدّ من القرن الرّابع الهجريّ وحتى نهاية القرن السادس الهجريّ (العاشر إلى الثاني عشر الميلاديّ). أمّا أسباب اختيار هذه الفترة، فأبرزها:

- تميّزت المرحلة الممتدّة من القرن الرابع الهجري وحتى القـرن السـادس الهجـري بالتقلّبـات السياسيّة وتغيّر الأحوال في ديار الإسلام، فكانت مدينة عسقلان في صُلب هذه الأحـداث بحكـم موقعها الجغرافيّ كمدينة ثغر ساحليّة.
- شهدت ديار الإسلام في هذه الفترة الكثير من النزاعات والصّراعات الداخليّة والمحليّة، بين قوًى ظهرت في جميع أرجاء مصر وبلاد الشام، وساهم ذلك في انهيار الوحدة الإسلاميّة، وانقسـام الأمّة، وضعف سلطة الدولة في بغداد، وقيام دويلات إسلاميّة مناهضة لها في الشام ومصر.
- شهدت هذه الفترة أحداثًا كبرى، عُدّت من أكبر الأحداث وأكثرها تأثيرًا في تـاريخ الحضـارة العربيّة الإسلاميّة، كان أهمها الحملات الصليبيّة أو الحروب الصـليبيّة أو مـا عُـرف عنـد المؤرّخين المسلمين بغزو الفِرنجة. وقد أثرت هذه الحروب تأثيرًا مباشرًا في المدن الإسـلاميّة، خصوصًا في بلاد الشام، ومنها مدينة عسقلان التي أدّت دورًا أساسـيًّا فـي أثنـاء الصّـراع الإسلاميّ الصليبيّ.

ولمّا كان لكلّ دراسة، ولكلّ بحث، صعوباتٌ تعترض سبيل الباحث، خصوصًا في البحـث التاريخيّ، وما يتعلّق منه بكتابة تاريخ فترات زمنيّة محدّدة تفصلنا عنها قرون طويلة، وعلى الرّغم من وفرة المصادر والوثائق وكذلك المراجع التي تتعلق بمدينة عسقلان، فإنّ هناك صعوباتٍ ومشاقَّ قد واجهت هذه الدراسة، أبرزها:

- أنّ كثرة المصادر والمعلومات، التي تتعلق بمدينة عسقلان خصوصًا في الفترة المخصّصة للدراسة، كانت في حدّ ذاتها مشكلة واجهت الباحثة في أثناء البحث، من حيثُ كيفيّةُ التعامل معها، وصحّة انتقاء المعلومة واقتباسها، وأيُّ المعلومات الأصحّ والأدّق عند تضارب معلومات المصادر حول أيّ حدث تاريخيّ.
- وجود مصادر عربيّة إسلاميّة ومصادر أخرى أجنبيّة، وهذا التنوّع في المصادر يحمل في طيّاته تضاربًا وتناقضًا في المعلومات والوقائع، خصوصًا في الفترة التي تتعلق بالحروب الصليبيّة، وهذا ما دفع الباحثة إلى بذل جهد مضاعف، معَ توخّي الحذر في التعامل معَ معلومات المصادر.
- تركيز المصادر الإسلاميّة، وكذلك الأجنبيّة على الجانبين: السياسيّ العسكريّ، المتعلقين بتاريخ المدينة في هذه الفترة، وندرة المعلومات في ما يتعلق بالجانب الاجتماعيّ؛ إذ لم تستطع الباحثة العثور على معلومات كافية تتعلق بالحياة الاجتماعيّة وتغيّرها في المدينة خلال القرون الثلاثة.

منهج الدراسة

اتّبعت هذه الدراسة منهجيّة قامت على الآتي:

- الإحاطة بمصادر الدراسة ومراجعها من وثائقَ وكتبٍ مطبوعة وأبحاثٍ وأرشيفات ومقالات علميّة تاريخيّة.
- جمع المادّة التاريخيّة المتعلقة بمدينة عسقلان في فترة الدراسة.
- اتّباع منهجيّة البحث التاريخيّ في نقد المعلومات المجموعة وتصنيفها وتنظيمها وَفق خطة الدراسة.
- عرض ما توصّلت إليه الدراسة من نتائجَ واستنتاجاتٍ بأسلوب علميّ ولغة سليمة.

تمهيد

- عسقلان الأصل والتسمية
- الموقع الجغرافيّ لمدينة عسقلان
- أهمّ القرى والمواقع التابعة لعسقلان
- نشأة مدينة عسقلان: عسقلان ما قبل الفتح العربيّ الإسلاميّ
- عسقلان والفتح العربيّ الإسلاميّ
- الأهميّة الدينيّة
- (عسقلان في مرحلة صدر الإسلام)
- عسقلان والخلافة العباسيّة.

عسقلان: الأصل والتسمية

إنّ مدينة عسقلان التي ترزح تحت الاحتلال الإسرائيليّ منذ عام (١٩٤٨م)، تعرف منذ تلك اللحظة باسم مدينة " أشقلون" (אשקלון)، وهو الاسم الذي كانت تعرف به المدينة قبل الفتح العربيّ الإسلاميّ (٢٣هـ/ ٦٤٤م)، لكنها ما زالت في ذاكرة أبنائها العرب المهجّرين في عام ثمانٍ وأربعين تعرف باسم عسقلان، وهو الاسم العربيّ للمدينة على مدار قرون طويلة في ظلّ الحكم الإسلاميّ لها.

وجاء في لسان العرب: العسقلة، مكان فيه صلابة وحجارة بيض، والعسقل والعسقل والعسقولة، كلّه، ضرب من الكمأ/ بيض تشبّه في لونها بتلك الحجارة، وقيل: وهي الكمأ التي بين البياض والحمرة. وقيل: هو أكبر من الفقع، وأشدّ بياضًا واسترخاءً.

والعسقل والعسقلة والعسقول، كلّه تلمع السراب وتريعه، وقيل عساقيل السراب، قطعة لا واحد لها، ويقال ضرب عسقلانه وهو أعلى رأسه، العساقيل ضرب من الكمأة وهي الكمأة الكبار البيض. وعسقلان مدينة وهي عروس الشام، وعسقلان سوق تحجّه النصارى في كلّ سنة[١].

وقد ظهرت آراء مختلفة حول معنى لفظ عسقلان والتسمية. يقول صاحب معجم البلدان: "إنّ عسقلان بفتح أوله وسكون ثانيه ثمّ قاف وآخره نون، وعسقلان الإقليم الثالث من جهة المغرب خمس وخمسون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة، وهو اسم أعجمي في ما علمت. وقد ذكر

١- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمّد مكرم، (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، م٢، تحقيق: يوسف خياط، دار بيروت، د. ط، ص٧٧٧، وسيشار إليه لاحقًا: ابن منظور، لسان العرب. انظر أيضًا: الجليلي، حسين لوباني، معجم أسماء المدن والقرى الفلسطينيّة، مؤسسة باحث للدراسات، ص١٧٦.

بعضهم أنّ العسقلان أعلا (أعلى) الرأس، فإنْ كانت عربية فمعناه أنها في أعلا الشام، وهي مدينة من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزّة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام[١].

ويقول البكري: "إنّ عسقلان بفتح أوله وإسكان ثانيه، بلد معروف واشتقاقه من العساقيل، وهو من الشرب أو من العسقيل، وهو الحجارة الضخمة[٢]. ويقال العسقلان أعلى الرأس"[٣].

وحول تاريخ تسمية مدينة عسقلان، فقد عُرفت منذ أقدم العصور، باسم: "أشقيلون". وذكرها سكايلاس: "أسقلون" "Ascalon"[٤]، وظهر اسمها مكتوبًا أول ما ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد في الكتابات الفرعونيّة. كما ظهر في رسائل تل العمارنة التي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وبقي الاسم أشقلون شائعًا حتى العصر الهليني (٣٣٢/ ٦٤٠ ق.م)[٥]، واستمرّ حاله حتى الفتح الإسلاميّ فأصبح عسقلان. وورد ذكرها في التوراة باسم: "أشقلون"؛ إذ جاء في سفر القضاة: "وأخذوا يهودا غزة، وتخومها، وأشقلون وتخومها، وعقرون وتخومها".[٦]

١- الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الروميّ البغداديّ، (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٨ أجزاء، تحقيق: محمّد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨م، ج٢، ص٣٢٧، وسيشار إليه لاحقًا الحموي، معجم.

٢- البكري، أبو عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي، (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع، ١٤ جزء، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، د. ط، ج٣، ص٩٤٣ وسيشار إليه لاحقًا: البكري، معجم.

٣- ابن منظور، لسان العرب، م٢ ، ٧٧٨

٤- جونز، أ، هـ، م. بحوث في تاريخ بلاد الشام- مدن بلاد الشام، ترجمة إحسان عبّاس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، الأردنّ، ١٩٨٧م، ج٢، ص١٤، وسيشار إليه لاحقًا جونز، بحوث .

٥- شوشن، آفي، أشكلون عير لحوف يميم (عسقلان مدينة على شاطئ الأيام)، ثلاثة أجزاء، دار يستحق بن تسفي (إسحق بن غزال)، يروشلايم (القدس)، ط١، ٢٠٠١م، ج١، ص٦، وسيشار إليه لاحقًا: شوشن، أشكلون، انظر أيضًا: صالحة، محمود، المجدل تاريخ وحضارة، منشورات المركز القومي للدراسات والتوثيق، ط١، غزة، ص٩، وسيشار إليه لاحقًا: صالحة، مجدل.

٦- التوراة، سفر القضاة، ص١١١. انظر أيضًا، العارف، عارف، الموجز في تاريخ عسقلان، مطبعة بيت المقدس، ط١، القدس، ١٩٤٣م. ص٨، وسيشار إليه لاحقًا: العارف، الموجز.

ومعَ الاحتلال الصهيونيّ لفلسطين في عام ١٩٤٨م، غيّرت اللجنة الأثريّة المتخصّصة، التي تشكلت تحت إشراف الزعيم الصهيونيّ بن غوريون، اسم مدينة عسقلان العربيّ، وأبدلته باسم أشقلون. ولم يقف مشروع هذه اللجنة عند تسمية مدينة عسقلان حَسْبُ، بل طال معظم المدن والقرى الفلسطينيّة العربيّة، مثل: أسدود التي بدّل اسمها إلى أشدود، وصفد إلى تسفات،... وهكذا؛ حيث سعت هذه اللجنة بالإضافة إلى تغيير معالم المدن والقرى إلى تبديل أسمائها، بما يتناسب معَ الروح الصهيونيّة والتوراتيّة.

موقعُ مدينةِ عسقلانَ الجغرافيُّ

تميّزت مدينة عسقلان بموقعِها الجغرافيّ؛ كونها مدينة ساحليّة بحريّة؛ أي تقع على الشريط الساحليّ لبلاد الشام على البحر المتوسط. وتقع عسقلان في المدخل الجنوبيّ لبلاد الشام جهة الساحل عند خط عرض ٣١ شمالاً، بالإضافة إلى أنها من الثغور الساحلية، التي كانت تتميّز بقدرتها على مواجهة الأعداء برًّا وبحرًا. وقد وصفها، أبو الفداء، وأشار إلي مينائها، الذي كانت تتمّ فيه كثير من الصفقات التجاريّة؛ حيث إنه واسع تقصده جميع السفن الآتية إلى فلسطين، ومنه تتّجه إلى جميع الجهات.[1]

[1]- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي محمود بن عمر شاهنشاة بن أيّوب (ت ٧٣٢هـ-١٣٣١م)، تقويم البلدان، د. ت، دار صادر، بيروت، ص٢٣٩، وسيشار إليه لاحقًا: أبو الفداء، تقويم. وانظر أيضًا، الراهب، دانيال، وصف الأرض المقدّسة في فلسطين(١١٠٦/١١٠٧م)، ترجمة: سعيد عبدالله البيشاوي، وداود إسماعيل أبو هدبة، دار الشروق، ط١، عمان- الأردن، ٢٠٠٣، ص٢٨، وسيشار إليه لاحقًا: الراهب، وصف.

وفي المقابل، تقع مدينة عسقلان إلى الشمال من مدينة غزة[١]، وإلى الشمال من عسقلان تقع مدينة أشدود (أسدود)[٢]، وإلى الشمال الشرقيّ من عسقلان تقع مدينة بيت المقدس، وتبعد عنها نحو ٤٠ ميلاً[٣]. وتقدّر المسافة بين عسقلان وغزّة بنحو عشرين ميلاً، من ميماس إلى عسقلان فتقدّر بنحو عشرين ميلا[٤]. ولذلك كانت مدينة عسقلان بمثابة مفتاح الغزاة للسيطرة على فلسطين، بحكم موقعها الساحلي المهمّ. وإذا ما عُدنا إلى تتبّع حركة غزاة فلسطين بدءًا من الحملات الصليبيّة وانتهاءً بالحركة الصهيونيّة، نجد أنّ مدينة عسقلان كانت أول ما يقع تحت أنظار هؤلاء الغزاة للسيطرة على فلسطين؛ بهدف قطع الطريق على مصر ومنعها من نجدة شعب فلسطين عند الحاجة.

وفي ما يتعلق بمساحة مدينة عسقلان، فإنها تُقدّر بنحو ٥٤٠٠ دونم[٥]، وهي المساحة لا تشمل المدينة نفسها فقط، إنما عسقلان وضواحيها والأراضي الزراعيّة والمراعي المحيطة بها. وقد تميّزت عسقلان على مدار التاريخ بأبوابها (مداخلها) المشهورة، وتحصيناتها المنيعة، وأسوارها العالية والقوية، وهذه حالة تشابهت فيها كثير من المدن الفلسطينيّة، مثل: عكا، ويافا، وبيت المقدس، وكذلك بعض مدن بلاد الشام.

---

١ - غزة: لفظة عربية كنعانية بمعنى القوة والمنتعة والعزة وقد وصفت بأننها مدينة كبيرى ععلى طريق مصر وطرف البادية وقرب البحر بها جامع حسن وفيها أثر عمر بن الخطاب ومولد الإمام الشافعي وبها قبر هشام بن عبد مناف جد الرسول وهي مدينة قوية جداً.

٢ - أسدود تقع بين مدينتي عسقلان ويافا وهي واقعة على بعد عشرة أميال من مدينة عسقلان وهي غير بعيدة عن البحر وكانت سابقاً إحدى مدن فلسطين الخمس ولكنها تراجعت في الوقت الحاضر إلى حجم قرية صغير ص٤٦/ تاريخ بيت المقدس، يعقوب الفينري، ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي ط١/١٩٩٨، ص٤٥، دار الشروق.

٣- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإسكندريّة، ١٩٩٢م، ص٣٣، وسيشار إليه لاحقًا: العسقلاني، عسقلان.

٤- الإدريسي، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن عبدالله بن إدريس الحموديّ (ت٥٦٠هـ-١١٦٦م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، د. ت، مكتبة الثقافة الدينيّة، بورسعيد مجلد١، ص٣٥٦، وسيشار إليه لاحقًا: الإدريسي، نزهه.

٥- مجهول، مختصر البلدان في أرض كنعان، ترجمة جودة السعد، مكتبة برهومة، عمّان، الأردنّ، ص٢١، وسيشار اليه لاحقًا: مختصر البلدان.

وكان لمدينة عسقلان أربع بوابات رئيسة، أشار إليها المؤرّخ اللاتيني وليم الصوري[١] على نحو مفصّل، وهي: بوابة عسقلان الأولى أو الرّئيسة التي تقع في الجهة الشرقيّة، وتسمّى أيضًا البوابة العظمى Great Gate، ويطلق عليها أيضًا بوابة بيت المقدس لأنها تؤدّي إلى بيت المقدس[٢]. ويحيط بها برجان عاليان أُقيما لتحصين المدينة والدفاع عنها، وأمام هذه البوابة الكبيرة ثلاث بوابات صغيرة، تنتهي عند المدخل الرئيسي بطرق مختلفة[٣].

أمّا البوابة الثانية فتقع غرب المدينة، وتسمّى بوابة البحر لأنها تؤدّي إلى شاطىء البحر المتوسط مباشرة، وتقع البوابة الثالثة جنوبي المدينة، التي تؤدّي إلى مدينة غزة؛ لذا عُرفت ببوابة غزة. أمّا البوابة الرابعة فتقع في الجهة الشماليّة للمدينة، وتسمّى ببوابة يافا لأنها تؤدّي إلى مدينة يافا الواقعة إلى الشمال من عسقلان[٤]، ويذكر رستون، أن فيها ميناء مقوّس الشكل، ومحصن بجدار مزدوزج وثلاثة وخمسين برجاً وأسوار خارجية منيعة[٥].

وأمّا بالنسبة إلى مُناخ مدينة عسقلان، فهي من المدن ذات المُناخ المعتدل على نحو عام، سواء في الصيف أو الشتاء؛ لأنها تقع ضمن إقليم مُناخ البحر المتوسط المعتدل؛ فالشتاء معتدل الحرارة وماطر، والصيف جافّ وحارّ باعتدال، وتهبّ رياح الخماسين في بعض أيّام فصل الرّبيع.

١- وليم الصوري، ولد في مملكة بيت المقدس عام ٥٢٤هـ-١١٣٠م، والرّاجح أنّ أبويه نزحا من الغرب إلى هذه الجهات، غير أنه لم تتحقق صفة والديه، وأي الجهات قدِما منها، ومتى ارتحلا إلى بيت المقدس؛ إذ اختلفت الروايات في ذلك، فمنهم من يقول: إنهم قدموا من إنجلترا، أو ألمانيا، أو إيطاليا، أو فرنسا. وقد شغل وليم منصف رئيس أساقفة صور سنه ١١٧٥م، وظلّ مستشارًا لمملكة بيت المقدس حتى وفاته سنة ١١٨٦ م، وقد عُرف بإجادته لغات عدّة، منها: العربيّة، والفارسيّة، واليونانيّة. انظر: العريني، الباز، مؤرّخو الحروب الصليبيّة، دار النهضة العربيّة، ط١، القاهرة، ١٩٦٢م. ص١٠١، وسيشار إليه لاحقًا: الباز، مؤرّخون.

٢- الصوري، وليم (ت ٥٨٢هـ-١١٨٥م). تاريخ الحروب الصليبيّة، الأعمال المنجزة في ما وراء البحار، ترجمة وتحقيق سهيل زكّار، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٩٩٩م، ج٢، ص٨١٠، وسيشار إليه لاحقًا الصوري، تاريخ.

٣- المصدر نفسه، ج٢، ص٨١١.

٤- الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨١١.

٥- رستون، جيمس، مقاتلون في سبيل الله، صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة. ترجمة: رضوان السيّد. ذرنش العبيكان، الطبعة الأولى. الرياض. سنة ٢٠٠٢م. ص٣٢٤. وسيشار إليه لاحقاً رستون/ مقاتلون.

أمّا بالنسبة إلى الأمطار فعسقلان أقلّ المدن الساحليّة في كميّات سقوط الأمطار؛ وذلك بحكم قربها من المناطق الصحراويّة، ولأنها أيضًا تقع في الركن الجنوبيّ الشرقيّ لساحل البحر المتوسط[١].

وكون مدينة عسقلان مدينة ساحليّة، فقد تميّزت بتربتها الرّمليّة، التي كثرت فيها زراعة وكذا أشجار الفواكه والجُمّيز[٢].

وقد اعتمدت مدينة عسقلان، منذ القدم على وسائل عدّة في تخزين المياه، منها تخزين مياه الأمطار[٣]، فاعتمد أهلها على مياه الآبار، التي أنشئت في داخل المدينة وخارجها. وذُكر: "أنّ فيها ستًّا وثلاثين بئرًا، وربّما يوجد خلافها وكلّها تشرب منها البساتين"،[٤] وكان من أشهر هذه الآبار بئر إبراهيم عليه السلام[٥]؛ حيث يصفه ابن بطوطة: "ينزل إليها في درج متّسعة ويدخل منها إلى البيوت، وفي كلّ ناحية من جهاتها الأربع تخرج من أسراب مطوية بالحجارة، وماؤها عذب وليس بالغزير"[٦].

١- حسين، عبدالرحيم أحمد، قصّة مدينة المجدل وعسقلان، المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، دائرة الثقافة – منظمة التحرير الفلسطينيّة، د. ن، ص١٥، انظر أيضًا، أبو رحمة، زهير عبدالله سعيد، الحياة العلميّة في غزة وعسقلان منذ بداية العصر العباسيّ حتى الغزو الصليبيّ (١٣٢- ٤٩١هـ/٧٥٠- ١٠٩٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلاميّة، غزة، ٢٠٠٦م، ص٤، وسيشار إليه لاحقًا: أبو رحمة، الحياة.

٢- المقدسي، محمّد بن أحمد بن أبي بكر البناء (٣٣٥- ٣٩٠ هـ/ ٩٤٦م – ٩٩٩م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، د. ت، مطبعه بريل ليدن، مدينة ليدن، ط٢، ١٩٦٧م، ص١٧٤، وسيشار إليه لاحقًا: المقدسي، أحسن + أنظر رستون. مقاتلون في سبيل الله. ص٣٢٤.

٣- الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،ج٢،ص٨٠٩

٤- مخطوط، الروضة النعمانيّة في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشاميّة، دار الكتب الظاهريّة الأهليّة، دمشق، ج٢، ميكروفيلم، ٤٩٢٠، ورقة ٩٠. وسيشار اليه لاحقا : مخطوط/ الروضة .

٥- الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت ٦١١هـ- ١٢٤١م)، كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورويل طوميم، ط١، دمشق، ١٩٥٣م، ص٣٢. وسيشار إليه لاحقًا: الهروي، الإشارات.

٦- ابن بطوطة (ت٧٠٣-٧٧٩هـ/ ١٣٠٣م- ١٣٧٧م)، كتاب رحلة ابن بطوطة المسمّاة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جزءان، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسّسة الرّسالة للطباعة والنشر، بيروت، د. ط، ج١، ص٧٨- ٧٩.

وفي ما يتعلق ببناء مدينة عسقلان العمرانيّ، فقد كان بناؤها جذّابًا ومنيعًا في الوقت نفسه، وقد ورد في الروضة النعمانيّة وصف لأسوارها وبنائها؛ إذ ذُكر أنه: "ضمن السّور بساتين كثيرة، وهو على شكل نصف دائرة من جهة البرّ محيطها نحو ستة آلاف قدم، ومن جهة البحر قطرها نحو ميل إنجليزيّ[١]. وقد كان هذا السور متينًا جدًّا، وكله مبنيّ من حجارة رمليّة، ومن خمسة أبراج عظيمة. وبهذا السور أعمدة كثيرة؛ لأجل زيادة القوة، وكانوا يضعونها كالخشب الذي يصنعه الدمشقيّون في بناء الجدران، ويسمّونه بالنّجاف؛ أي ممدودة إلى الداخل، وإذا رآها الناظر عن بعد، يظنّها مدافع، وبالسّور من جهة البحر كثير منها، أكثر من البر"[٢]. بالإضافة إلى حصانة أسوارها المبنيّة من الحجارة، التي روعي في بنائها القوّة والمتانة؛ لتضيف إلى حصانتها الطبيعة الرمليّة لما حولها، فقد كانت هذه الأسوار تحمي المدينة ممّا تتعرّض له في فصل الشتاء من الرّياح الشديدة، ما يجعل الميناء غير صالح لاستقبال السفن في هذا الوقت، فيسهل الدفاع عن المدينة، وتضفي عليها صبغة عسكريّة[٣].

وفيما يتعلق ببناء مدينة عسقلان، يصفها الصوري: أنها واقعة على ساحل البحر على شكل نصف دائرة، وتستقر المدينة في حوض يميل إلى البحر وتحيط بها دفاعات اصطناعية، من جميع الجهات، ترتفع فوقها الأسوار مع أبراج على مسافات متتالية، وكلها مشيدة ببناء صلب وملصق مع بعضه ببلاط أشد قساوة من الحجرلا، والأسوار واسعة وذات سماكة جيدة وارتفاع مناسب، وعلاوة على ذلك فهي محاطة بتحصينات خارجية مبنية بالمتانة نفسها، لا توجد أي أنهار ضمن حدود

---

[١] – الميل اسم يدل على وحدات مختلفة لقياس الطول والميل الانجليزي في نظام الامبراطورية البريطانية يقابل ١٧٦٠ ياردة و ٥٢٨٠ قدم وأنه لا يزال شائع الاستعمال في البلدان الانغلواكونية. أنظر: علي جمعة، المكاييل والموازين الشرعية.

[٢] – الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٨٠٩.

[٣] – الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢ ، ص٨١٠

الأسوار ولا توجد أي ينابيع مجاورة، إلا أن الآبار المحيطة بها خارج المدينة وداخلها تقدم زاداً وفيراً من الماء العذب للشرب.

وكإحتياط إضافي أقام السكان صهاريج في داخل المدينة لتخزين مياه الأمطار.

وأضاف ابن بطوطة في رحلته المشهورة سنة (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)، بأنها مدينة تضمّ المشهد الذي يحوي رأس الحسين بن علي بن أبي طالب[١]. وكذا أشار المقدسي صاحب أحسن التقاسيم إلى جمالها وما يحيط بها من أشجار، وذكر سوقها الرُّخامي، والسلع الكثيرة التي تتدفّق إليها[٢].

أهم القرى والمواقع التابعة لعسقلان:

كان من أهم القرى المحيطة التي اقترن ذكرها باسم مدينة عسقلان قرية "المجدل" وكانت مقرونة بمدينة عسقلان لأنها ضاحية من ضواحيها. والمجدل كلمة آرامية بمعنى البرج أو القلعة والمكان العالي المشرف على الحراسة وكانت تعرف بمجدل عسقلان[٣] لأنه هناك أكثر من قرية في فلسطين عُرفت باسم المجدل مثل مجدل قضاء طبريا ومجدل نابلس والمجدل قضاء الناصرة ومن القرى المشهورة والمقرونة أيضاً بعسقلان كانت قرية الجورة التي تقع على بقعتها والتي تبعد عن غزة مسافة ٢٧ كم[٤].

١- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج١، ص٧٨. انظر أيضًا، القرماني، أحمد بن يوسف، أخبار الدول وآثار الأُول في التاريخ، ت١٠١٩-١٦١٠م، تحقيق: أحمد حطيط، وفهمي سعيد، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٩٩٢م، ج٣، ص٤٢١. ويذكر الهروي أنه تمّ نقل رأس الحسين من عسقلان إلى مدينة القاهرة بعد أن استولى عليها الفرنجة سنة ٥٤٩هـ. الهروي، الإشارات، ص٣٢

٢- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٧٤.

٣- صالحة. محمود. المجدل تاريخ وحضارة. ص٢٨.

٤- الدباغ، مصطفى. بلادنا فلسطين. ص١٥٩.

ومن القرى التابعة أيضاً لعسقلان قرية خريب ومنها حتاوة[١] وأيضاً قرية الحندرة ومنها أيضاً قرية حلبة[٢] ويقول الباحث زهير أبو رحمة أن قرية الحبلة، كانت في الأصل حلبة لسباق الخيل، خاصة أن أكثر من سكن عسقلان هم من المرابطين والفرسان والمقاتلين[٣]. ومن ضواحي المدينة أيضاً قرية سجلين[٤]. ومنها أيضاً قرية مسكة أو مسيكة الساحلية. ويتبع قرية مسكة قرية مازور[٥]. ومنها أيضاً قرية عجّسي[٦]، ومها أيضاً الديماس موضع في وسط عسقلان، والديماس هذه نسبة إلى ديماس وهو الحمّام والديماس الحماميّ[٧].

على ما يبدو أن هذا الموضع كان حماماً عاماً لأهل عسقلان، خاصة أن الحمّامات كانت منتشرة بشكل كبير في العالم الإسلام، وأيضاً منها كورة بيت عفا[٨]. وأيضاً قرية هوجا من أعمال عسقلان[٩]. وقد أشار صاحب معجم البلدان إلى قرية ابني أو يبني بين عسقلان الرملة[١٠].

---

١ –ابن عساكر. أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، (ت ٤٩٩-٥٧١هـ/ ١١٠٥م- ١١٧٥م)، الأربعين البلدانية، ٥ أجزاء، تحقيق مركز جمعية المساجد قسم التحقيق، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م. ط١، ج٤، ص٢٤٦. وسيشار إليه لاحقاً ابن عساكر، الأربعين.

٢ –المصدر السابق، ج٤، ص٢٤٧.

٣– أبو رحمة، زهير، الحيالة العلمية في غزة وعسقلان، ص٧.

٤ –السمعاني، أبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي. (ت ٥٦٢هـ/١٨٦٦م)، الأنساب، ١٥ جزاء، تحقيق عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م، ط١، ج٢، ص٢٧٨، وسيشار إليه لاحقاً السمعاني، الأنساب. انظر ابن عساكر، الأربعيني البلدانية، ج٣، ص١٩٣.

٥ –ابن عساكر، الأربعيني البلدانية، ج٥، ص٤٠.

٦ –السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الكمال. (ت ٨٤٩-٩١١هـ/ ١١٤٥-١٥٠٥م) لب اللباب في تحرير الأنساب، تح محمد أحمد عبد العزيز واشرف أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ج٢، ص١٠٨.

٧ – ابن عساكر، الأربعيني البلدانية، ج٢، ص١٠١، أبو رحمة، زهير، الحياة العلمية، ص٨.

٨ – ابن عساكر، الأربعيني البلدانية، ج٢، ص١٠١.

٩ – الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (٦٧٣-٧٤٨هـ/ ١٢٧٤-١٣٤٨م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م، ط١، ص١٣٨.

١٠ –الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤٢٨.

نشأة مدينة عسقلان

تعدّ مدينة عسقلان من أقدم المدن الفلسطينيّة، لا بل من أقدم المدن في بلاد الشام جميعهـــا؛ والنقوش والشواهد التاريخيّة الماديّة التي أظهرتها الحفريات الأثرية تؤكّد ذلك. وحَسب ما جاء في الموسوعة الفلسطينيّة، فإنّ عسقلان بلدة قديمة بناها الكنعانيون العرب، الذين استقرّوا في بلادنا منذ فجر التاريخ، قادمين من أطراف الجزيرة العربيّة.[١] وكان كنعانيو فلسطين يعيشون أيّام العصـــر البرونزيّ، وخلّفوا وراءهم تراثًا حضاريًّا يفتخرون به، بَهَرَ الغزاة وأخذ نفوسهم كلّ مأخذ، فعوضًا عن التأثر بالغزاة تأثر الغزاة بهم؛ فاتخذوا الكنعانية لغة لهم تحدّثًا وكتابة[٢].

وتشير كثير من المراجع الحديثة، سواء العربيّة أو العبريّة، إلى احتلال مدينـــة عســـقلان وسيطرة المصريين عليها، ويعود ذلك إلى سنة (١٢٨٠ ق.م). وجاء ذلك في وثيقة عثر عليها تشير إلى عمليات احتلال رمسيس الثاني للبلاد[٣]. وقد وُجدت صُوَرٌ على جدران الكرنك في مصرَ تمثّل حصار عسقلان من قِبل جيوش رمسيس الثاني، في السنة التاسعة من ملكة ســـنة (١٣٠١/ ١٢٢٤ ق.م)[٤]. ولما نزل الكريتيون (الفلسطينيون)[٥] البلاد، كانت عسقلان المدينة الوحيدة مـــن مـــدنهم الخمس التي تقع مباشرة على ساحل البحر[٦].

١- الموسوعة الفلسطينيّة، مجموعة باحثين، ق٢، ج١، ص٢٧٤. انظر، الشواف، قاسم، فلسطين_ التاريخ القديم الحقيقي منذ ما قبل التاريخ حتى ألخلافة العباسية، دار الساقي، ط١، بيروت،٢٠٠٦م، ص١٠١، وسيشار اليه لاحقا الشواف/ فلسطين

٢- صالحة، محمود، المجدل تاريخ وحضارة، ص١٠.

٣- كل مكان واثر في فلسطين، ترجمة: عيد حجاج، منشورات مركز الدراسات العبرية، الجامعة الاردنية، ط١، عمـــان، ١٩٩٠م، ص٦٠، وسيشار اليه لاحقا، كل مكان واثر. أنظر: الشواف، فلسطين، ص١٠٣.

٤- فوكس، جدعون، أشكلون بتكوفاه ههلنستي فهارمانيت (عسقلان في العصرين الهليستي والروماني). دار يتسحاك بن تسفي، يروشـــلايم، القدس، ط١، ٢٠٠٣م، ص٧، وسيشار إليه لاحقًا فوكس، أشكلون. الدبّاغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ج١، ص١١.

٥- يؤكّد بعض الباحثين المعاصرين أنّ الكريتيّون الذين نزلوا فلسطين، منهم جاء الفلسطينيّون. انظر، الشراب، محمّد حسن، معجم بلدان فلسطين، المكتبة الأهليّة، ط٢، عمّان، الأردّن، ١٩٩٦، ص٥٣٣. انظر أيضًا، صالحة/ المجدل، ص١١.

٦- الدباغ، بلادنا فلسطين،ق٢ ، ج١، ص١١، الموسوعة الفلسطينيّة، ج١، ص١٥٧.

يقول مصطفى الدباغ، نقلاً عن المؤرّخ اليونانيّ هيرودتس: إنّ أول بناء أقيم للإله "ديركتو" كان في عسقلان، وهذه الآلهة لها وجه امرأة وجسم سمكة، وكان عُبّادها يمتنعون عن تناول السّمك إكرامًا لها[١]. ويضيف: ويخبرنا التاريخ أيضًا أنه كان في عسقلان معبدللبعلة أو (الرّبّة الأمّ) وأنّ الحمامة كانت طيرًا مقدّسًا عندها، كما يقول هيرودتس إنّ الذين أسسوا معبدالرّبّة الأمّ في قبرص، كانوا جماعة من الكنعانيين من مدينة عسقلان[٢].

ويقول "جدعون فوكس": إنّ تاريخ مدينة عسقلان يعود إلى مراحلَ موغلةٍ في القِدم؛ أي إلى ما قبل الاحتلال المصريّ؛ حيث يؤكّد أنّ مدينة عسقلان هي من أقدم المدن والمراكز المأهولة في أرض إسرائيل، لا بل ربّما هي الأقدم على ساحل البحر المتوسط. وبحسب العمليّات الحفريّة الأثريّة على إحدى تلال المدينة، فإنها تعود إلى العصر البرونزيّ المبكر (الأول)، الذي يمتدّ من مرحلة نهاية القرن الرابع حتى ٢٢٠٠ ق.م[٣].

ويضيف جدعون: إنّ المدينة ما بعد العصر البرونزيّ؛ أي بعد عام ٢٢٠٠ ق.م، قد خلت من السكان مدّة وجيزة من الزمن، إلا أنّ استيطانها قد تجدّد في مطلع الألفيّة الثانية ما قبل الميلاد، لتبدأ ما يسمّى بمرحلة أشكلون الكنعانيّة، ومن ثَمّ دخلت المدينة الحكم الهكسوسيّ، وكانت في هذه المرحلة تعدّ من أهمّ المدن في أرض إسرائيل (فلسطين)[٤]. ونلحظ أنّ المراجع العبريّة الحديثة، هي الأكثر تفصيلاً في تاريخ مدينة عسقلان وإدراكًا له، خصوصًا التاريخ القديم. ولذلك يشير: "يوسي جرنفيل" إلى نتائج حفريّات أثريّة أجراها العالم الأثريّ الفرنسيّ: "زان فرو" في عام

١- الدبّاغ، مصطفى، بلادنا فلسطين،ق٢ ، ج١،ص١٥٦.
٢- المرجع نفسه، ق٢ ، ج١، ص١٥٦.
٣- جدعون فوكس، أشكلون في العصرين الهلينستي والروماني، ص٨.
٤- المرجع نفسه، ص٩.

١٩٥٥م، وظهرت هذه النتائج في عام ١٩٩٦م في المدينة، وتكشف أنّ تاريخها يعود إلى ما قبل العصر البرونزي المبكر الذي أشرنا إليه سابقًا؛ إذ تبيّن أنّ هذا التاريخ يعود إلى بداية الألفيّة السادسة قبل الميلاد؛ حيث اتّخذ العالم الأثريّ الفرنسيّ " فرو" في عام ١٩٥٥م مِساحة عشرين دونمًا في موقع بالقرب من المدينة للتنقيب الأثريّ، واكتشف قبورًا وتوابيتَ على عمق بضعة أمتار، تعود إلى العصر النيولونيّ، وكان حجم التابوت مترًا واحدًا إلى مترين، بالإضافة إلى بعض الرّسومات والنقوش التي وجدت في الموقع، التي تعود إلى هذه المرحلة[١].

وبعد المرحلة المصريّة، شهدت المدينة المرحلة البابليّة، التي تعرّضت فيها مدينة عسقلان للتدمير والهدم؛ حيث يقول "جدعون فوكس": إنّ مدينة أشكلون (عسقلان) قد تعرّضت للاحتلال في نوفمبر من عام (٦٠٤ ق.م)، على يد نبوخذ نصّر الثاني، في أثناء حملته على سوريا وأرض إسرائيل، فقد احتلّ المدينة ودمّرها على نحو تامّ[٢]. ويتساءل جدعون عن فترة إعادة بناء المدينة بعد الغزو البابليّ، ويشير إلى أنه وبحسب الحفريّات الحديثة في مدينة أشكلون في عام (١٩٨٨م)، لم يتبيّن بالتحديد تاريخ إعادة بنائها، لكنّ الحفريّات تؤكّد أنّ المدينة في ظلّ المرحلة الفارسيّة كانت عامرة وآهلة بالسكان في نهاية القرن السادس قبل الميلاد[٣].

وفي مطلع القرن (٥٣٩-٣٣٢) ق.م؛ أي مرحلة السيطرة الفارسيّة على مدينة عسقلان، كانت المدينة تابعة لمدينة صور؛ لأن صور كانت عاصمة الفينيقيين؛ إذ يذكر جونز: أنّ الصوريين

١- جونفيل، يوسي (يوسف)، أشكلون هنيولونيت، أشكلون عير لحوف يميم. مجموعة باحثين، دار يتسحاك بن تسفي، يروشلايم (القدس)، ط١، ٢٠٠١م، ص٣٩. سيشار إليه في لاحقا جونفيل، أشكلون.

٢-فوكس، جدعون، أشكلون، ص١٤.

٣- (المرجع نفسه) جدعون فوكس، اشكلون في العصرين الهلينستي والروماني، ص١٥.

كانت لهم أملاك في بلاد الشام، وكانت عسقلان مدينتهم[١]. ويقول الشواف "أن في عسقلان كشفت الحفريات عن اوزان عدة من البرونز تعود الى هذه الفترة، وعليها تحزيزات، لكتابة كنعانيـــة".[٢] وقد عُني السكان بها عناية خاصّة، وكانت في القرن الثالث قبل الميلاد معَ مينائها المركز الـــرّئيس للتجارة معَ رودس في إيطاليا[٣]، ومن ثَمّ انتقلت المدينة إلى مرحلة الاحتلال الرّومانيّ، وكان ذلك في سنة (٦٣ ق.م). يقول فوكس: إنّ عسقلان في ظلّ الاحتلال الرومانيّ كانت مدينة مستقلة عـــن سيطرة المكابيين،الذين كانوا يسيطرون على جزء كبير من أرض فلسطين[٤].

ولمّا احتلّ الرّومان فلسطين، اعترفوا باستقلال مدينة عسقلان؛ فكانـــت تعـــرف بعســـقلان الحرة[٥]. وقد كانت عسقلان مركزًا للمصارف والنقد، ودارًا لضرب الدنانير، وكانت الزراعة فـــي هذه المرحلة مكثّفة ومعروفة في بساتين عسقلان، فاشتهرت بالنخيل (التمور) والكـــروم والخمـــور والبصل والبقول والحِنّاء[٦]. ويذكر صالحة: أنّ المكتشفات الأثريّة التي تعود إلى هذه المرحلة أدّت إلى اكتشاف مجلس المدينة (بولستيرون)، وهو على شكل صالة مسرحيّة دائريّة طولها ١٢٨م مـــعَ صفوف المقاعد، وأجنحة النصّ تزيّن جوانبها، وساحة مجاورة للمجلس يزيّنها ٢٤ عمودًا رخاميًّـــا برؤوس كورنيشيّة، وهناك قبر يتمّ النزول إليه بثلاث درجات، عبارة عن غرفة معَ عقـــد دائـــريّ مزيّنة بعرائش الكُرمة، ويظهر خلال الزينة تمثال نصفيّ لامرأة، وكلب يطارد غزالاً[٧].

١- جونز، مدن بلاد الشام، ص٢٢+ ٥٠

٢- الشواف، فلسطين التاريخ القديم الحقيقي، ص ٢٤٩

٣- صالحة، محمود، المجدل تاريخ وحضارة، ص١٢.

٤- فوكس، جدعون، اشكلون، ص٣٧. انظر أيضًا، جونز، مدن بلاد الشام، ص٥٠-٥٣

٥- جونز، مدن بلاد الشام، ص٦٠، وانظر أيضًا، الموسوعة الفلسطينيّة، ج٢، ص٢١٧.

٦- صالحة، محمود، المجدل تاريخ وحضارة، ص١٢-١٣.

٧- المرجع نفسه، ص١٣-١٤

عسقلانُ والفتحُ العربيّ الإسلاميّ

عُرفت عمليّة الخروج بالدّعوة الإسلاميّة، باسم الفتوحات الإسلاميّة أو الفتح العربيّ. وقد كانت بلاد الشام محطّ أنظار العرب المسلمين، وهذا يعود إلى جملة من الأسباب، منها: أنّ بلاد الشام تقع شماليّ الجزيرة العربيّة، وتحوي العديد من المدن التاريخيّة، والحيويّة، والاستراتيجيّة؛ حيث كانت تقع تحت سيطرة الدولة البيزنطيّة، بالإضافة إلى الهجرات العربيّة المتتالية لكثير من القبائل من الجزيرة العربيّة إلى بلاد الشام، التي استمرّت على مدار سنوات منذ نحو قرن قبل الإسلام. ولا يمكن أن نقلّل أيضًا من أهميّة الدافع العربيّ الإسلاميّ، الذي تجسّد في كثير من الصّحابة والمسلمين في نشر الدين الجديد، وكذلك بسط السيادة الإسلاميّة.

انطلقت الفتوحات الإسلاميّة باتجاه بلاد الشام في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة؛ أي في الثامن من أيلول من عام (٦٢٩م). وكانت أولى غزوات هذه الفتوحات غزوة مؤتة. ومن ثَمّ تتالت الفتوحات بمجموعة من الغزوات والحملات العسكريّة الإسلاميّة في جميع مناطق بلاد الشام بما فيها فلسطين. وقد تمكّنت هذه الحملات من الوصول إلى جنوبيّ بلاد الشام؛ فبعد فتح قيساريّة وصل الخبر إلى الرّملة، وعسقلان، فعقدوا كلّهم صلحًا معَ المسلمين[1]. وقد كانت لمدينة عسقلان أهميّة كبيرة؛ بسبب موقعها البحريّ المهمّ؛ إذ كانت تشكل أهمّ الخطوط الدفاعيّة للدولة البيزنطيّة في بلاد الشام، بالإضافة إلى أهميّتها الدينيّة والقدسيّة.

---

[1]- الواقدي، أبو عبدالله محمّد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي المدني، (ت ٢٠٧هـ– ٨٢٢م)، الفتوح، ٢ أجزاء، تحقيق دراركة، د.ت دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ج٢، ص٣٦، وسيشار إليه لاحقًا الواقدي، الفتوح.
الطبري، أبو جعفر محمّد بن جرير بن يزيد، (ت ٢٢٤– ٣١٠هـ/ ٨٣٨– ٩٢٢م)، تاريخ الأمم والملوك، ٦ أجزاء، دون تحقيق، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط٤، ٢٠٠٢م، ج٢، ص١٨١، وسيشار إليه لاحقًا الطبري، تاريخ.

وقد أشارت بعض المصادر إلى جملة من الأحاديث النبويّة الشريفة التي تؤكّد أهميّة مدينة عسقلان من الناحية الدينيّة عند المسلمين. وذُكر عن ابن عباس قوله: "جاء رجل إلى رســول الله، صلّى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إني أريد العراق، فقال صلّى الله عليــه وســلّم: عليــك بالشام، فإنّ الله جلّ وعزّ قد تكفّل لي بالشام وأهله، ثمّ ألزم من الشام عسقلان، فإنه إذا دارت الرّحى في أمتي، كان أهل عسقلان في راحة وعافية".[١]

وعن عبدالرّحمن بن عبدالله أبي الرّبيع القرشيّ عن أبي عمر قال: إني قد أردت أن أتطهّر بغزوة فقيل له: ألسْتَ تزعم أنّ بني أميّة قد أفسدوا الجهاد؟ فقال: سمعت رســول الله – صــلّى الله عليه وسلّم– يقول: "إذا لم يقم بكتاب الله ولا السُّنة ولا بوفي عهــد ولا بذمــة، فعلــيكم بعســقلان وأشباهها"[٢]. وقال أبو إمامة الباهليّ: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: "مَنْ رابط بعســقلان يومًا وليلة، ثمّ مات بعد ذلك بستين سنة، مات شهيدًا ولو مات في أرض الشِّرك" [٣]، علماً بأن هذه الأحاديث ضعيفة وقد تكون غير صحيحة لكنها هدفت إلى حث الم**** المسلمين علــى الربــاط والنزول في مدينة عسقلان. ليس لأهميتها الدينية إذ لا أهمية دينية ولا قدسية للمدينة إنما لموقعهــا الجغرافي وأهميتها ك*** ومنطقة حدودية تتضمن أمن الدولة افسلامية من الأخطار الخارجيــة، لذلك كان لابد من إعطاء المدينة أهمية دينية وقدسية للنزول فيها.

١– ابن الفقيه، أبو عبدالله أحمد بن محمّد بن اسحق الهمذاني،(ت ٣٤٠هـ–٩٥١م)، البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١٥٣، وسيشار إليه لاحقًا: ابن الفقيه/ البلدان.

٢– مجهول، فضائل الشام وفضائل مدنها وبيت المقدس وعسقلان وغزة والرملة وأريحا ونابلس وبيسان ودمشــق وحمــص وذكرالانبيــاء المشهورين فيها وذكر الصحابة المعروفين فيها، ١٣٣٩، مكتبة الجامعة الاردنية–لوحة رقم ب ،ورقة ١٠٦. انظر أيضًــا: عنابســي، غالب إبراهيم، من أدب فضائل الشام– نصوص مختارة من مخطوطات مملوكيّة وعثمانيّــة، دار الهــدى ودار الفكــر، الأردنّ، ط١، ٢٠٠٧م. ص٥٣، وسيشار إليه لاحقًا: عنابسي، أدب.

٣– ابن الفقيه، البلدان، ص١٥٣

فتحُ عسقلانَ

لم تجد الباحثة في المصادر الإسلاميّة ما يساعدها على فهم ظروف مدينة عسقلان، قُبيل وفي أثناء الفتح العربيّ الإسلاميّ لها، سواء من الناحية الاجتماعيّة أو العسكريّة، وظروف سكان المدينة ومن كان يسكنها، أو على الصعيد الاقتصاديّ وحال المدينة معيشيًّا، ولا حتى على الصعيد السياسيّ باستثناء السيطرة البيزنطيّة على المدينة. وقد ذكر الطبريّ كانت عسقلان تابعة لحامية دفاع غزّة يقودها محارب بيزنطيّ قويّ هو الفيقار. وكان بالقرب منها في الشمال الشرقيّ على وجه التحديد موقع أجنادين الذي يسيطر عليه الرّومان، ويتولى قيادته أحدُ أهمّ قيادات الرّوم وهو الأرطبون(١). ومن هنا كان لمثلث: عسقلان _ غزّة _ أجنادين، أهميّة استراتيجيّة في غاية الخطورة بالنسبة إلى بيزنطة في جنوبيّ بلاد الشام، حتى أنّ هذه المدن ساندت بعضها بعضًا في وجه الخطر القادم(٢).

ابتدأ الفتح العربيّ الإسلاميّ لبلاد الشام أيّام الخليفة الأول أبي بكر الصديق، وتوفي أبو بكر في السنة الثالثة عشرة للهجرة (١٣هـ/٦٣٤م)(٣) قبل أن يكتمل الفتح، وتولّى من بعده الخلافة عمر بن الخطاب، الذي تابع الفتح العربيّ لبلاد الشام بعد أبي بكر، وفي سنة وفاته نفسها كانت أولى المعارك بين المسلمين والجيوش البيزنطيّة في جنوبيّ بلاد الشام قد وقعت، وهي معركة "داثن" قرب غزّة، وذلك في جمادى الأولى (١٣هـ/٦٣٤م)؛ حيث لحقت خسارة كبيرة بجيش البيزنطيين الذين ارتدّوا إلى غزّة(٤).

---

١ – الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٧.

٢– أبو رحمة، زهير، الحياة العلمية في غزة وعسقلان، ص٢٨.

٣– الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٢٤١. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٦٠٠.

٤– الواقدي، الفتوح، ج٢، ص٣٣– ٤١، البلاذري، ابو العباس أحمد بن يحيى بن صابر (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، القاهرة، ط١، ١٩٥٧م، ص١٩٣، وسيشار إليه لاحقًا: البلاذري، فتوح.

كانت معركة داثن ضربة قاصمة أربكت البيزنطيين، وأدّت إلى فتح داثن وغزّة من غير أن يدخلها المسلمون، بل اكتفوا من أهلها بدفع الجزية مقابل الأمان[١]. إلا أنّ عسكر الروم أعادوا تجميع أنفسهم من جديد، ليستعيدوا مواقعهم التي خسروها. وعلى إثر ذلك، طلـب عمـرو بـن العـاص الإمداداتِ من الخليفة أبي بكر لمواجهة الروم، فبعث أبو بكر بخالد بن الوليد على رأس جيش مـن العراق، فتجمّع الروم في أجنادين وكذلك المسلمون، وذلك ما عرف بوقعة أجنادين[(٢)]، التي انتهـت بهزيمة الروم، بعد أن دار القتال يومًا كاملاً، وكان ذلك يوم ٢٨ جمادى الأولـى ١٣هـ يوليـو ٦٣٤م، وكانت من نتائجها مقتل قائد القوات البيزنطية الأرطبون[(٣)].

إلا أن فتح عسقلان كان في زمن خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وتورد المصادر الإسلاميّة أنّ عسقلان قد فُتحت مرتين، وكان فُتحها رسميًّا وإحكام المسلمين السيطرة عليها في عام (٢٣هـ/ ٦٤٤م)، على يد معاوية بن أبي سفيان؛ حيث يقول البلاذري: "كتب عمر بن الخطـاب، رضي الله عنه، إلى معاوية يأمره بتتبّع ما بقي من فلسطين، ففتح عسقلان صلحًا بعد كيد"، وقولـه كيدًا لأنّ أهل عسقلان قد نقضوا الصلح معَ المسلمين بعد الفتح الأول على يد عمرو بن العاص في عام (١٩هـ/٦٤٠ م)؛ لذا فتحها معاوية بن أبي سفيان ثانيـة، "وأسـكنها الـروابط ووكـل بهـا الحفظة"[(٤)].

---

[١] – الأزدي، محمّد بن عبدالله، (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٥م)، تاريخ فتوح بلاد الشام، تحقيق عبدالمنعم عامر، مؤسسة سجل العـرب، القـاهرة، ١٩٧٠م، ط١، ص٥٢، وسيشار إليه لاحقًا: الأزدي، فتوح. ابن الجوزي، جمال الدين أبـي الفـرج عبـدالرحمن (٥٠٨– ٥٩٧هـ/ ١١١٤– ١٢٠٠م)، المنتظم، ٨ أجزاء، دون تحقيق، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م، وسيشار إليه لاحقًا: ابن الجوزي، المنتظم.

[٢]– اليعقوبي، أحمد ابن إسحق بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، تحقيق: خليـل منصـور، جـزأين، دار الكتـب العلميّة، ط١، بيروت، ١٩٩٩م. ج٢، ص٩٠-٩١، وسيشار إليه لاحقًا: اليعقوبي، تاريخ. وانظر أيضًا: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٥.

[٣]– الواقدي، الفتوح، ج٢، ص٤١-٤٥. البلاذري، فتوح البلدان، ص١٢٠. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٦. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ، ج ٢، ص١٣٤.

[٤]– البلاذري، فتوح البلدان، ص١٩٥م. الطبري، تاريخ الأمم والملوك،ج٢،ص٥٨٨.

جاء الفتح الأول لمدينة عسقلان على يد عمرو بن العاص ضعيفًا؛ بسبب عدم دخول المسلمين المدينة؛ فأهل عسقلان هم من بادروا إلى عقد صلح معَ المسلمين بعد أن سمعوا عن فتح قيساريّة وسقوطها بأيدي المسلمين، يقول الواقدي: "ووصل الخبر إلى الرّملة وعكا وعسقلان ونابلس وطبريّة، فعقدوا كلّهم صلحًا معَ المسلمين[١]. فضلاً عن أنّ المصادر التي تناولت الفتح الأول لعسقلان على يد عمرو بن العاص، لم تذكر فيما إذا كان عمرو بن العاص قد دخل المدينة، فقد ورد فقط دفع أهل عسقلان الجزية للمسلمين، خاصّة وأنّ عمرو بن العاص لم يمكث أو يُقِمْ في عسقلان، إنما غادرها إلى غزة متوجهًا إلى مصر[٢]. وقد يكون ذلك هو الذي دفع أهل عسقلان إلى نقض الصلح.

ونلحظ أنّ الفتح الثاني لعسقلان في سنة (٢٣هـ) على يد معاوية بن أبي سفيان، كان مختلفًا كلّ الاختلاف عن الفتح الأول في عام (١٩هـ) على يد عمرو بن العاص؛ حيث كان الفتح الثاني أكثر ثباتًا من حيث دخولُ المسلمين إلى المدينة والإقامة فيها؛ إذ يقول: "وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة"[٣]. وهذا الدخول المباشر، والإقامة فيها هو ما ثبّت الفتح وأخضع المدينة على نحو نهائيّ، وبعد أن استتب الفتح، اقتطع الخليفة عمر بن الخطاب جزءًا من أراضي عسقلان ومنحها لأمراء وقيادات الفتوحات في بلاد الشام[٤]، ويقول الواقدي بعد فتح عسقلان: "وملّك اللهُ الشامَ كلّه للمسلمين"[٥]. وقد اقتطع لعمرو بن العاص قرية من ضواحي عسقلان تدعى عجلان[١]،

١- الواقدي، الفتوح، ج٢، ص٣٦.

٢- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٩. البلاذري، فتوح البلدان، ص١٩٦. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٦.

٣- البلاذري، فتوح البلدان، ص١٩٦.

٤-المصدر نفسه، ص١٩٦. ابن قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، (ت ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م)، كتاب الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمّد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١م، ط١، ص٢٩٥، وسيشار إليه لاحقًا: ابن قدامة، الخراج.

٥- الواقدي، الفتوح، ج٢، ص٤٧.

كما ويذكر ياقوت الحموي أنّ ابا قرصافة صاحب رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، قد منح قريـــة سناجية في عسقلان.[٢]

ومعَ فتح عسقلان على يد العرب المسلمين، انتقلت المدينة كسائر مدن بــلاد الشــام إلـــى مرحلة ثانية مختلفة من تاريخها، وتحديدًا على الصعيدين: السياسيّ والاجتماعيّ، وأصبحت علـــى الصعيد السياسيّ تحت إدارة المسلمين وحكمهم، بعد أن رزحت لسنوات طويلـــة تحـــت الســـيطرة البيزنطية، وتبع هذا التغيّر السياسيّ في المدينة تغيّر اجتماعيّ على نحو تدريجيّ وهو الأهمّ؛ حيث كان معظم سكان عسقلان عند الفتح العربيّ يدينون بالدين المسيحيّ؛ أي أنّ معظم سكان المدينة هم نصارى، إلا أن الفتح العربيّ الإسلاميّ للمدينة قد دفع الكثير من سكانها النصارى في الدخول إلى الإسلام؛ حيث يشير المقريزي إلى أنّ غالبية سكان عسقلان في نهاية العصر الراشدي كانوا مـــن المسلمين[٣].

وكان لدخول سكان عسقلان في الإسلام، أكثر من سبب على ما يبدو، فمنهم مـــن اعتنـــق الإسلام مقتنعًا، ومنهم من لم يُرِدْ أن يكون في موقع أهل الذمّة، وخصوصًا في دفع ضريبة الجزية، ومنهم أيضًا من رأى أنّ من صالحه الدخول في الدين الجديد، والإذعان للسيادة الجديدة، وهـــؤلاء تحديدًا التجّار وأصحاب الأموال والأراضي. ومن عوامل التغيّر الاجتماعيّ الذي حلّ بالمدينـــة أنّ هناك كثيرًا من المقاتلين العرب قد دخلوها وأقاموا فيها، بالإضافة إلى عدد كبير من الفقهاء ورجال

---

[١]- البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٠١. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبـــدالله الشـــافعي، ت (٥٧١هـــــ/١١٧٥م) تهذيب تاريخ مدينة دمشق، ٧ أجزاء ، تحقيق الشيخ عبد القادر بدران،دار المسيرة، ط١، بيروت،١٩٧٩م، ج٣، ص٢٨٦.

[٢]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٧٦

[٣]- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـــ/ ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزأين، دار صادر، بيروت، دون تحقيق، ج١، ص١٨٤، وسيشار إليه لاحقًا: المقريزي، الخطط.

الدين، الذين انتقلوا للعيش فيها، وقد أُرسلوا لغاية تعليم الناس الدين الإسلاميّ"[١]. علمًا بأنّ هذا التغيير على المستوى الاجتماعيّ في عسقلان بعد الفتح العربيّ، قد شمل كثيرًا من المدن في فلسطين وسائر بلاد الشام.

وثمّةَ ملاحظة في غاية الأهميّة تتعلق بالتغيّر الاجتماعيّ والثقافيّ الذي حصل، وهي: تبنّي الثقافة العربيّة الإسلاميّة من غير اشتراط الدخول في الدين الإسلاميّ، بمعنى أنّ هناك كثيرًا ممّن بقوا على الدين المسيحيّ في عسقلان وسائر مدن فلسطين، ورغم ذلك فإنهم قد حوّلوا لغة تأدية الصلاة داخل الكنائس من اليونانيّة أو السريانيّة إلى العربيّة، وهذا يُعدّ تبنّيًا للغة وثقافة الفتح الجديد.[٢]

ومعَ خلافة بني أميّة وظهور الدولة الأمويّة، التي اتّخذت من بلاد الشام مقرًّا لها، وكانت عاصمتها دمشق، شهدت مدن بلاد الشام دورًا أكبر وأكثر تأثيرًا؛ وذلك بسبب اهتمام الأمويّين بها أكثر، وإقامة بعضهم فيها، وتنقلهم في مدن عدّة منها وخصوصًا في فلسطين[٣]. وقد أشار المسعوديّ إلى تقرّب الخلفاء الأمويّين من أهل فلسطين وحسن معاملتهم وتسهيل أمورهم[٤]؛ حيث كانت فلسطين تحظى بمكانة خاصّة عند الأمويّين وخصوصًا بيت المقدس (القدس)، وتاريخ الدولة الأمويّة على مدار ما يقارب القرن يثبت ذلك ويؤكّده. وقد توثقت العلاقة بين قصر الخلافة الأمويّ

١- ابن سعد، محمّد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، ٨ أجزاء، ٤ مجلدات، تحقيق رياض عبدالهادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج٢، ص١١٤، وسيشار إليه لاحقًا: ابن سعد، الطبقات.

٢- عتاني، حسام، الفتوحات العربيّة في روايات المغلوبين، دار الساقي، ط١، بيروت، ٢٠١١م، ص١٠١-١٠٣.

٣- البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكّار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م، ط١، ج١١، ص١٦٤، وسيشار إليه لاحقًا: البلاذري، أنساب.

٤- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمّد محي الدين عبدالحميد، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٦٦م،ج٢، ص١١١، وسيشار إليه لاحقًا: المسعودي، مروج الذهب.

وأهل عسقلان في عهد الخليفة الأمويّ الثاني يزيد بن معاوية، فكان الكثير من أهل عسقلان يتردّدون على مجلس يزيد على نحو دائم[١].

وعلى إثر خروج عبدالله بن الزّبير على الدولة الأمويّة، وإعلانه الثورة عليها في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥-٦٨هـ/ ٦٨٦-٦٨٩م)، فقد استنزفت الدولة الأمويّة ماديًّا وعسكريًّا، إلا أنّ الخليفة عبد الملك بن مروان استطاع إخماد ثورة ابن الزبير في نهاية المطاف[٢]. وتشير بعض المصادر إلى أنّ الروم قد استغلوا انشغال الأمويّين بثورة ابن الزبير، فاستولوا على بعض مدن ثغور الساحل ومنها عسقلان، ويروى أنّ الروم أجلوا بعض سكان المدينة المسلمين عنها، ودمّروا المساجد والمباني التي أقامها المسلمون فيها، غيرَ أنّ عبدالملك بن مروان استطاع إعادة بناء ما دُمّر على يد الروم، وأجلى الروم منها، وأعاد بناء مساكنها، وأنزل فيها المرابطين وبعض الخلق وأقطعهم القطائع، يقول البلاذري: "حدّثني ابن الهيثم قال: لقيت رجلاً من العرب بعسقلان، فأخبرني أنّ جدّه ممّن أسكنه إيّاها عبدالملك، وأقطعه قطيعة معَ من أقطع من المرابطة[٣]. وكان ذلك كأنه فتح جديد للمدينة، بعد أن حاول الروم السيطرة عليها.

وقد أولى الخلفاء الأمويّون مدينة عسقلان اهتمامًا كبيرًا، وليس أدلّ على ذلك من سليمان بن عبدالملك (٩٦-٩٩هـ)، الذي أنشأ مدينة الرّملة، ويذكر ابن عساكر أنه قد أسكن ابنه عبدالرّحمن بن سليمان عسقلان، وبقي فيها حتى وفاته[٤].

١- أبو رحمة، زهير، الحياة العلميّة في غزّة وعسقلان، ص٢٥.

٢- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٨٩-١٩١. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٤٧، ص٤٧٣.

٣- البلاذري، فتوح البلدان، ص١٣٩-١٤٠. الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٣١.

٤- ابن عساكر، تهذيب تاريخ مدينة دمشق،ج٤، ص٤.

ويذكر البلاذري أنّ سليمان بن عبدالملك قد أعطى أهل عسقلان ثلاثين ألف درهم[١]، وهذا يؤكد مدى ولاء أهل عسقلان لخلافة بني أميّة، ووقوفهم إلى جانب الدولة الأمويّة في جميع الأزمات والحروب التي عصفت بها. وبذا، فقد اهتمّ الأمويّون اهتمامًا كبيرًا بمدينة عسقلان وأهلها. فضلاً عمّا سلف، فإنّ لعسقلان أهميّة من حيثُ موقعُها الاستراتيجيّ والأمنيّ؛ كونها مدينة ساحليّة، وخط دفاع أول عن الدولة الأمويّة من تهديدات الرّوم المتكرّرة.

وقد تبين أنّ لأهل عسقلان دورهم البارز في الأحداث الدامية، التي مرّت بها الدولة الأمويّة في الصّراع معَ العباسيّين، وانتهت بسقوط الخلافة الأمويّة، ويضيف أنّ أهل عسقلان كانوا شديدي الولاء للأمويين، ويدلّ على ذلك أنّ مروان بن محمّد آخرَ الخلفاء الأمويّين (١٢٧- ١٣٢هـ) "قد جمع سلاحه وماله وحصنهم في عسقلان، بعد انهزامه في معركة الزاب"[٢].

عسقلانُ والخلافة العباسيّة

كان لسقوط الدولة الأمويّة الأثر المهمّ في بلاد الشام وسائر مدنها؛ إذ انتقل الثقل السياسيّ والإداريّ من الشام (دمشق)، التي كانت حصن الأمويّين، إلى بغداد في العراق معَ ظهور الدولة العباسيّة، التي اتّخذت العراق مقرًّا لها، لتتحوّل بذلك مراكز القوى الإداريّة والسياسيّة من الشام إلى العراق. وقد فقدت بلاد الشام مراكز الصدارة في الولايات الإسلاميّة، وتعامل خلفاء بني العباس معَ سكان بلاد الشام بحذر شديد؛ لعلمهم بولاء أهل الشام للأمويين.

---

[١]- البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، ص١٢٤.

[٢]- ويشير ابن الأثير الى نزول مروان عند نهر أبي فطرس بالقرب من عسقلان. انظر ابن الاثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، (ت٦٣٠هـ-١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ١٢جزء ،د.ت،دار صادر، دار بيروت، ط١٩٩٦،١م، ج٥، ص٤٢٥، وسيشار اليه لاحقاً ابن الاثير، الكامل .

وأدّت الظروف السياسيّة الجديدة في بلاد الشام إلى فقدانهم الكثير من الامتيازات التي حصلوا عليها في العصر الأمويّ، لذلك كانت مدن الساحل الجنوبيّ في بلاد الشام في فلسطين أشبه ببؤر التوتر والغليان والثورات ضدّ خلافة بني العباس، بما في ذلك عسقلان، فقد اندلعت ثورة حبيب بن مرّة المرادي سنة (١٣٢هـ/ ٧٥٠م) من الرّملة، التي كانت تعدّ القلعة الأمويّة في فلسطين؛ حيث اضطرت الدولة العباسيّة إلى مهادنة المرادي، وانتهت الثورة بالصلح بين المرادي وعبدالله بن العبّاس[١].

ويشير ابن تغرى بردى إلى ثورة أخرى قد نشبت في فلسطين سنة (١٣٦هـ/ ٧٥٩م) بقيادة الحكم بن ضبعان بن روح الجذاميّ، وذهب ضحيّتها الكثير من الأرواح والضحايا من سكان فلسطين[٢]. وعلى الرّغم من هذه الظروف السياسيّة المتغيّرة في ظلّ الخلافة العباسيّة، فإنّ مدينة عسقلان بقيت محلّ انتباه الخلفاء العباسيّين واهتمامهم؛ وذلك بحكم أهميّة هذه المدينة كثغر من ثغور الدولة الإسلاميّة على ساحل المتوسط، وموقعها الاستراتيجيّ كخط دفاع أول عن الدولة الإسلاميّة؛ فقد عيّن بشير بن روح المهلبيّ أميرًا عباسي عليها. ويشير زهير أبو رحمة إلى أنّ الخليفة العباسيّ أبا جعفر المنصور قد أمر ابنه المهدي سنة (١٥٥هـ/ ٧٥١م) ببناء مسجد فيها[٣].

وفي ظلّ أزمة النزاع بين الأمين والمأمون على الخلافة، الذي استمرّ مدة أربعة أعوام (١٩٤- ١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣)، شهدت فلسطين وكثير من مدن الشام فوضًى وحالة من الفلتان،

١- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٤٩، وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص٤٣٢ .

٢- ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (٨١٣-٨٧٤هـ/ ١٤١١- ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزء، د.ت، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب- وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة ، د.ط، ج١، ص٣٣٠ ، وسيشار إليه لاحقًا: ابن تغري/ النجوم.

٣- أبو رحمة، الحياة العلميّة في غزّة وعسقلان، ص٢٦.

وخصوصًا في مناطق الثغور الإسلاميّة[١]. ومعَ حسم قضيّة النزاع على الخلافة لصالح المــأمون وانفراده بها، عاد الاستقرار والأمن مجدّدًا إلى فلسطين، وبقي الأمر على حاله حتى خلافة الواثق؛ حيث اندلعت ثورة قويّة وعارمة في فلسطين بقيادة أبي حرب تميم اللخميّ الذي لُقب "بــالمبرقع"، ضدّ الخلافة العباسيّة، وكان مركزها مجدّدًا مدينة الرّملة. ويؤكّد اليعقوبيّ أنّ: الخليفة الواثــق قــد وجّه رجاء بن أيّوب الحضاريّ، الذي بدأ بإخماد ثورة البيهس في دمشق، ثمّ سار إلــى فلســطين وأوقع بتميم اللخميّ (المبرقع) وأسره[٢]؛ ليعيد بذلك سلطة بني العباس على فلسطين. وينفرد ابــن تغرى بردى، برواية عن عسقلان ايام الخليفة العباسي المتوكل، في سنه (٢٣٧هــ/٨٥١م) يقــول: "وفيها ظهرت نار بعسقلان احرقت البيوت والبيادر، وهرب الناس، ولم تزل تحرق الى ثلث الليل، ثم كنتّ بإذن الله"[٣]

وفي عام (٢٥١هــ/ ٨٦٥م) شهدت فلسطين خروجًا آخرَ على الخلافة العباســيّة، شــملت مدينة عسقلان إذ أعلن عيسى بن الشيخ قائد هذه الثورة خروجه على الخلافة وكانت انطلاقته مــن مدينة الرملة بعد أن شيد قصرًا له بين مدينتي الرّملة واللُّد[٤]. واستمر خروجه عن الخلافة العباسيّة في فلسطين حتى عام (٢٥٥هــ/ ٨٦٩م) أيام الخليفة العباسيّ المهتدي، الذي وجّه إليه عامل دمشق آماجور التركيّ، واستطاع أن يهزم عيسى الذي تراجع وحمل عياله وتحصّن بمدينــة صــور[٥]. وخضعت مدينة عسقلان بما فيها كلّ جنوبيّ فلسطين إلى سلطة آماجور التركيّ.

---

[١]- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٠٨-٣١٠. وانظر أيضًا: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٥، أحداث سنة ١٩٦-١٩٨.

[٢]- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٣٧. الطبري، تاريخ الامم والملوك ، ج٥، ص٢٦٩-٢٧٠.

[٣]- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٢، ص ٢٩٠.

[٤]- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٥٢.

[٥]- المصدر نفسه، ج٢، ص٣٥٥.

وبعد وفاة آماجور التركيّ سنة (٢٦٤هـ/٨٧٧م)، خرجت مدينة عسقلان، وكذلك كلّ فلسطين من سيطرة الخلافة العباسيّة، لتخضع لولاية أحمد بن طولون حاكم مصر، الذي سيطر على مصرَ وبلاد الشام[١]. وبقيت عسقلان تحت سيطرة الطولونيين حتى عام (٢٩٢هـ/ ٩٠٤م)، عندما قرّر الخليفة العباسيّ المكتفي بالله (٢٨٩هـ/ ٢٩٥هـ) إنهاء سيطرة الأسرة الطولونيّة على مصرَ وبلاد الشام، وتمّ له ذلك بعد أن أرسل حملة بقيادة محمّد بن سليمان الكاتب، واستطاع القضاء على الحكم الطولونيّ واستعادة مصرَ و بلاد الشام[٢]. وبذلك عادت مدينة عسقلان إلى حاضرة الخلافة العباسيّة.

وشهدت مدينة عسقلان في ظلّ حكم الأسرة الطولونيّة، وكذلك جميع مدن الساحل، هدوءًا واستقرارًا سياسيًّا واقتصاديًّا، كما شهدت حركة معماريّة وتحصينيّة كبيرة. يقول ابن خلكان في إشارة إلى ذلك: "وكان أحمد (أحمد بن طولون) يحبّ أهل العلم، وكان يحفظ القرآن الكريم، ورزق حسن الصوت، وكان من أدرس الناس للقرآن، وبنى الجامع"[٣].

لقد استطاعت الخلافة العباسيّة استعادة نفوذها على مصرَ والشام لِما يقارب الثلاثة عقود، عرفت فيها عسقلان الهدوء والاستقرار، حتى ظهور الحكم الإخشيديّ، الذي خضعت عسقلان له من عام (٣٢٣- ٣٥٨هـ) إلى عام (٩٣٥- ٩٦٩م)، بعد أن منح الخليفة العباسيّ الراضي بالله بن

١- ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت٦٨١هـ-١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق: احسان عباس، دار الثقافة، د.ط، بيروت ، ج١،ص١٧٣ وسيشار اليه لاحقاً ابن خلكان، وفيات . انظر أيضاً : ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢١.

٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٣٧. ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، ١٢ جزءا، تحقيق: سهيل زكار، دار الشروق ، ط١، عمان، الاردن، ٢٠٠٧م ،ج١١، ص٣٠٠٥. وسيشار اليه لاحقاً ابن كثير،البداية .

٣- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج، ص١٨٤.

المقتدر، مؤسسَ الأسرة الإخشيديّة أبا بكرة محمّد بن أبي طغج[١]، ولاية الحجاز والشام ومصرَ عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)[٢]. ويشير المقريزي إلى أنّ فتنة قد وقعت في عسقلان بين المسلمين واليهود من جانب، وبين المسلمين والنصارى من جانب آخرَ، أدّت إلى نهب كنيسة مريم الخضراء وحرقها[٣]. وقد اندلعت هذه الفتنة في المدينة على إثر الصّراع الذي دار بين آل إخشيد وأبي بكر محمّد بن الرائق، الذي عيّنه الخليفة العباسيّ الراضي عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) واليًا على الجزيرة والعواصم وقنسرين، إلا أنّ النزاع انتهى بين الطرفين بعد اتفاقية صلح نصّت على أن تكون المِنطقة الممتدّة من الرّملة وجنوبيّها للإخشيد، ومن الرّملة وشماليّها لابن رائق، كما نصّت على اقتسام الخراج بينهما[٤].

ويبدو أنّ أسباب الفتنة بين المسلمين والنصارى التي أشار إليها المقريزي، تعود إلى العداء في مناطق الثغور بين المسلمين وأهل الذمّة، وتحديدًا بين المسلمين والنصارى البيزنطيين. إلا أنّ هناك من خالف هذا الرأي؛ لأنّ ذلك يتعارض معَ ما ورد عن التسامح الدينيّ في مدينة عسقلان، وأنّ السبب الحقيقيّ وجود خلافات جوهريّة بين المسلمين والنصارى في داخل عسقلان، أدّت إلى هذا العمل[٥].

---

[١]- أصله من أولاد ملوك فرغانة وكان أبوه طغج ينوب عن خمارويه أحمد بن طولون المقدم ذكره في ولاية دمشق والشام وكان ولده محمد حازماً شديد التيقظ في حروبه حسن التدبير مكرماً للأجناد شديد القوى لا يكاد يجر قوسه غيره حسن السيرة في الرعية فلما رأى الامام القاهر بالله نجابته وشهامته ولاه مصر في سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ولقبه الأخشيد لكونه من أولاد ملوك فرغانة وهذا اللقب وضع لكل من ملك تلك الجهة كما لقبوا ملك الترك. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٥٦.

[٢]- ابن خلكان، ,وفيات الأعيان ، ج٥، ص٥٦-٥٨. أبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ،ج٣، ص٢٥١-٢٥٢.

[٣]- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزأين، كتاب الخطط، دار صادر، بيروت، د. ت، ج٢، ص٤٩٥، وسيشار إليه لاحقًا: المقريزي، الخطط.

[٤]- ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٤٣. أبو الفداء، المختصر، ج١، ص٤١٨- ٤١٩. المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٢٩.

[٥]- أبو رحمة، زهير، الحياه العلميّة في غزّة وعسقلان، ص٣٠.

يتبيّن لنا أنّ عسقلان وجميع مدن الثغور في فلسطين كانت في حالة توتّر مستمرّ واستقرار غير دائم، في ظلّ العصرين العباسيّين: الأول، والأوسط، ويعود هذا بالدرجة الأولى إلى أنّ عسقلان وجميع مدن بلاد الشام كانت محسوبة على الأمويّين الذين اتخذوا من الشام حصناً لدولتهم؛ فكثير من فلول الأمويّين الذين بقوا في مدن الثغور الساحليّة، بقوا يكنّون العداء للعباسيين، ولأنّ عسقلان هي مدينة ثغر حدوديّة، وكانت مدن الثغور تشهد قلقًا وتوترًا دائمين،في جميع مراحل الدولة الإسلاميّة. ومعَ ذلك ظلت الخلافة العباسيّة حريصة كلّ الحرص على الهدوء والاستقرار في عسقلان، فسيّرت الكثير من الحملات العسكريّة من أجل إخماد الثورات فيها، وفي كلّ أنحاء فلسطين، والسبب في ذلك أنّ عسقلان مدينة حدوديّة دفاعيّة عن ديار الإسلام، والاستقرار فيها يعني للعباسيين الأمن والأمان للدولة الإسلاميّة برمّتها، خصوصًا وأنها هي الخط الدفاعي الأول في وجه هجمات البيزنطيين المتكرّرة على الثغور.

الفصل الأول

عسقلان في الصّراع بين القوى الحاكمة في الشامِ ومصرَ

- عسقلان في العصر الفاطميّ (٣٥٨-٤٩٢هـ/ ٩٦٩-١٠٩٩م).
- عسقلان في ظلّ نفوذ بني الجرّاح على فلسطين.
- عسقلان والصّراع الفاطميّ السلجوقيّ.

عسقلان في العصر الفاطميّ (٣٥٨- ٤٩٢هـ/ ٩٦٩- ١٠٩٩م)

استطاع الفاطميّون إعلان خلافتهم في سنة (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) في شمال أفريقيا، بعد دعوة سريّة إلى ظهور الإمام[١]، سمّيت بالدعوة الإسماعيليّة؛ حيث بسط الفاطميّون سلطتهم على شمال أفريقيا من تونس إلى ساحل المحيط الأطلسيّ. وبعد أن تمّ لهم الأمر، بدأت عيونهم تتطلع نحو المشرق الإسلاميّ وتحديدًا نحو مصر، وتمكّن الجيش الفاطميّ لاحقًا في شوال من عام (٣٥٨هـ/ آب ٩٦٩م) بقيادة جوهر الصقليّ من دخول مصرَ، معلنًا بذلك خضوعها للفاطميين[٢]. وعلى إثر ذلك تحوّلت مصرُ بعاصمتها القاهرة التي بناها الفاطميّون إلى مقرّ الثقل الإداريّ والسياسيّ والفكريّ للفاطميين.

ومثل سائر الحكومات التي تعاقبت على حكم مصرَ، فقد تطلّع الفاطميّون إلى مدّ نفوذهم على بلاد الشام، ولأنّ الشام هي الامتداد الطبيعيّ لمصرَ من الناحيتين: الجغرافيّة والسياسيّة، بالإضافة إلى أهميّة بلاد الشام كخط دفاع عن الدولة الناشئة في القاهرة، لذلك أرسل جوهر الصقليّ حملة إلى بلاد الشام بقيادة جعفر بن فلاح، واستطاع هذا الأخير دخول مدينة الرّملة[٣] في (ذي

١- ظهور الإمام: وهو الإمام محمّد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق الذي دعا إليه أتباعه المنشقين عن المذهب الشيعي الإثنا عشري بعد أن ساقوا الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر، معتبرين أنّ للإمام جعفر الصادق قد أوصى بالإمامة لإسماعيل وليس لموسى الكاظم كما تدعو الشيعة الإثنا عشريّة، وأنّ إسماعيل أوصى بها لمحمّد قبل وفاته، ولذلك سمّي أتباع هذا الإمام وهذه الفكرة بالإسماعيليين، الذين نشأت حركتهم في سنة ١٢٨هـ.، كدعوة دينيّة باطنيّة. انظر: فوزي، عمر فاروق، نشأة الحركات الدينية السياسية في الاسلام، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، عمان١٩٩٩م، ص٢٠٥-٢٠٧.

٢- ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ج٨، ص٥٩٠. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٣٤٩.ابن تغرى بردى،النجوم الزاهرة،ج٤، ص٣٠-٣١. المقريزي،تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميّين الخلفا، تحقيق: د. محمّد حلمي محمّد أحمد – المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة- لجنة إحياء التراث الإسلاميّ، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م، ج١، ص١٨٨، وسيشار إليه لاحقًا: المقريزي، اتعاظ.

٣- الرملة: إحدى المدن الفلسطينية الشهيرة أسسها المسلمون زمن سليمات بن عبد الملك في تسميتها رأيان الأول نسبة إلى امرأة تدعى رملة كانت تقطن في المكان وأكرمت سليمان وحاشيته إكراماً لها قام بتشييد هذه المدينة أما الرأي الثاني فيشير إلى أن المدينة سميت بهذا الاسم نسبة إلى كثرة الرمال المتواجدة في المنطقة. تاريخ بيت المقدس، يعقوب الفتيري، ص٢٨.

الحجّة ٣٥١هـ/ أكتوبر ٩٦٩م)[1]. وبذلك أصبحت مدينة عسقلان تابعة لسلطة الفاطميّين منذ أواخر (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م).

وقد شهدت مدينة عسقلان في هذه المرحلة أحداثًا تاريخيّة جديدة، كانت نتيجة ظهور قوًى متنازعة؛ فقد برز تحالف مُعادٍ للدولة الفاطميّة يضمّ العباسيّين في بغداد والحَمْدانيين[2] في الشمال والقرامطة[3]، بالإضافة إلى أمراء الحرب الأتراك وبقايا الأمراء الإخشيديين. معَ العلم أنّ القرامطة قد قاتلوا تحت الراية العباسيّة، وهذا يؤكّد أنّ العداء للدولة الفاطميّة لم يكن دينيًّا أو فكريًّا، وإنما كان سياسيًّا بامتياز.

وفي عام (٣٦٠هـ/ ٩٧١م) شنّت هذه القوى المتحالفة حملة عسكريّة على الفاطميّين في فلسطين[4]، ونجح هذا التحالف في إخراج الفاطميّين من فلسطين سنة (٣٦١هـ/ ٩٧٢م)، بعد أن وصلت قواتهم إلى الحدود المصريّة. ولم تشر المصادر فيما إذا كانت القوى المتحالفة ضدّ الفاطميّين قد استولت على مدينة عسقلان، فبعض الدراسات الحديثة قد اختلفت في هذه المسألة؛ حيث يقول عادل نبهان[5]: إنّ القوى المتحالفة قد استطاعت طرد الفاطميّين من جميع فلسطين بما فيها عسقلان ومدينة غزّة أيضًا، معتمدًا في ذلك على أنّ المصادر لم تذكر إذا كانت عسقلان قد

---

[1]- ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣١٠. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج١، ص٣٦١. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٣٢-٣٣.

[2]- ينسب الحَمْدانيّون إلى قبيلة تغلب من بطون ربيعة بن نزار، وكانوا من نصارى العرب في الجاهليّة، وسمّوا بالحَمْدانيّين نسبة إلى جدّهم حَمْدان التغلبي. ونشأت الدولة الحَمْدانيّة في شماليّ سوريا في حلب وامتدّت منذ سنة (٣١٧- ٣٩٩هـ/ ٩٢٩- ١٠٠٩م). ومن أشهر مؤسسيها وحكّامها سيف الدولة الحَمْداني الذي كان له دور كبير في الدفاع عن ديار الإسلام بوجه هجمات البيزنطيّين

[3]- حركة القرامطة حركة عقائديّة سياسيّة اجتماعيّة انشقّت عن المذهب الإسماعيليّ الفاطميّ في مصر، وسمّيت بالحركة القرمطيّة أو القرامطة نسبة إلى مؤسسها حَمْدان بن الأشعث، الملقب بقرمط، الذي انشقّ عن المذهب الإسماعيلي. انظر: فوزي، عمر فاروق، نشأة الحركات، ص٢١٧.

[4]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٣٦١. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦١٥.

[5]- نبهان، عادل محمّد خضر نبهان عبدالهادي، عسقلان منذ منتصف الرابع الهجري وحتى النصف الثاني من القرن السابع الهجري- دراسة تاريخيّة وحضاريّة (٣٥٩- ٦٦٩هـ/ ٩٦٩- ١٢٧٠م)، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة، ٢٠٠٠م، ص٦٣-٦٤.

بقيت تحت سلطة الفاطميّين[١]. إلا أنّ لدى أبي رحمة رأي آخرُ مخالف لرأي نبهان؛ حيث يؤكد أنّ مدينة عسقلان وكذلك مدينة غزّة بقيتا خاضعتين للنفوذ الفاطميّ[٢]. ويبرّر ذلك قائلاً: إنّ الرّملة قد سقطت بأيدي القوى المتحالفة؛ لكونها مدينة داخليّة وليست ساحليّة، وعسقلان مدينة ساحليّة وتحصيناتها منيعة، والدليل برأيه أنّ القوى المتحالفة لم تستطع دخول مدينة يافا بسبب مناعة أسوارها، وهذا ينطبق برأيه أيضًا على مدينة عسقلان[٣].

ولمّا كانت المصادر الإسلاميّة التي عاصرت هذه الأحداث لم تذكر إطلاقًا إذا كانت مدينة عسقلان قد خضعت للقوى المتحالفة، فإنه لا يمكن الجزم في هذه المسألة المختلف حولها، لكنّ المصادر على نحو عام تؤكّد سيطرة القوى المتحالفة، وتحديدًا القرامطة على كلّ فلسطين، وخروج الفاطميّين منها؛ حيث يذكر ابن ظافر الأزدي أنّ القرامطة قد استولوا على الشام أجمعه[٤].

وفي سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣م)، في عهد الخليفة الفاطميّ المعزّ لدين الله، أعاد التحالفُ هجومه على مصرَ مقر الخلافة الفاطميّة، وقد أعدّ الخليفة الفاطميّ العدّة لهذا الهجوم؛ حيث استخدم ذكاءه السياسيّ في استمالة أحد أهمّ حلفاء القرامطة في فلسطين[٥]، وهو حسّان بن الجرّاح الطائي[٦]. وأغدق عليه الهدايا والأموال، فامتنع حسّان عن تقديم يد العون للقرامطة، وكان اللقاء

---

[١]- نبهان، عادل، عسقلان منذ منتصف الرابع الهجري وحتى النصف الثاني من القرن السابع الهجري- دراسة تاريخيّة وحضاريّة (٣٥٩-٦٦٩هـ/ ٩٦٩- ١٢٧٠م)، ص٦٤.

[٢]- أبو رحمة، زهير، الحياه العلميّة في غزّة وعسقلان، ص٣٣.

[٣]- ابو رحمة، الحياة العلمية في غزة وعسفلان، ص٣٤.

[٤]- ابن ظافر الأزدي، جمال الدين أبو الحسن عليّ بن أبي منصور (ت ٦١٣هـ- ١٢١٥م)، أخبار الدول المنقطعة (القسم الخاص بالفاطميّين)، تحقيق: أندريه مزية، المعرِض العلمي الفرنسي للآثار المشرقيّة بالقاهرة، ط١، ١٩٧٢م، ص٢١١.

[٥]- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٨٣، المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميّين الخلفا، ج١، ص٢٤٦. ابن تغري بردي، النجوم، ج٤، ص٢٥٢.

[٦]- وهو زعيم قبيلة طي اليمنيّة في الفترة ما بين (٣٥٨-٣٦٨هـ/ ٩٦٨- ٩٧٨م)، وهي من أكبر القبائل العربيّة قوّة ونفوذًا في فلسطين؛ حيث كانت تتحكّم في الطريق البريّ الذي يربط مصر ببلاد الشام والحجاز. انظر: فوزي، فاروق، نشأة الحركات، ص٢٢٨.

بين الجيش الفاطميّ والقرامطة عند عين شمس في شهر (شعبان ٣٦٣هـ إبريل ٩٧٤م)، انهزم على إثرها القرامطة أمام الفاطميّين، واستطاعت الدولة الفاطميّة إثر ذلك طردهم من بلاد الشام، وأعادت نفوذها عليها من خلال حملة عسكريّة أخرى، أرسلها الخليفة المعزّ لدين الله بقيادة أبي محمود الكتامي[١]. وأعاد الفاطميّون بعد تحقيق هذا النصر بناء الأسطول الفاطميّ في مِنطقة الساحل الفلسطينيّ، وكان لعسقلان نصيب كبير في ذلك؛ حيث أصبحت مركزًا للأسطول الفاطميّ[٢].

ولم يمضِ عام واحد حتى أعاد القرامطة هجومهم على الفاطميّين في الشام، لكنّ الهجوم في هذه المرّة كان بالتحالف معَ أفتكين التركي[٣]، الذي استولى على دمشقَ وطرد الفاطميّين منها، وأعلن ولاءه للخليفة الطائع لله (٣٦٣-٣٨١هـ/ ٩٧٤-٩٩١م)، وأقام له الخطبة بدلاً من الفاطميّين في سنة (٣٦٤هـ/ ٩٧٥م)، واستولى على بعض المدن الساحليّة، مثل: عكا التابعة للفاطميين[٤]. إلا أنّ مدينة عسقلان في ظل هذه الأحداث بقيت خاضعة لنفوذ الفاطميّين، فأرسل الخليفة الفاطميّ الجديد العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/ ٩٧٥-٩٩٦م) حملة عسكريّة إلى بلاد الشام بقيادة جوهر الصقلي؛ لمواجهة قوات أفتكين.

١- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٤٠. انظر: نبهان، عسقلان، ص٦٦.

٢- المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٨٣.

٣- هو أبو منصور التركيّ الشرابيّ غلام معزّ الدولة البويهي، ولّى هاربًا من بغداد إلى بلاد الشام، وخاض الكثير من الحروب ضدّ الفاطميّين، انتهت بهزيمته سنة (٣٧١هـ/ ٩٨١م). انظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٥١.

٤- ابن القلانسيّ،أبي يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي، (ت٥٥٥هـ/١١٦٩م) ، تاريخ ابن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق د.ت ،طبع في بيروت، مطبعة الأباء اليسوعيين،ط١، بيروت ،١٩٠٨م، ص١٢-١٤. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٥٧. المقريزيّ، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٢١.

واستطاع جوهر الصقليّ في البداية أن يحكم سيطرته على مدينة الرّملة، إلا أنّ القرامطة وباقي القوى المعادية للفاطميين في بلاد الشام تكاتفت معَ أفتكين وقوّاته، فاضطر جوهر الصقليّ للتراجع إلى عسقلان بعد حصار دام شهورًا طويلة، وحوصر جوهر وجيشه في تلك المدينة التي كانت معقل الفاطميّين الحصين، وبعد مفاوضات اضطرّ الجيش الفاطميّ للخروج من عسقلان، وسيطرت عليها القوى المتحالفة[١]. وبذلك خرجت هذه المدينة عن سيطرة الدولة الفاطميّة.

لكنّ الفاطميّين عرفوا مدى خطورة سيطرة القوى المتحالفة على فلسطين، ومدينة عسقلان تحديدًا؛ لِما يشكّله ذلك من تهديد مباشر لعاصمة الخلافة بالقاهرة. لذلك، وفي سنة (٣٦٨هـ/ ٩٧٨م)، أعدّ الخليفة الفاطميّ حملة على بلاد الشام، كان هو بنفسه على رأسها، أراد بها أن ينهي حالة الفوضى في بلاد الشام والقضاء على القوى التي باتت تهدّد سلطانه، واستطاع أن يهزم أفتكين والقوى المتحالفة معه، بعد معركة فاصلة بالقرب من مدينة الرّملة، كما استطاع دخول مدينة الرّملة، وأعيدت فلسطين بما فيها عسقلان للنفوذ الفاطميّ مجدّدًا[٢].

نلحظ ممّا ورد سابقًا أنّ سيطرة الفاطميّين على عسقلان كانت في حالة مدّ وجزر، وحالة عدم استقرار دائمة، يقول أبو رحمة: إنّ الأوضاع الداخليّة في مصرَ وبلاد الشام ارتبطت بوضع الدولة الفاطميّة، فإذا كانت الحكومة المركزيّة للفاطميين في مصرَ قويّة، كانت عسقلان تحت نفوذهم

---

[١]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٦٤. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٤، ص١١١-١١٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٣١٦٣

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٦. ابن عساكر، تاريخ، ج٤، ص١٥١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٩٧. ابن كثير، البداية، ج١١، ص٣١٧٣

وكذلك غزّة، وإن ضعُفت وظهرت قوًى سياسيّة جديدة في الشام استطاعت طرد الفاطميّين، وهكذا دواليك[١].

ولكن، يتبيّن لنا في المقابل، على الرّغم من حالة تقدّم النفوذ الفاطميّ وتقهقره على عسقلان وسائر جنوبيّ بلاد الشام، ووجود القوى المعادية للفاطميين فيها، أنّ الخلفاء الفاطميّين لم يتساهلوا أبدًا معَ تهديد هذه القوى لعسقلان وفلسطين على نحو عامّ، فكلّما كانت هذه القوى تسيطر على عسقلان، سرعان ما كان الخلفاء يجيّشون الجيوش، ويعدّون العُدّة لدحرها وإخراجها منها.

وقد تبيّن لنا أيضًا أنّ مدينة عسقلان كانت أكثر المدن أهميّة وحساسيّة بالنسبة إلى الفاطميين؛ نظرًا إلى موقعها الجغرافيّ، وكونها بوابة الشام بالنسبة إلى مصرَ، بالإضافة إلى كونها مركز الأسطول الفاطميّ الذي اعتمد عليه الفاطميّون في السيطرة على بلاد الشام.

كما يتبيّن لنا أيضًا أنّ سكان مدينة عسقلان كانوا شديدي الولاء للفاطميين، أو على الأقلّ لم يساندوا القرامطة أو الحَمْدانيين في صراعهم ضدّ الفاطميّين. وعلى الرّغم من كلّ الظروف المتقلّبة والمتوتّرة التي شهدها الفاطميّون في فلسطين، لم يُذكر في المصادر أنّ سكان مدينة عسقلان قد استغلوا هذه الظروف ليثوروا على الفاطميّين أو يخرجوا عن طاعتهم، وهذا بدوره ساعد الفاطميّين على إعادة بسط نفوذهم على المدينة في كلّ مرّة كانت المدينة تخرج فيها عن سلطتهم.

---

[١]- أبو رحمة، زهير، الحياه العلميّة في غزّة وعسقلان، ص٣٦.

عسقلانُ في ظلّ نفوذ بني جرّاح على فلسطينَ

كان لضعف السلطة المركزية في بغداد (الخلافة العباسيّة)، وتراجع نفوذ الفاطميّين في بلاد الشام التأثير المباشر في ازدياد بروز الحركات المتمرّدة، في جميع أرجاء بلاد الشام، وقد أدّى ذلك إلى ظهور زعامات عربيّة محليّة، لها نفوذ ووزن سياسي واجتماعيّ، خصوصًا في فلسطين. وفي أواخر القرن الرابع الهجريّ بدأت موجة العداء والكراهية للفاطميين والحكم الفاطميّ تزداد؛ بسبب الإجراءات التي اتّبعتها الدولة الفاطميّة في فلسطينَ وفي عسقلانَ على نحو خاصّ.

وقد أساء الموظفون والجنود الفاطميّون الذين أرسلتهم الدولة الفاطميّة إلى فلسطين، معاملة السكان المحليين، فقاموا بأعمال تنكيل وبطش أذكت نار العداء للفاطميين. وتذكر بعض المصادر أنّ الدولة الفاطميّة اتبعت في هذه المرحلة سياسة قمعيّة ذات لون طائفيّ ضدّ أهل السُّنة في بلاد الشام؛ إذ غيّر الفاطميّون بعض الفروض الإسلاميّة التي تتعارض معَ الفروض المتعارف عليها، وألزموا الناس اتباعها، كما اعتدوا على العلماء السُّنة، فضلاً عن ترويجهم فكرة تأليه الإمام[١].

قد تكون بعض المصادر بالغت في وصف أفعال الفاطميّين وتصرّفاتهم في فلسطين وبلاد الشام، خصوصًا على المستوى الطائفيّ؛ لأنّ رواياتِ بعض المؤرّخين كانت تطغى عليها الصبغة المذهبيّة؛ إذ يقول ابن عذاري حول سياسة الفاطميّين في بلاد الشام إنهم: "أباحوا الكثير من المحرّمات والكبائر، كأكل الخنزير وشرب الخمر"[٢]. وهذا فيه شيء من التهويل والتضخيم؛ لأنّ المصادر الأخرى لم تشرْ إلى ذلك، لا بل إن المقريزي يشير الى عكس ذلك، فيقول: "وأشتد الامر

---

[١]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨ ، ص٦٤١. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٥٣. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٣٣.

[٢]- ابن عذاري، المراكشي، البيان المغربي في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان وليفي بروفنال، دار الثقافة، بيروت، د. ت، ج١، ص١٨٤-١٨٦.، سيشار إليه لاحقًا: ابن عذاري، البيان.

في منع المسكرات وتتبع مواضعها.... ومنع الغناء واللهو".[١] ولا يعني ارتكاب المحرّمات في بلاد الشام أنّ الدولة الفاطميّة قد أباحت ذلك، على الرّغم من وجود أسباب حقيقيّة، سواء سياسيّة كانت أم اقتصاديّة أم اجتماعيّة، قد دفعت إلى تعميق العداء للفاطميين والثورة عليهم.

كانت علاقة بني الجرّاح معَ الفاطميّين، في بداية الحكم الفاطميّ لبلاد الشام، علاقة جيّدة؛ إذ وقف بنو الجرّاح إلى جانب الفاطميّين في كثير من الأزمات والحملات العسكريّة ضدّ القوى المعادية لهم في بلاد الشام. وبدأ نفوذ بني الجرّاح يزداد على فلسطين معَ تعيين الخليفةِ الفاطميّ العزيز، مفرّجَ بنَ دغفل بن الجرّاح واليًا على الرّملة[٢]. يقول أبو رحمة إنّ الهدف من هذا التعيين هو ضرب الزعامات العربيّة في فلسطين ببعضها؛ لأنّ بني الجرّاح كانوا يكنّون العداء الخفيّ للفاطميين، لكنّ الفاطميّون عملوا على استمالتهم وعدم استعدائهم[٣]. معَ العلم أنّ بني الجرّاح كانوا يسيطرون على فلسطين على نحو كامل قبل تولية العزيز لهم، لكنهم أظهروا الطاعة له من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا يتصرّفون باستقلاليّة تامة من غير الرّجوع إليه[٤].

خضعت مدينة عسقلان مثل سائر مدن الجنوب إلى نفوذ بني الجرّاح، على الرّغم من بقاء القوات الفاطميّة في المدينة؛ حيث بقيت عسقلان وميناؤها مركزًا للفاطميين، لكنّ المدينة كانت خاضعة لنفوذ بني الجرّاح وفي هذا يقول ابن القلانسي إنه في عام (٣٦٩هـ/ ٩٧٩م) خلت الديار

١- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٨٧.

٢- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٤٦.

٣- أبو رحمة، زهير، الحياة العلميّة في غزّة وعسقلان، ص٣٩.

٤- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٣. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٤٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٤٠. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٥٠.

لابن الجرّاح[١]. ونتيجة لكثرة النزاعات والصّراعات الدامية في فلسطين وسائر بلاد الشام، شهدت مدينة عسقلان في ظلّ حكم بني الجرّاح ظروفًا معيشيّة قاسية؛ وذلك -حَسَبَ ما جاء في المصادر- بسبب جشعهم من حيثُ جمعُ الضرائب وجباية الأموال، وتغليبهم مصالحهم الخاصّة على المصلحة العامّة؛ فهجرت العمارة والأراضي الزراعيّة وأقفرت الأسواق[٢].

وفي عهد حسّان ابن الجرّاح طرأ تغيير على علاقة آل الجرّاح بالفاطميّين بعد الحاكم بأمر الله؛ حيث اتسمت بالودّ والطاعة، حتى بداية ولاية الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ/ ١٠٢٠- ١٠٣٥م)؛ فقد سعى إلى التقرّب من الزعامات العربيّة في بلاد الشام وعدم استعدائهم، وزاد حسّان بن الجرّاح بزيارة القاهرة سنة (٤١٤هـ/ ١٠٣٥م)، فاستقبله الظاهر وأكرمه ومنحه إقطاعات في بلاد الشام.[٣]

إلا أنّ هذا الهدوء وهذا الاستقرار لم يدمْ طويلاً، وذلك مع تعيين الظاهر لأنشتكين بن عبدالله الدربزي[٤] واليًا على فلسطين ودمشق في سنة (٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)[٥]. حيث سعى الظاهر من خلال هذا التعيين إلى ضرب آل الجراح في فلسطين والقضاء عليهم، وفي ظل الصّراع الذي نشب بين آل الجراح والدرزي، كانت مدينة عسقلان، مسرحًا دارت عليها أحداث هذا الصّراع، وكانت في هذه الآونة تحت سيطرة ونفوذ الدرزي وقواته التابعة للفاطميين. ففي عام (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م) قام الدربزي في اعتقال رجال وأعوان حسان بن الجراح، وسجنهم في مدينة عسقلان التي

١- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢١. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧٠٠. ابن تغري بردي، النجوم، ج٤، ص١٣٥-١٣٨. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص٢٥٤.

٢- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨-٢٩. ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٦-٧.

٣- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٣٣

٤- انشتكين الدرزي: ويدعى نشتكين الدرزي، وله أسماء عدّة. ويُعدّ أحد أهم المؤسّسين للمذهب الدرزيّ الذي حمل اسمه، إلا أنّ الدروز يعدّونه خارجًا عن المذهب الدرزي، وأنه حاول الانقلاب على دعوتهم.

٥- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٠١. المقريزي ، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٣٢

كانت تحت سيطرته[١]. وهذا يبين لنا أن مدينة عسقلان كانت أكثر المدن تحصيناً في فلسطين واعتمادًا من قبل الفاطميّين في ظل هذه الصّراعات.

وقد استطاع حسان بن الجراح في سنة (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م)، أي في العام نفسه، من هزيمة قوات الدربزي واقتحام مدينة عسقلان، وفك أسر أعوانه، وعادت مدينة عسقلان إلى نفوذه بعد أن كانت تحت نفوذ الفاطميّين وواليهم الدرزي. حيث تشير المصادر أن حسان بن الجراح قد سار إلى عسقلان، واستولى عليها ونهبها وقتل أهلها، ونجح بذلك في السيطرة على الطريق البري الرئيسي الذي يربط بلاد الشام بمصر، ومنع وصول الإمدادات الفاطميّة إلى حامياتها في مدن الساحل الشامي. ومع ذلك استمر ابن الجراح في إعلان ولائه للفاطميين، وبعد أن ثبت حكمه على فلسطين، اضطر الخليفة الفاطميّ الطاهر مكرهًا، أن يمنحه الألقاب السلطانية وأن يوسع له اقطاعاته لتشمل القدس ونابلس[٢]. واستطاع حسان بن الجراح في سنة (٤١٧هـ/ ١٠٢٦م)، من القبض على الدربزي في عسقلان وإيداعه في أحد سجونها[٣].

وإزاء هذا النفوذ المتنامي لبني الجرّاح على فلسطين، لم يستطع الفاطميّون الوقوف مكتوفي الأيدي؛ لذا جهّز الظاهر في سنة (٤٢٠هـ/١٠٢٩م) جيشاً بقيادة انوشتكين الدرزي الذي منحه لقب "أمير الأمراء"، وخرج على رأس خمسة آلاف جنديّ من أجل القضاء على نفوذ بني الجرّاح، والتقى الجيشان في موقع يسمّى الأقحوانة[٤]، وعُرفت به المعركة، وذلك في أواخر ربيع الثاني

١- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٧١-٧٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤١١. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٣٢.

٢- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ،ص٧٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص١٦٩. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٢، ص٤٠٠. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٥٧.

٣- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٧٣-٧٤.

٤- الأقحوانة: موضع بالأردنّ قرب بحيرة طبريّا، حوله مدينة الشونة الشماليّة، وسُمّيت بذلك لكثره نبات أزهار الأقحوان فيها. انظر: الحمويّ، ياقوت، معجم البلدان، مج ١، ج٢، ص١٨٨.

(٤٢٠هـ/ مايو ١٠٢٩م)، وتمكّنت قوّات الفاطميّين بقيادة الدربزيّ من هزم قوّات ابن الجرّاح وتحالفه، وهرب ابن الجرّاح على إثر هذه الهزيمة إلى شماليّ الشام،ودخل في خدمة البيزنطيين[1]. وبذلك استعاد الدربزيّ باسم الفاطميّين نفوذه على المدن الساحليّة، وكانت عسقلان من طلائع هذه المدن، وبذلك أيضًا تكون سلطة الفاطميّين قد عادت إلى مدينة عسقلان وجميع مدن الساحل الفلسطينيّ على نحو كامل.

يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ مدينة عسقلان قد أدّت دورًا مهمًّا وأساسيًّا في ظلّ الصّراع المستمرّ بين بني الجرّاح والفاطميّين والقوى المحليّة الأخرى. وتدل الأحداث على أنّ مدينة عسقلان كانت مدينة محصّنة تحصينًا جيّدًا للاحتماء فيها؛ ولذلك كانت جميع الأطراف المتنازعة تسعى إلى السيطرة عليها من أجل التحصّن فيها، وإعداد قوّاتهم داخلها؛ وبذا فهي أشبه ما تكون بالقاعدة العسكريّة، كما توجد فيه السجون لوضع أسرى الحروب. لكونها كذلك، فقد شهدت مدينة عسقلان في ظلّ هذه الصّراعات سوءًا في الأحوال المعيشيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، وتعرّضت إلى الخراب والدمار أكثر من مرّة؛ بسبب سعي الأطراف المتصارعة الدائم إلى السيطرة عليها.

[1]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٧٣. ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٩٢. ابن ظافر الأزدي، أخبار الدولة المنقطعة، ص٦٤. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة العقيلي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٢م)، بغية الطلب في تاريخ حلب (١٢ج)، تحقيق: سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ج٥، ص٢٢٤١، وسيشار إليه لاحقًا: ابن العديم، بغية. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤١٠. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٢٥٢. ٤١١. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٧٨.

عسقلانُ في ظلّ الصّراع الفاطميّ السلجوقيّ

بعد أن تمّ للفاطميين القضاء على نفوذ بني الجرّاح في عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، الذين هددوا نفوذ الفاطميّين في فلسطينَ على مراحلَ مختلفة، شهدت بلاد الشام وتحديدًا فلسطين هدوءًا نسبيًّا، واستقرارًا لم يدم طويلاً؛ إذ ازدادت الحياة الاقتصاديّة في فلسطين سوءًا بسبب الكوارث الطبيعيّة مثل الزلازل، إضافة إلى سنوات القحط التي تسبّبت بكثرة الأوبئة والمجاعات؛ حيث عُرفت هذه السنوات باسم "سنوات الشدّة المستنصريّة"[١]. ويذكر عادل نبهان أنّ هذه الظروف استمرّت سبع سنوات (٤٥٧- ٤٦٤هـ/ ١٠٦٤-١٠٧١م)، استولى الخراب فيها على كلّ البلاد، وعجزت خلالها الدولة الفاطميّة عن دفع الهِبات المقرّرة لشيوخ القبائل العربيّة في بلاد الشام، الأمر الذي أدّى إلى قيام هؤلاء الزعماء بعمليات سلب ونهب واسعة في تلك البلاد[٢].

وعلى أثر هذه الظروف، ظهر في بلاد الشام عنصر جديد بدأ بالسيطرة على بلاد الشام، وهم الأتراك السلاجقة، الذين استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم على الخلافة العباسيّة في بغداد منذ سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، بعد أن قضوا على البويهيين الشيعة[٣]. وعَرف الفاطميّون مدى الخطر الذي يشكله السلاجقة الأتراك عليهم في بلاد الشام، فعادت مدينة عسقلان من جديد لتكون محلّ أنظار القوى المتنازعة، على الرّغم من الظروف الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي كانت تمر بها؛ حيث عيّن الخليفة الفاطميّ المستنصر بالله بدر الجمالي واليًا على بلاد الشام سنة (٤٥٨هـ/ ١٠١٥م)؛ من

---

[١]- ابن الاثير، الكامل، ج١٠، ص٥٧-٦٤. ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٥. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٧٠-٢٨٠

[٢]- انظر: نبهان، عادل، عسقلان منذ منتصف القرن الرابع هجري وحتى الفصل الثاني من القرن السابع هجري، دراسة تاريخيّة وحضاريّة، ص١٠٣.

[٣]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩ ص٦٠٨-٦٠٩. أبو الفداء، المختصر، ج١، ص٥٢٩. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٣٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٣٠٤-٣٣٠٥.

أجل المحافظة على النفوذ الفاطميّ في الشام[١]، فقاد هذا الأخير حملة عسكريّة، ودخل مدينة عسقلان وأمّنها وجعل ابنه شعبان واليًا عليها، ثمّ حارب القبائل المتمرّدة وأدّبها، ودخل دمشقّ وجعلها مقرّ إقامته[٢].

وبعد تعيين بدر الجمالي واليًا على بلاد الشام، وعلى إثر حملته العسكريّة، ونتيجة للظروف الاقتصاديّة والمعيشيّة السيّئة المتراكمة على مدار عقود، وصل تذمّر سكان فلسطين من الحكم الفاطميّ إلى ذروته؛ فاندلعت في أواخر سنة (٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م) ثورة عارمة ضدّ الحكم الفاطميّ أدّت إلى مقتل والي عسقلان شعبان بن بدر الجماليّ[٣]. وهذا يبيّن أن مدينة عسقلان كانت مركز هذه الثورة. وعلى إثر هذه الثورة حدث تمرّد بين قادة الجيش الفاطميّ ضدّ الخليفة الفاطميّ المستنصر في قصره في القاهرة، فاضطرّ المستنصر إلى تهريب أهل بيته وتسييرهم إلى غزّة وعسقلانَ سنة (٤٦١هـ/ ١٠٦٨م)[٤].

وعلى إثر هذه الأحداث المضطربة في فلسطين وجميع بلاد الشام ضدّ الحكم الفاطميّ، تعاظم نفوذ السلاجقة الأتراك، وأصبحوا يتحيّنون الفرصة للسيطرة على بلاد الشام، وكذلك مصرَ للقضاء على الحكم الفاطميّ فيها، وخصوصًا بعد انتصار السلاجقة بقيادة ألب أرسلان على البيزنطيين في معركة ملاذكرد سنة (٤٦٣هـ/١٠٧١م)[٥]. وظهرت في هذه المرحلة ثلاث قوًى

---

[١]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٧٢. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٧٢ .

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٩٦. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٧٤.

[٣]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٩٧. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٨٠. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٧٧.

[٤]- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص٩٧. الذهبي، ابو عبدالله شمس الدين محمد بن عثمان قايماز (ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٩٩٩م، ج١٥، ص٢٠، وسيشار إليه لاحقًا: الذهبي، سير. المقريزي، اتعاظ، ج٢، ص٢٧٨.

[٥]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٦٥، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٥، ص٨٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٣٤.

متنازعة في بلاد الشام: الفاطميّون، والسلاجقة الأتراك، والقائد التركماني إتسز بن أوق الخوارزمي، الذي انشقّ عن السلاجقة أنفسهم، ليعلن ولاءه للأمير الفاطميّ بدر الجماليّ، الذي كان يتولّى الإمارة العسكريّة في بلاد الشام[١].

وقد استغل الخوارزميّ الصّراع بين الفاطميّين والسلاجقة؛ فاستولى على كلّ فلسطين بعد أن ولاه بدر الجماليّ بادية الأردنّ في سنة (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م). إلا أنّ عكا وعسقلان بقيتا تحت حكم الفاطميّين، ولم يستطع الخوارزميّ السيطرة عليهما بسبب حصانة هذه المدن المتينة، بل بسبب عدم قدرته على إحكام الحصار تكون قوته برية ولا يوجد لديه أسطول لإحكام الحصار، بالإضافة إلى وجود أمير قوي في عسقلان، وهو الأمير علي بن معروف الذي استطاع ضمّ سكان مدينة عسقلان إلى جانبه[٢]، وأقام لاحقًا في عسقلان إمارة شبه مستقلّة عن الفاطميّين[٣].

وقد نجم عن اضطراب الأحوال السياسيّة الداخليّة في مصرَ سنة (٤٦١هـ/ ١٠٧٣م) سوء أحوال كبير، وفي هذا يقول ابن القلانسيّ: "وفيها وردت الأخبار من مصرَ بغلاء الأسعار، وقلّة الأقوات في اعمالها، واشتداد الحال في ذلك، واضطرارهم إلى أكل الميته وأكل الناس بعضهم بعضا من شدّة الجوع، وقتل من يظفر به"[٤]. لذلك اضطرّ والي إمارة بلاد الشام، بدر الجماليّ إلى الخروج من الشام والعودة إلى مصر؛ لإعادة ترتيب البيت الفاطميّ الداخليّ فيها، فاستغلّ إتسز الخوارزميّ خروج بدر الجماليّ من الشام، وشنّ على فلسطين حملة عسكريّة استولى إثرها على

---

[١]- انظر: ابن تغرى بردى، النجوم، ج٥، ص٨٧.
[٢]- ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٦٨. الذهبي، العبر في خبرمن غبر، ج٣، ص٢٥٢.
[٣]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٠، ص٦٨. ابن تغرى بردى، النجوم، ج٥، ص٩٠.
[٤]- انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٩٧-٩٨.

الرّملة وبيت المقدس[١]، واستولى على دمشقَ أيضًا، وأعلن الدعوة للعباسيين سنة (٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م)، وبعد عام سنة (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) حاول إتسز الخوارزميّ امتلاك مصرَ، لكنه فشل. وفي أثناء خروجه إلى مصرَ أعلن سكان فلسطين الثورة عليه، وكان مركز الثورة الرّملة وغزّة. وتشير المصادر إلى أنّه ارتكب مجزرة كبيرة بحقّ سكان المدن الثائرة، باستثناء عسقلان التي نجت من بطشه بسبب علاقته الوديّة معَ ابن معروف أميرِ مدينة عسقلان[٢].

بعد هذا الاستئثار لإتسز الخوارزميّ على فلسطين، سعت الدولة الفاطميّة مجددًا إلى استرجاع نفوذها في فلسطين وبلاد الشام، وذلك من خلال حملة عسكريّة بقيادة بدر الجماليّ، وعندما شعر إتسز بمساعي الفاطميّين لاسترداد نفوذهم في فلسطين، والقضاء عليه، استنجد بالسلطان السلجوقيّ ملك شاه (٤٦٥هـ-٤٨٥هـ/ ١٠٧٢م-١٠٩٢م)، فاستجاب الأخير بإرسال قوّة عسكريّة بقيادة أخيه تتش سنة (٤٧١هـ/ ١٠٧٩م)، التي تصدّت للفاطميين، ثمّ ألقى تتش القبض على إتسز الخوارزميّ، الذي كان يعدّ خارجًا على سلطة السلاجقة في بلاد الشام، وضرب عنقه. واستولى السلاجقة بذلك على بلاد الشام، باستثناء مدن ساحل فلسطين، التي استطاع بدر الجماليّ استرجاعها سنة (٤٧٧هـ/ ١٠٨٥م) بما فيها عسقلان، التي تمكن بدر الجماليّ من دخولها والقضاء على أميرها المنشقّ علي بن معروف[٣]. وفي هذا العام يذكر ابن خلكان:" إن بدراً قد بنى مشهد الرأس في عسقلان".[٤]

١- الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ص٤٦١-٤٦٩. ابن تغرى بردى، النجوم، ج٥، ص٨٧. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٥.

٢- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٩٨. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٢٢. المقريزي، اتعاظ الحنفا في تاريخ الخلفا، ج٢، ص٣١٧-٣١٨. ابن تغرى بردى، النجوم، ج٥، ص٨٩.

٣- ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١١١-١١٢. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢٠. نبهان، عسقلان منذ منتصف القرن الرابع الهجري وحتى النصف الثاني من القرن السابع هجري، دراسة تاريخيّة وحضاريّة، ص١١٤.

٤- ابن خلكان، وفيات الاعيان،ج١، ص٤٥٠.

يتبيّن ممّا سبق أنّ عسقلان قد شهدت في مدّة حكم الفاطميّ لها، التـــي اتّســمت بـــالطول، ظروفًا مضطربة وغير مستقرّة على الدوام، امتدّت إلى ما يقارب القرن وربع القرن؛ أي منذ سنة (٣٦٠هــ / ٩٧٠م) حتى سقوط فلسطين بأيدي الصليبيّين ســنة (٤٩٢هـــ / ١٠٩٨م). وكانـــت الظروف الاقتصاديّة المعيشيّة والاجتماعيّة المزرية، التي شهدتها مدينة عسقلان طَوال هذه المـدّة، ناتجة من الانقسام والتشرذم اللذين شهدتهما جميع بلاد الشام، وكثرة القوى المحليّة المتصارعة من زعامات وإمارات، سعت إلى السيطرة والسلطة في ظلّ غياب سلطة مركزيّة قويّة، وتراجــع دور الخلافة العباسيّة وضعفها.

فقد حلّ ما حلّ بمدينة عسقلان سواء اقتصاديًّا أو اجتماعيًّا، وتعرّضـــت المدينـــة للســرقة والنهب أكثر من مرّة، وتردّد على حكمها الحكّام والأمراء على نحو غير دائم ومســتقرّ. إلا أنهـــا بقيت على مدار هذه المرحلة تحت سيطرة الفاطميّين؛ وذلك بسبب تحصيناتها المحكمـــة والقويّـــة. ولوحظ أنها كانت قاعدة عسكريّة للفاطميين وخط دفاعهم الأول عن مقرّ خلافتهم في مصرَ، وهـــذا ما أدّى إلى تدهور المدينة من الناحيتين: الاقتصاديّة، والاجتماعيّة؛ لأنها كانت محلَّ صراع دائـــم بين القوى المتصارعة في بلاد الشام معَ الخلافة الفاطميّة، التي كانت تسعى إلى الســيطرة عليهـــا دائمًا.

كانت أيّام هذه المرحلة من الحكم الفاطميّ، والصّراع معَ الزعامـــات العربيّـــة المحليّـــة، والإمارات المستقلّة على عسقلان، تنذر بانتهاء مرحلة من التاريخ الإسلاميّ، وبدء مرحلة أخرى لا تقل أهميّة عن سابقتها، وهي مرحلة الحروب الصليبيّة التي سيكون لها الأثر المهمّ في تاريخ مدينة عسقلان وجميع فلسطين وبلاد الشام.

الفصل الثاني
عسقلان والحروب الصليبيّة
(٤٩٢- ٥٤٨هـ/ ١٠٩٩- ١١٥٣م)

- الحملات الصليبيّة على العالم الإسلاميّ.
- سقوط بيت المقدس (٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩م).
- مدينة عسقلان والحملات الصليبيّة.
- معركة عسقلان (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م).
- عسقلان وحملات الأفضل ضدّ الصليبيّين.
- الحملة الفاطميّة الثانية سنة (٤٩٥هـ/ ١١٠٢م).
- اضطرابات عسقلان في ظلّ ولاية شمس الخلافة.
- حصار عسقلان وسقوطها بيد الصليبيّين (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م).
- حصار المدينة.
- سقوط مدينة عسقلان بأيدي الصليبيّين.

الحملات الصليبيّة على العالم الإسلاميّ

لقد كان للحملات الصليبيّة[١] التي امتدّت إلى ما يقارب القرنين من الزمن، الأثر المهمّ في العالم الإسلاميّ، والعالم الغربيّ الأوروبيّ المسيحيّ أيضًا؛ إذ غيّرت هذه الحملات العسكريّة ذات الطابع الدينيّ المسارَ التاريخيّ لديار المسلمين في المشرق الإسلاميّ، وخصوصًا في بلاد الشام، كما غيّرت المسارَ التاريخيّ للعالم الغربيّ الأوروبي في جميع مجالات الحياة. وكان لهذه الحملات أيضًا تأثير في دور الكنيسة والبابويّة[٢] كمؤسسة حاكمة في أوروبا؛ وبذا فقد ساهمت في إعادة تشكّل العلاقات على جميع الصُّعُدِ بين العالمين: الإسلاميّ والأوروبيّ، التي بقيت آثارها بادية عليهما حتى التاريخ الحديث.

انطلقت الحروب الصليبيّة على شكل حملات عسكريّة، وعلى مراحلَ مختلفةٍ، وكان أهمّها الحملة الصليبيّة الأولى (٤٨٨-٤٩٢هـ/ ١٠٩٥-١٠٩٩م)، بعد حملة دعائيّة، وتعبئة شعبيّة سعى إليها البابا أوربان الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩م)، في مؤتمر كليرومنت الكنسيّ، الذي عقد في (١٨-٢٨ نوفمبر ١٠٩٥م) في جنوبيّ فرنسا[٣]. ويُعدّ هذا المؤتمر بداية إطلاق الحملات الصليبيّة من غرب أوروبا، تلك الحركة التي ستقود الحملات الصليبيّة.

١- وهي حروب وحملات عسكريّة شنّها المسيحيّون من فرنجة الغرب من حملة الصليب على المسلمين في بلاد الشام ومصر، وكانت أهمّ معاركها بين عاميّ ١٠٩٥ و ١٢٩١م. وسمّاها المؤرّخون المسلمون بحروب الفرنجة.انظر: يوسف، جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، مؤسسة شباب الجامعة، ط١، الاسكندرية ١٩٨٣م. ص٥.

٢- كلمة مشتقّة من كلمة بابا، والمقصود بها وظيفة أو سلطة للبابا، كما أنّها تعني مدّة حكم البابا، كما تعني أيضًا نظام حكم الكنيسة الكاثوليكيّة في روما التي يشكّل فيها البابا السلطة العليا. انظر: عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ اوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، ط١، بيروت ١٩٧٢م. ص١٢٧.

٣- ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين محمّد عطيّة، تقديم: جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة- مصر، ط١، ٢٠٠١م، ص١٧، وسيشار إليه لاحقًا: ريموندا جيل، تاريخ.

ولو عدنا إلى الأسباب الباعثة على توجه الحركة الصليبيّة وحملاتها على العـالم الإسـلاميّ، لوجدنا أنّ هناك أسبابًا عدّة دفعت إلى القيام بها وليس سببًا واحدًا، خصوصًا الأولى منها. ومن هذه الأسباب والدوافع:

١) الدافع الدينيّ: كان الدافع الدينيّ للحملة الصليبيّة الأولى، هو الدافع المعلن على نحو مباشر في هذه الحملة؛ حيث قاد رجال الدين الحملة الدعائيّة لتعبئة الجماهير والعامّة للمساهمة في هـذه الحملة من أجل استرداد الديار المقدّسة من المسلمين في فلسطين، وتخليص قبر المسيح مـن حكم الأعراب، إضافة إلى مدّ يد المساعدة لإخوانهم مسيحيّي الشـرق[١]. وقـد كانـت هـذه الادّعاءات عاملاً حاسمًا في تحريض العامّة للحرب، والتضحية من أجل الربّ، والمشاركة في الحملة.

٢) الدافع الماديّ الاقتصاديّ: عانت أوروبا في تلك الآونة من أزمة اقتصاديّة خانقة كانت بسـبب أمور عدّة، منها: الكثافة السكانيّة، والفقر والمجاعات التي حركت جموعًا غفيرة مـن النـاس باتّجاه الشرق؛ آملين بحياة أفضل بعد أن ضاقت بهم الحياة ذرعًـا[٢]. إضـافة إلـى طمـع الأوروبيّين في خيرات الشرق؛ حيث ساعدت طبيعة النظام الإقطاعيّ الاقتصاديّ الذي كـان سائدًا في أوروبا، الذي حرم الفرسان والأمراء من الأرض بسبب نظام الإرث السـائد، علـى جعلهم يلبّون نداء البابا في المساهمة في الحروب الصليبيّة لعلّهم ينجحون في تأسيس إمـارات لهم في الشرق[٣].

[١]- الشارتري، فوشيه، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: د. زياد العسلي، دار الشروق للنشـر والتوزيـع، عمّـان- الأردنّ، ط١، سـنة ١٩٩٠م، ص٣٢، وسيشار إليه لاحقًا: الشارتري، تاريخ.

[٢]- المرجع نفسه، ص٣٥.

[٣]- عطيّة، علي مسعود، تاريخ الحروب الصليبيّة، منشورات جامعة القدس المفتوحة، القدس، ١٩٩٦م، الطبعة الأولـى، ص١٨، وسيشـار إليه لاحقًا: عطية، تاريخ.

٣) الدافع السياسيّ: من غير شكّ، فإنّ للحملات الصليبيّة ظروفًا وأهدافًا سياسيّة تتعلّق بطبيعة نظام الحكم في أوروبا، وتحديدًا سطوة البابويّة وسيطرتها على الملوك الأوروبيّين، الذين لم يكونوا يستطيعون أن يعصوا لها أمرًا وإلا تعرّضوا للحرمان[١]. لذلك كانت الدّعوة إلى الحملات الصليبيّة على الشرق الإسلاميّ مخرجًا سياسيًّا بالنسبة إلى القوى المتصارعة على النفوذ في أوروبا، سواء أكانت مؤسسة الكنيسة الممثلة بالبابويّة أم الملوك والأمراء الذين كانوا يسيطرون على الأراضي والإقطاعات.

فضلاً عن أنه كان للظروف الاجتماعيّة القاسية، التي عانى منها كثير من شرائح المجتمع الأوروبيّ، أثر في ذلك؛ حيث كان المجتمع الأوروبيّ في العصور الوسطى ينقسم إلى ثلاث طبقات: طبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان، وطبقة الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض[٢]، وقد عملت الطبقة الثالثة؛ أي طبقة الفلاحين على خدمة الطبقتين: الأولى والثانية، وكان الفلاحون يشكلون الشريحة الأكبر والأوسع في المجتمع الأوروبيّ آنذاك، ولذلك عاشت في ظروف اجتماعيّة في غاية السوء، وكان معظم المشاركين العامّة في الحملة الصليبيّة الأولى من هؤلاء[٣].

إنّ كل هذه الأسباب مجتمعة ساهمت على نحو أو آخرَ في تجييش ملوك أوروبا وبابواتها، إضافة إلى طبقة الفلاحين والعامّة. لكنّ الدافع الدينيّ كان أكثر العوامل إدعاء وتعبئة، الأمر الذي دفع إلى تحرك أوّل حملة صليبيّة من هذه الحملات إلى الشرق.

---

[١]- عاشور، سعيد عبدالفتاح، الحركة الصليبيّة، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربيّ في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط١، ١٩٧٨م، ص٣٥، وسيشار إليه لاحقًا: عاشور، الحركة.

[٢]- المرجع نفسه، ص٣٧. عطية، تاريخ الحروب الصليبيّة، ص٢١.

[٣]- عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٣٨.

سقوط بيت المقدس

انطلقت الحملة الصليبيّة الأولى سنة (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م)، يقودها مجموعة من ملوك أوروبا، كان أشهرهم جودفريّ[١]، الذي وصل إلى القسطنطينيّة في (٢٣ ديسمبر ١٠٩٦م)[٢]. وفيها تحالف معَ القوى البيزنطيّة، التي تحالفت معَ الحملات الصليبيّة ضدّ المسلمين. وبعد ذلك توجّهت الحملة الصليبيّة بقيادة كلّ من جودفريّ وبوهمند[٣] وقادة آخرون إلى نيقية[٤]، وحاصروها، ثمّ إنها سقطت بيدهم بعد خمسة أسابيع من الحصار، على الرّغم من تحصيناتها المنيعة. يقول ريموندا جيل: "واستولى الخوف على نيقية فسقطت"[٥].

وبعد سقوط نيقية توجّهت الحملة الصليبيّة باتجاه أنطاكيا، وكان ذلك في (٤٩١هـ/١٠٩٨م)، فحاصرها الصليبيّون مدّة سبعة أشهر حتى سقطت بيدهم.[٦] يقول ابن الورديّ: "ووضع الفرنج السيف في المسلمين في أنطاكيّة ونهبوا"[٧]. ويعود سبب سقوطها على الرّغم من صمود أهلها عدّة شهور، إلى نفاذ المؤن بسبب الحصار، وتفوّق الصليبيّين بقوّة السلاح

١- هو جودفري بوايون أمير لوثرجيا، وكانت له مكانة بارزة في الإمبراطوريّة المقدسة ويُعدّ من أهمّ الرموز والقادة الذين قادوا الحروب الصليبيّة، وكانت حملته أوّل حملة صليبيّة نظاميّة شقّت طريقها إلى الشرق** انظر الفتيري يعقوب، تاريخ بيت المقدس، ص٧٠.

٢- الصوري، الحروب الصليبية، ٢ اجزاء، ترجمة: حسن حبشي،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ١٩٩٢م، ج٢، ص١٨. وسيشار اليه لاحقا الصوري/الحروب. ابن الاثير، الكامل في التاريخ،ج١٠، ص٢٧٣-٢٧٤.المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٠. ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٦٢. الشارتري، فوشيه، تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٠. عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ص١٤٠.

٣- هو بوهمند النورمانيّ أكبر أبناء روبرت جوبيكارد، وكان في أثناء الحملة الصليبيّة أميرًا على جنوب إيطاليا وصقلية، وهو الذي قاد القوات النورمانيّة الصليبيّة في أثناء الحملة الصليبيّة الأولى. الصوري، الحروب الصليبية، ج٢ ص١٨.

٤- تقع مدينة نيقية في إقليم بثينيا في آسيا الصغرى، وبنيت في عهد الإمبراطور أنتيجونوس قرابة عام ٣١٦ ق.م، وفي زمن الحملة الصليبيّة الأولى كان يحكمها قلج أرسلان السلجوقيّ. يوسف، جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى، مؤسسة شباب الجامعة، ط١، الاسكندرية، ١٩٨٣م. ص١١٢.

٥- ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة وزاد بيت المقدس، ص٧٨.

٦- الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٨. ابن الاثير ، الكامل، ج٢٧٤،١٠. المقريزي، اتعاظ الحنفا،ج٣، ص٢٠

٧- ابن الوردي، الشيخ زين الدين عمر بن الوردي (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، تتمة المختصر في أخبار تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٧٠م، ج٢، ص١٠٩، وسيشار إليه لاحقًا: ابن الوردي، تاريخ.

والعتاد، بالإضافة إلى تعاطف قطاعات سكانها معَ الصليبيّين؛ لأنّ معظمهم كــان علــى الديانــة المسيحيّة، ومن عامّة الدولة البيزنطيّة قبل الفتح الإسلاميّ السلجوقيّ. ثمّ سارت الحملة فــي العــام نفسه باتجاه معرّة النعمان، فاستولوا الصليبيون عليها وقتلوا الكثير من النــاس، وســبوا، وأقــاموا فيها[١].

بعد سقوط أنطاكيا بأيدي الصليبيّين، أقاموا فيها إحدى أهمّ إماراتهم في الشرق[٢]، وأصبحت القاعدة العسكريّة لانطلاق القوات الصليبيّة على المدن الأخرى. ومنها انطلقت الحملة الصليبيّة في إكمال سيرها تجاه بيت المقدس، الذي كان هدفهم الأساسيّ في هذه الحملة من الناحيــة الرمزيّــة، وكانت بيت المقدس في هذه المدّة سنة (٤٩١هــ/١٠٩٨م) ما تــزال تحــت ســيطرة الفــاطميّين ونفوذهم، الذين كانوا قد استردّوها من حكم السلاجقة الأتراك، بعد أن سيطر عليها السلاجقة عــام (٤٩٣هــ/١٠٧٠م)، واستردّها الفاطميّون قبل الحملة الصليبيّة بعام واحد، وكان حاكمها العسكريّ الفاطميّ آنذاك افتخار الدولة الذي دافع عنها ببسالة في أثناء حصار الصليبيّين لها[٣].

كان بيت المقدس مدينة قويّة التحصين، وكان يساعدها أيضًا الموقع ذو الانحدارات، ولــم يكن بالوسع مهاجمتها إلا من الشمال والجنوب الغربيّ[٤]، وكان الحاكم الفاطميّ قد عــرف بقــدوم

١- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٦. ابن الاثير، الكامل، ج١٠، ص٢٧٨. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٣. ابن الــوردي، تتمة المختصر في تاريخ البشر، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٢١.

٢- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق،ص١٣٥. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٧٥. ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غــزاة بيــت المقدس، ص٧٩.

٣- ابن ميسر، تاج الدين محمّد بن عليّ بن يوسف بن حلب بن راغب (ت ٦٧٧هــ/ ١٢٧٨م)، المنتقى من أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد رشيد، المعرض العلمي الفرنسي للآثار المشرقية بالقاهرة، القاهرة، الطبعة الأولى، ، ص٦٦، وسيشار إليه لاحقًا: ابن ميسر، المنتقى.

٤- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة الأعمال المنجزة في ما وراء البحار، (جزأين)، ترجمة: سهيل زكّار، دار الفكــر، بيــروت، ١٩٩٠م، ج١، ص٤٥١.

الصليبيّين، لذلك اتخذ إجراءاتٍ تموينيّةً كافية[١]. وتذكّر بعض المراجع والدراسات الأجنبيّة الحديثة أنّ النصارى هُجّروا من مدينة بيت المقدس على أساس أنهم غير موثوق بهم[٢].

وصل الصليبيّون إلى مدينة بيت المقدس، ومثل أيّ حصار، عمل الصليبيّون علـــى قطـــع المؤن والإمدادات؛ من أجل إرغام سكان المدينة على الاستسلام. وفي هذه الأثناء؛ أي فـــي ظـــلّ حصار الصليبيّين لبيت المقدس، تنبّه الفاطميّون إلى خطورة ذلك، ولمنـــع ذلـــك تحـــرّك الـــوزير الفاطميّ الأفضل على رأس جيش من مصرَ إلى بلاد الشام، فوصل إلى عسقلان وعســكر فيهـــا، وكان ذلك في (١٤ رمضان ٤٩٢هـــ/ ٥ أغسطس ١٠٩٩م)[٣]. عرف الصليبيّون بخروج الأفضل فاستعجلوا في إسقاط بيت المقدس؛ حيث يذكر صاحب أخبار مصرَ: "فلمّا بلغ الفرنج خروجه جدّوا في حصاره حتى ملكوه يوم الجمعة (الثاني والعشرين من شعبان)[٤]. وهكذا سقط بيت المقدس بيـــد القوات الصليبيّة الغازيّة، بعد حصار دام على حدّ قول ابن الورديّ: "نيفًا وأربعين يومًا"[٥]، وملكوه يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان هذه السنة.

كان لسقوط مدينة بيت المقدس الأثر المعنويّ المهمّ في ظلّ هذه الحملات العسكريّة، سواء في القوات الصليبيّة الغازيّة الذين استطاعوا احتلال الديار المقدسة، وفي أوساط المســـلمين الـــذين رأوا بسقوط بيت المقدس، واحتلالها على أيدي الصليبيّين كارثة كبيرة قد ضربت صـــميم العـــالم

١- انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٦. ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٢٠.

٢- ماير، هانس ماير، تاريخ الحروب الصليبيّة، ترجمة: د. عماد الدين غانم، المعهد العالي للعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة، منشورات مجمـــع الفاتح للجامعات، ليبيا، ط١، ١٩٩٠ م، ص٩٢، وسيشار إليه لاحقًا: مايرهانس، تاريخ.

٣- ابن القلانسي، ذيل، ص١٣٧. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٨٣. المقريزي، اتعاظ الحنفـــا، ج٣، ص٢٤. ابـــن ميســـر، المنتقى، ص٦٦-٦٧.

٤- ابن ميسر، المنتقى، ص٦٧،. انظر: الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، من ص١٢٢ الى ص١٢٦.

٥- ابن الوردي، تتمّة المختصر، ص٢١.

الإسلاميّ بأكمله. وتشير جميع المصادر الإسلاميّة وكذلك الأجنبيّة إلى السلوك الوحشيّ والعدوانيّ، الذي انتهجه الصليبيّون بعد سقوط بيت المقدس ودخولها تجاه سكان المدينة المسلمين، فيقول ابن الأثير: "وركب الناس السيف ولبث الفرنج في البلدة أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين، وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبّادهم، وزهّادهم ممّن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموقع الشريف"[١].

ويقول ابن ميسر أيضًا في ذلك: "وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام، وقتلوا أهل البلد جميعهم إلا اليسير، وانحازت طائفة إلى محراب داود عليه السلام فسلّموا المحراب في الثالث والعشرين بالأمان وأحرقوا المصاحف، وأخذوا من الصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات ما لا ينحصر"[٢]. يقول ريموندا جيل، في وصف سقوط بيت المقدس: "وبسقوط بيت المقدس وأبراجها كان المرء يستطيع أن يرى أعمالاً مدهشة، فقطعت رؤوس بعض المسلمين برحمة بينما اخترقت الآخرين الأسهم الموجّهة من الأبراج، وعذب آخرون لوقت طويل، وأحرقوا حتى الموت في اللهب المتأجّج، وتكدست في الطرقات والبيوت الرؤوس، والأيدي والأقدام، حتى إنّ الفرسان والرجال كانوا يجرون جيئة وذهابًا على الجثث"[٣].

كان لسقوط مدينة بيت المقدس وقع كبير على المسلمين، وخصوصًا على الفاطميّين في مصرَ، ولذلك أرسلت حملة نجدة يقودها الأفضل، الذي عسكر قرب عسقلان قبل أن يستطيع الوصول إلى بيت المقدس وانقاذها من الصليبيين. وأصبحت عسقلان منذ هذه اللحظة كما كانت في

---

[١]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٨٣-٢٨٤..

[٢]- ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص٩٦.

[٣]- ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٢٤٧.

السابق القاعدة العسكريّة للفاطميّين، التي سيستعدّون من خلالها لمواجهة القوّات الصليبيّة الغازيّـــة؛ فسقوط بيت المقدس يعني بالنسبة إلى الفاطميين في مصرَ التهديد المباشر لجميع مدن الجنوب فـــي فلسطين، خصوصًا عسقلان وغزّة، وهما مدينتان دفاعيّتان عن عاصمة الخلافة في القاهرة. علمًـــا بأنّ مدينة عسقلان استطاعت أن تصمد بعد سقوط مدينة بيت المقدس بوجه الصليبيّين ما يقـــارب نصف القرن،؛ إذ لم تسقط إلا في (٢٧ جمادى الآخرة ٥٤٨هــ/ أغسطس ١١٥٤م)[١]. وهذا مـــا ستأتي عليه الدراسة على نحو مفصّل.

مدينة عسقلانَ والحملات الصليبيّة

معركة عسقلان (٤٩٢هــ/ ١٠٩٩م)

على إثر سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيّين كانت عسقلان ما تزال تحت نفوذ الفاطميّين، فقد أحكم الفاطميّون السيطرة عليها؛ نظرًا إلى الأسباب التي ذُكرت سابقًا. وبدأت مدينـــة عســـقلان تؤدّي دورًا أساسيًّا في الحروب الصليبيّة منذ الحملة الصليبيّة الأولى؛ حيث وصل إليها الأفضل في الرّابع عشر من شهر رمضان من العام نفسه، وجمّع قواه فيها[٢]. فأرسل الأفضـــل رســـلاً إلـــى الصليبيّين يوبّخهم على ما فعلوه[٣]. وعلى إثر قيام الأفضل بإرســـال الرســـل، وقـــع أوّل هجـــوم للصليبيّين على مدينة عسقلان، يقول ابن ميسر: "فلم يصل إليه الرّسول إلا وهم في كثرة فهجمـــوا على الأفضل وقتلوا من عساكره فانهزم بمن خفّ معه إلى داخل عسقلان، وحصل بأيدي الفـــرنج من الغنائم ما لا يوصف كثرة وتعلّق خلق كثير في شجر الجمّيز هناك. فأحرقوا أكثر الشجر، ونزل

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٢١-٣٢٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٨١. المقريـــزي، اتعـــاظ الحنفـــا، ج٣، ص٢٠٤-٢٠٥. ابن ميسر، المنتقى من اخبار مصر، ص١٤٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٣٨٥.

[٢]- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢هــ/١٣٣١م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسّسة المصريّة العامّة، القـــاهرة. سيشار إليه فيما بعد، النويري، نهايه الأرب، ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص٦٧.

[٣]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٨٦. ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص٦٧.

الفرنج على عسقلان وحاصروها فاتّفق وقوع الخُلف بينهم، فارتحلوا عنها وسـار الأفضـل إلـى القاهرة"[١]. ويقول ابن القلانسي: بعد ان ترك الافضل عسقلان" بأن ضايق الفرنج عسقلان الى ان قرروا عليها بعده الافرنج ٢٠ الف دينار تُحمل اليهم، وشرعوا في جبايتها من اهل البلـد، فـإتفق حدوث الخلف بين المقدمين، فرحلوا ولم يقبضوا من المال شيئا. وحكي أن الذين قتلوا فـي هـذه الوقعة من اهل عسقلان منهم شهودها وتنائها، وتجارها، واحداثها، سوى اجنادها الفان وسـبعمائة نفس".[٢]

على الرّغم من خسارة الأفضل في هذه المعركة أمام القوّات الصليبيّة، فإنّ مدينة عسقلان لم تسقط بأيدي الصليبيّين الذين استطاعوا التفوّق على قوّات الأفضل. ويشير ابن الأثيـر إلـى أنّ الأفضل قد حاول الاحتماء داخل عسقلان، إلا أنّه فشل في النهاية واضطرّ إلى العودة إلى مصر[٣]. لكنّ خسارته في معركة عسقلان الأولى كانت نتيجة تفوّق الصليبيّين في العدّة والعتـاد وأفضـليّة استعداداتهم للمعركة، إضافة إلى أنّ جزءًا كبيرًا من الإمدادات العسكريّة، التـي أرسـل الأفضـل بطلبها، لم تستطع الوصول إلى مدينة عسقلان، بل عادت إلى مصرَ، بعد سماعها باقتحام الصليبيّين لمدينة عسقلان وهزيمة قوّات الأفضل[٤]. وتشير المصادر الإسلاميّة وغير الإسـلاميّة بعـد هـذه الهزيمة إلى كميّة الغنائم التي استولى عليها الصليبيّون في معسكر الأفضل؛ حيث تمكّنوا من سلب الكثير من الذهب والفضّة والأموال التي تركها المسلمون، إضافة إلى بعـض الأحجـار الكريمـة

١- ابن ميسر، المنتقى من اخبار مصر، ص٦٧.

٢- القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٧

٣- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٨٧. ابن ميسر، المنتقى، ص٦٧.

٤- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج١، ص٤٠٦.

والملابس والسيوف[١]. ويذكر ابن القلانسيّ أنّ الصليبيّين قد قتلوا من رجال الأفضل نحـــو ألفـــين وسبع مائة (٢٧٠٠) في هذه المعركة[٢].

وثمّة سؤال مهمّ، هو: لماذا لم يضمّ الصليبيّون مدينة عسقلان إلى مملكتهم على الرّغم من انتصارهم في معركتها؟ بمعنى أنه معَ فرار الأفضل وقوّاته من عسقلان، لماذا لم يسعَ الصـــليبيّون إلى السيطرة على المدينة؟ فقد شدّد جودفريّ بوايون حصاره على مدينة عسقلان حتى بعد فـــرار الأفضل. يقول ستيفان رانسيمان إنّ: "أهل مدينة عسقلان قد تنبّهوا إلى خطـــورة الحصــــار الـــذي فرضه الصليبيّون عليهم، وخشوا أن يقعوا في أيدي الصليبيّين فيجري علـــيهم مـــا جـــرى علـــى المسلمين في المدن التي استولى عليها الصليبيّون من قبلُ، خاصّة المذابح وأعمال السلب والنهـــب التي أحدثها الصليبيّون في مدينة بيت المقدس[٣]، لذلك أرسل سكان المدينة إلى جودفري يخبرونـــه برغبتهم في تسليم المدينة لريمون الصنجيليّ؛ لِما نما إلى أسماعهم عن موقفه مـــن بعـــض الـــذين أذعنوا له عند بيت المقدس في عدم ميله إلى سفك الدماء كبقيّة القادة الصليبيّين"[٤].

وكان أنّ وافق ريموند الصنجيليّ على مطلب سكان مدينة عسقلان في تسليمها له، مقابـــل سلامة أرواحهم وحرّياتهم وأعراضهم. لكنّ جودفري خشي أن يلجأ ريموند إلى إنشاء إمارة لنفسه على شاطىء فلسطين في مواجهة بيت المقدس، ممّا يحرم مملكة بيت المقدس الناشئة من شواطئها الطبيعيّة على البحر، ومن ثَمّ يقطع الصّلة بينها وبين الغرب، لذلك طلب من ريموند أن يتخلّى عن

١- المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الخطط المقريزيّة، ج٢، ص١٧١. الشارتيري، فوشيه، تاريخ الحملة إلى القـــدس، ص٧٩.

٢- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٧.

٣- رنسيمان، ستيف، تاريخ الحروب الصليبيّة، (جزأين)، ترجمة: د. السيد الباز العريني، جامعة القـــاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص٤١٩، وسيشار إليه لاحقًا: رنسيمان، تاريخ.

٤- المرجع نفسه، ص٤١٩-٤٢٠.

عسقلان؛ لأنها ستكون تابعة لبيت المقدس، فاستاء ريموند الصنجيليّ وفضّل أن تبقى عسقلان بيد المسلمين على أن يستولي عليها جودفري[١]. وعلى إثر هذا الخلاف بين جودفري وريموند الصنجيليّ، انسحب ريموند ومن كان معه من مدينة عسقلان، ووجد سكان عسقلان بهذا الخلاف فرصة للثبات والصمود بوجه قوّات جودفري، الذي وجد نفسه وحيدًا أمام عسقلان، التي اشتدّ أهلها في المقاومة، فاضطرّ إلى أن ينسحب بدوره من أمامها[٢].

وهكذا لم تُسلّم مدينة عسقلان للصليبيّين، وظلّت بأيدي الفاطميّين، إلا أنّ بعض المصادر قد أشارت إلى خروج جودفري وقوّاته الصليبيّة من مدينة عسقلان وفكّ حصارها، بعقد اتفاقيّة بينه وبين سكّانها؛ إذ دفع هؤلاء السكان بموجب هذه الاتفاقيّة إتاوة ماليّة لجودفري. يقول ابن الأثير :"إنّ الصليبيّين لم يتخلّوا عن عسقلان إلا بعد أن بذل لهم أهلها قطيعة اثني عشر ألف دينار، وقيل عشرين ألف دينار، ثمّ عادوا إلى القدس، والله أعلم"[٣]. إلا أنّ ابن القلانسيّ يذكر أنّ جودفري لم يتمكّن من الحصول على هذه الأموال وغادر المدينة[٤].

ويقول مصطفى العسقلانيّ حول انسحاب جودفري من مدينة عسقلان: "إنّ انسحابه منها وعدم اقتحامه لها لم يقترن بدفع الإتاوة، بل يكمن في خوفه من أن يفوز بها ريموند الصنجيليّ، ويتمكّن من إنشاء إمارة له على الساحل تناوىء مملكة بيت المقدس، وتعزّز من قوّة ريموند العسكريّة. ويبدو أنّ جودفري قد فطن إلى هذا وتنبّه إلى إمكانيّة استغلال عسقلان في قطع الصّلة

١- عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج١، ص٢٤٨. رنسيمان، المرجع نفسه، ج١، ص٤٢٠.
٢- المرجع نفسه، ص٢٥٠.
٣- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٨٦.
٤- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٧.

بين بيت المقدس والغرب الأوروبيّ، فآثر بقاء عسقلان في أيدي المسلمين على استيلاء ريموند عليها"[١].

تأسيسًا على ما سلف، نخلص إلى أن الصليبيّين استطاعوا حصار مدينة عسقلان، وتمكّنوا من إلحاق هزيمة ساحقة بقوّات الأفضل، إلا أنّ سكان عسقلان على الرّغم من هزيمة قوّات الأفضل وأثرها المعنوي فيهم، قد قاوموا القوات الصليبيّة التي فرضت الحصار عليهم. ونتيجة الخلاف الذي أُشير إليه سابقًا بين جودفري وريموند الصنجيليّ، لم تسقط عسقلان بأيدي الصليبيّين، واضطرّ جودفري إلى ترك المدينة والعودة إلى بيت المقدس في (٢٣ رمضان ٤٩٢هـ/ ١٣ أغسطس ١٠٩٩م)[٢]؛ وبذا تنتهي معركة عسقلان لتبقى المدينة بيد الفاطميّين.

وبعد هزيمة الأفضل في معركة عسقلان، عاد إلى القاهرة ومكث فيها عامين، وبدأ يعدّ العدّة من أجل الثأر لهزيمته أمام الصليبيّين، واتخذ مجدّدًا مدينة عسقلان قاعدة عسكريّة له؛ لقدرتها التحصينيّة والسيطرة البحريّة المصريّة على ساحلها[٣]. ولكن من جانب آخرَ أخذت مملكة بيت المقدس الصليبيّة تبسط سلطتها ونفوذها على التراب الفلسطينيّ بأكمله، ودأب الصليبيّون على تحصين بعض المناطق التي سيطروا عليها، خصوصًا المناطق الساحليّة، من مثل: أرسوف([٤])،

---

[١]- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص٥٩-٦٠. انظر أيضًا: سعيد عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٢٤٩.

[٢]- ابن الاثير، الكامل، ج١٠، ص٢٨٦. رنسيمان، ستيف، تاريخ الحروب الصليبية،ج١، ص٤١٩.

[٣]- رنسيمان، ستيف، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج١، ص٤٥٤.

[٤]- مدينة عريقة في فلسطين، تقع على بعد ثلاثة فراسخ (ثلاثة أميال ١٦,٧٣٢ كم) جنوب قيسارية وكانت تدعى باسم أبو للونيا Apollonia في العهد اليوناني ولعل ذلك يرجع إلى تأثير الثقافة الهيلينية، أما الاسم أرسوف فيرجع في أصله إلى الإله السامي (رسف) والذي كان نظيراً للإله اليوناني (أبوللو) وكانت مدينة أرسوف عند الفتح العربي تسمى باسم صوزوسا Sozusa في العصر الفرنجي الصليبي كانت إمارة إقطاعية منحها الملك الصليبي لأحد أتباعه. وبعد ذلك سيطر عليها فرسان الاستبارية وكانوا يدافعون لسيدها الإقطاعي وورثته مبلغ ٣٨ بيزنط ذهبي في السنة مقابل التمتع بخيرات أرسوف. أنظر الفيتري، يعقوب، تاريخ بيت المقدس، ص٣١.

ويافا؛ ففي يافا عمل الصليبيّون في سنة (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) على تحصين استحكامات المدينة وتقويتها، وسيطرت هذه الاستحكامات على شاطىء فلسطين بأكمله، كما فاقت قوّتها مينائي عسقلان وعكا التابعين للدولة الفاطميّة[١]. وقد أشار ابن الأثير إلى التحصينات التي قام فيها جودفري في يافا؛ حيث قال: "عَمّر مدينة يافا وسلّمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكري (تنكره)"[٢].

وكان تحصين يافا يشكّل تهديدًا مباشرًا للفاطميين، ولمدنهم في جنوبيّ فلسطين، من خلال انتهاكات الصليبيّين وهجماتهم المستمرّة، وفي هذا الصّدد يقول سعيد عاشور: "بدأ اليأس يدبّ في قلوب أهل المدن الإسلاميّة في فلسطين بعد أن تأكدوا من عجز الدولة الفاطميّة عن حمايتهم، فلم تمضِ مدّة طويلة حتى أعلن حكّام عسقلان وقيساريّة وعكا تبعيّتهم لدولة الفرنجة"[٣]. وعُقدت بين المسلمين والصليبيّين بعض الاتفاقيات السياسيّة والتجاريّة التي جلبت قسطًا من الهدوء والاستقرار، التي حرّكت عجلة التبادل التجاريّ، خصوصًا للصليبيين الذين انتعشت تجارتهم معَ الجمهوريّات الإيطاليّة صاحبة التفوّق البحريّ في البحر المتوسط آنذاك. وكذا يقول رنسيمان: "فأخذ عرب عسقلان يذهبون في أمان إلى مناطق الفرنجة للمتاجرة، في حين كان المسيحيون يقصدون عسقلانَ لقضاء مطالبهم من غير خوف"[٤].

عسقلانُ وحملات الأفضل بن بدر الجمالي ضدّ الصليبيّين

هاجم بلدوين الأول مدينة أرسوف، التي كانت تابعة للدولة الفاطميّة آنذاك؛ حيث لم تستطع هذه المدينة الصمود بوجه قوّاته، فتمكّن من الاستيلاء عليها وعلى مينائها في أواخر سنة

١- عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ص٢٥٥.

٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٩٤.

٣- عاشور، سعيد، الحركة الصليبية، ص٢٥٦.

٤- رنسيمان، ستيف، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج١، ص٤٢٨.

(٤٩٤هـ/١١٠١م)[١]. ومن ثَمّ توجّه إلى مدينة قيساريّة، وكانت أيضًا تابعة للدولة الفاطميّة في مصرَ، فاستولى عليها بالقوّة في (١٦ رجب ٤٩٤هـ/ ١٧ مايو ١١٠١م)[٢]. وقد أشار الشارتري إلى كيفيّة سقوط مدينة قيساريّة، وذكر الأعمال الوحشيّة التي ارتكبها الصليبيّون بحقّ أهلها؛ حيث قال: "رأيتُ كثيرًا من جثث الشرقيين الذين قُتلوا هناك وقد جمعت في كومة وأحرقت بالنار، وقد أزعجتنا كثيرًا رائحتها المتعفنة، وتمّ حرق هؤلاء التعساء للعثور على الدنانير الذهبيّة التي ابتلعوها، وخبّأها آخرون في أفواههم قرب لثتهم؛ كي لا يستولي عليها الفرنجة على ما هو حقّ لهم"[٣].

وعلى إثر هذه الأحداث؛ أي احتلال مدينتي: أرسوف، وقيساريّة([٤])، والأعمال الإجراميّة التي فعلها الصليبيّون، استغاث سكان فلسطين بالفاطميّين في مصرَ، فلم يستطع الفاطميّون الوقوف مكتوفي الأيدي إزاء ذلك، فكانت الحملة الفاطميّة الأولى على الشام سنة (٤٩٤هـ/١١٠١م)، وتسمّى بحملة الرّملة الأولى؛ حيث أرسل الوزير الأفضل هذه الحملة إلى فلسطين بقيادة المملوك سعد الدولة القواسيّ، الذي كان حاكمًا لبيروت من قِبل الفاطميّين[٥].

وقد تجمّعت هذه الحملة في مدينة عسقلان، التي أصبحت مركز انطلاق جميع الحملات الفاطميّة، التي خرجت ضدّ الصليبيّين في فلسطين، إلا أنّ سعد الدولة القواسي لم يتحرّك ضدّ

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٩. المقريزي، اتعاظ الحنفا،ج٣،ص٢٦.

[٢]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٩. المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص٢٦. ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٢٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٦٧.

[٣]- فوشيه، الشارتري، تاريخ الحملة على القدس، ص١١٥.

[٤] -كانت إحدى المدن الفلسطينية الشهيرة وجعلها الرومان عاصمة لفلسطين الأولى وعرفت في بداية أمرها باسم مدينة دور كما حملت اسم آخر هو برج استراتو وقام هيرود بإعادة بنائها وسماها قيسارية وهي تبعد عن عكا بحوالي ٢١ ميلاد (سبعة فراسخ) وتشتهر قيسارية بأرضها الخصبة ومياهها الغزيرة وحاصلاتها الوفيرة وخاصة النخيل والحمضيات وقد شيدت حولها الأسوار القوية لحمايتها وكان لهعا باب حديدي ومسجدها الجامع جميل وهو يقع في أحسن بقعة في المدينة وقد دمرت على يد الظاهر بيبرس سنة ٦٢٣ هـ-١٢٦٥م ولم يبق منها سوى آثار. أنظر الفيتري، يعقوب، تاريخ بيت المقدس، ص٣١-٣٢.

[٥]- ابن القلانسي، ذيل، ص١٤٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، أحداث سنة ٤٩٦هـ، ص٣٠٨. ابن ميسر المنتقى من اخبار مصر، ص٦٨.

الصليبيّين في الوقت نفسه، بل بقي قابعًا في مدينة عسقلان في انتظار أن تأتيَه المساعدات والإمدادات من مصرَ، وهذا ما أتاح لبلدوين الأول جمع قوّاته وإتمام تحصين المدن والقلاع التي يهدّدها الفاطميّون[١].

وفي (٧ ذي القعدة ٤٩٤هـ/ ٤ سبتمبر ١١٠١م)، تحرّك القائد سعد الدولة القواسيّ من مدينة عسقلان باتجاه مدينة الرّملة، فعلم بلدوين بحملة الفاطميّين عليه، فعقد مجلسًا عسكريًّا في يافا، واتّخذ القرار بمهاجمة قوّات سعد الدولة وهي في طريقها إلى الرّملة في أرض سهليّة، وعلق الشارتري ذلك بقوله: "من الأفضل لنا أن نحارب في السهل المنبسط لأنّ أعداءنا إذا ما هُزموا بعون الله فسيطول فرارهم وسوف يصابون بخسائر أكثر في الفرار ممّا لو حاربناهم قرب أسوارهم"[٢]. سار بلدوين باتجاه مدينة الرّملة، وتشير المصادر إلى أن عدد أفراد قوّات سعد الدولة القواسيّ كانت تفوق عدد قوّات بلدوين الصليبيّة؛ حيث قُدرت قوّات بلدوين العسكريّة بنحو مائتين وستين فارسًا، وتسعمائة من المشاة، بينما بلغ عدد المسلمين أحدَ عشرَ ألف فارس ونحو واحد وعشرين ألفًا من المشاة[٣]. إلا أنّ ابن الأثير يذكر أنّ عدد الصليبيّين كان يقدّر بنحو سبعمائة فارس[٤]، لكنّ ابن ميسر يورد عددًا مختلفًا عن القوّات الصليبيّة؛ إذ يقول: "فنهض له من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل"[٥].

١- فوشيه، الشارتري، تاريخ الحملة على القدس، ص١١٦. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج١، ص١١٦. سعيد عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٢٨٥.

٢- فوشيه، الشارتري، المصدر السابق، ص١١٧.

٣- المقريزي، اتعاظ الحنفا في تاريخ الأئمة الفاطميّين الخلفا، ج٣، ص٢٦. انظر أيضًا: فوشيه الشارتري، ص١١٦.

٤- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣١٢.

٥- ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص٦٨.

وفي صباح (١١ ذي القعدة ٤٩٤هـ/ ٧ سبتمبر ١١٠١م)، جرت معركة بين كلا الطرفين، تضاربت الأنباء واختلفت الروايات بين المصادر في نتيجتها؛ حيث يشير ابن تغري بردي إلى هزيمة الصليبيّين في هذه المعركة ورحيلهم إلى مدينة أرسوف[١]، بينما لا يتّفق معَه المقريزيّ؛ إذ يقول: إنّ قوات سعد الدولة انسحبت من المعركة بعد مقتله[٢]، لكنّ ابن القلانسي يقول: "ونهض اليه الافرنج بالف فارس وعشر آلاف راجل، والتقى الفريقان، فكسرت ميمنة المسلمين وميسرتهم وتبعوهم. وبقي سعد الدولة المقدم في نفر يسير من عسكره في القلب. فحمل الافرنج عليه وطلب الثبات فعاجلة القضاء، وكبا به جواده وسقط عنه الى الارض، فاستشهد مكانه-رحمة الله- ومضى شهيدا مأجورا. وعاد المسلمون على الافرنج وتذامروا عليهم، وبذلوا النفوس في الكرة اليهم، فهزموهم الى يافا، وقتلوا منهم واسروا وغنموا وكانت العقبة الحسنة لهم ولم يفقد لهم الا نفر يسير منهم"[٣].

لكنّ الشارتري يذكر أنّ المعركة كانت على يومين متتاليين، ففي اليوم الأول يقول: "إنّ جيشنا انتصر في المقدّمة بينما كان يعاني الهزيمة في المؤخّرة، فهناك وقع المسيحيّون قتلى لكنّهم قهروا الشرقيّين في المقدّمة ولاحقناهم إلى أبواب عسقلان، بينما ركب بعضهم على الفور إلى يافا بعد أن قتلوا بعض رجالنا، وهكذا لم يعرف أحد مصير المعركة في ذلك اليوم"[٤]. وفي اليوم الثاني يقول الشارتري: "وعندما رأوا أنهم لم ينجزوا شيئًا بدأوا بالانسحاب إلى عسقلان، ومن لم يملك

١- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٥٢. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٠.

٢- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦-٢٧.

٣- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٠، انظر ايضا، ابن ميسر، المنتقى من اخبار مصر، ص٦٨.

٤- فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١١٩.

منهم فرسًا سريعة قطعت رأسه عاجلاً، ولكنّ الفرنجة لم يلاحقوا العرب لأنّهم منهكون تعبًا، وقد أصيب الكثيرون منهم بجراح في المعركة. وهكذا فرّ هؤلاء بينما مضينا إلى يافا مبتهجين"[١].

ولكنّ ابن الأثير يؤكّد هزيمة المسلمين في هذه المعركة؛ حيث يقول إنّ الباقين منهم قد فرّوا تجاه عسقلان بعد أن سقط قائد الحملة سعد الدولة القواسيّ صريعًا في المعركة[٢]. وقد انتصر الصليبيّون بفضل تماسكهم، ووحدة صفوفهم، وإحكام خطّتهم، وقتل عدد كبير من المسلمين، وطارد الصليبيّون المسلمين حتى أسوار عسقلان. في حين عاد بلدوين لتوزيع الغنائم وما أكثرها؛ إذ ترك المسلمون خلفهم كلّ ما معهم من سلاح ومؤن، وعدد وآلات، فَمَلَكَ الفرنج جميع ما لهم[٣].

يتبيّن من خلال سير هذه المعركة ونتائجها، أنّ مدينة عسقلان بقيت تحت سلطة المسلمين الفاطميّين، وأنها القاعدة الأساسيّة والوحيدة التي كان الفاطميّون ينطلقون منها لمقارعة الصليبيّين؛ فقد أشارت جميع المصادر والمراجع إلى عودة المسلمين بعد هزيمتهم في الحرب للتحصّن فيها؛ وذلك يعود إلى طبيعة هذه المدينة كقاعدة عسكريّة، وأنها محكمة التحصين، وانّ ميناءها كان حلقة الوصل بين مصرَ وفلسطين؛ لنقل المؤن والإمدادات العسكريّة من القاهرة بهدف مواجهة الحروب الصليبيّة.

١- المرجع نفسه، ص١٢٠.

٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣١٣، أحداث سنة ٤٩٤هـ.

٣- رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج١، ص٤٣٤. انظر أيضًا: سعيد عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٢٨٦.

الحملة الفاطميّة الثانية سنة (٤٩٥هـ/١١٠٢م)

كانت الحملة الفاطميّة الثانية بعد عام واحد من خسارة المسلمين في معركة الرّملة الأولى سنة (٤٩٤هـ/١١٠١م)، وسمّيت أيضًا بموقعة الرّملة الثانية؛ حيث إنّ الوزير الفاطميّ الأفضل لم يستطع تحمّل الهزيمة الأولى في الرّملة أمام الصليبيّين، فأسرع إلى إعداد حملة أخرى كبيرة، وكانت مدينة عسقلان مجدّدًا هي القاعدة التي تجمّعت فيها هذه الحملة، التي بلغ تعدادها نحو عشرين ألف رجل، وذلك في (٨ شعبان ٤٩٥هـ/١٧ مايو ١١٠٢م)، تحت قيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل.[١]

ووقعت معركة الرّملة الثانية في (٨ شعبان ٤٩٥هـ/ ٢٧ مايو ١١٠٢م)؛ حيث وصلت القوّات الفاطميّة إلى مدينة الرّملة، وحاولت الوصول إلى برج مدينة الرّملة غيرَ أنها وجدت خمسين فارسًا صليبيًّا كانوا يتولّون حراسة المدينة والدفاع عنها، تمكّنوا من حرمان القوّات الفاطميّة من الوصول إلى برج المدينة وتدميره[٢]. ولمّا لم يستطع الفاطميّون تدمير البرج اختاروا الكنيسة وشدّدوا الحصار حولها، وحينما أحسّ أسقف المدينة بالخطر بعث برسالة إلى بلدوين الأول الذي كان في يافا، يستحثّه على التحرّك إلى مدينة الرّملة لإنقاذها من الفاطميّين، وما إنْ علم بلدوين بذلك حتى سار إليها، وكان يصطحب معه في هذه المعركة نحو خمسمائة فارس أو ربما سبعمائة[٣]، لكنّ الشارتري يقول: إنّ عدد الصليبيّين في هذه المعركة لم يكن يتجاوز المائتين[٤].

---

[١]- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٤١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٢٦.

[٢]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج١٠، ص٣٢٧. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٤١.

[٣]- المصدر نفسه، ج١٠، ص٣٢٧.

[٤]- فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٢٣.

والتقى الطرفان في السهل الواقع بين يازور والرّملة، وتمكّن الفاطميّون في هذه المرّة من إلحاق الهزيمة بجيش بلدوين الذي تؤكّد جميع المصادر أنّه كان صغير العدد، ممّا أدى إلى مقتل الكثير منهم، بينما صمد بلدوين بعض الوقت، حتى تأكّد من أنّ المعركة خاسرة فهرب ناحية مدينة الرّملة، فانهزم الصليبيّون وقتل منهم مقتلة عظيمة(١).

وعلى إثر تسلّل بلدوين الأول من الرّملة المحاصرة بعد هذه المعركة وفراره إلى يافا، لحقت القوّات الفاطميّة به إلى يافا وحاصرته. وفي أثناء الحصار وصلت سفن الإمدادات إلى بلدوين من الجند والحجّاج الإنجليز، فحصل بلدوين على ما يلزمه من معونة ومؤن، ثمّ إنه خرج على رأس قوّاته لمهاجمة الفاطميّين المحاصِرين للمدينة، ونجح الصليبيّون بفضل تنظيمهم في إلحاق هزيمة بالفاطميّين الذين ولوّا الأدبار إلى عسقلان(٢). ويذكر ابن الأثير أنّ سبب هزيمة الفاطميّين في حصار يافا يعود إلى خلاف قد دبّ بين أمراء الجيش الفاطميّ عقب النصر الذي حقّقوه على الصليبيّين في الرّملة، فرأى فريق منهم الاتجاه إلى يافا، وبينما هم في هذا الخلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كبير في البحر قاصدين زيارة بيت المقدس(٣).

يقول ابن ميسر مُرْجِئًا هذه المعركة إلى أحداث سنة (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م وليس ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م)(٤) إنّ الإمدادات التي وصلت إلى بلدوين عن طريق البحر أمكنت الصليبيّين من هزيمة

١- ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٢٧. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٤١. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج١، ص٤٣٧. فوشيه الشارتري، ص١٢٣.

٢- ابن الاثير، الكامل، ج١٠، ص٣٤٨ فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٥٤. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ص٤٣٧. سعيد عاشور، الحركة الصليبيّة، ج١، ص٢٨٤.

٣- ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٣٤٨.

٤- انظر: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص٧٤.

الفاطميّين ومحاصرة مدينة عسقلان[١]. ويضيف ابن خلدون إلى ذلك أنّ بلدوين نجح في اقتحام مدينة عسقلان والدخول إليها، بعد انسحاب القائد الفاطميّ شرف المعالي والفاطميّين عائدين إلى مصر[٢]. لكنّ ابن خلدون انفرد بهذه الرواية حول اقتحام بلدوين لمدينة عسقلان؛ حيث يعلق العسقلانيّ على هذه الرواية قائلاً: "إنّها عارية عن الحقيقة بعيدة كلّ البعد عن الواقع، وليس ثَمّ ما يسندها أو يعزّزها من الشواهد أو القرائن، فضلاً عن أنّ مدينة عسقلان ساهمت بعد ذلك بقليل في أحداث الحرب بين الفاطميّين والصليبيّين، ممّا يؤكّد أنّ الصليبيّين لم يتمكّنوا من اقتحامها كما يزعم ابن خلدون"[٣].

ضاعفت الهزيمة الثانية للفاطميّين من إصرار الأفضل على الانتقام؛ فأرسل في (٢٩ ربيع الآخرة ٤٩٧هـ/ ١ يناير ١١٠٣م) حملتين عسكريّتين؛ بحريّة وبريّة، على أن تسير البحريّة مباشرة إلى يافا، بينما تسير البريّة للتجمّع والحشد في مدينة عسقلان[٤]. وعندما وصل ابن قادوس قائد الحملة البحريّة إلى يافا، أرسل إلى تاج العجم في عسقلان يطلب منه المبادرة بإرسال القوّات البريّة لمهاجمة الصليبيّين، ولكنّ تاج العجم اعتذر عن ذلك[٥]. ولمّا علم الأفضل بما فعل حاكم عسقلان تاج العجم، أرسل قائدًا آخرَ يُدعى جمال الملك، وعيّنه بدلاً منه حاكمًا على عسقلان[٦]. إلا أنّ هذه الحملة باءت بالفشل في النهاية، واستمرّت مدينة عسقلان تؤدّي دورها الحربيّ والعسكريّ

١- المصدر نفسه، ص٧٤.

٢- ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبدالرحمن بن محمّد الإشبيلي التونسي القاهري المالكي (ت ٧٣٢هـ- ٨٠٨هـ)، العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المعروف بـ تاريخ ابن خلدون، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدوليّة، عمّان- الأردنّ، د.ت، ص١٣٦٠، وسيشار إليه لاحقًا: ابن خلدون، تاريخ.

٣- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص٧٤.

٤- ابن القلانسي، ذيل، ص١٤٨. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٦٥. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص٣٥.

٥- ابن القلانسي، المصدر نفسه، ص١٤٨ المقريزي، اتعاظ الحنفا في تاريخ الأئمة الفاطميّين الخلفا، ج٣، ص٣٥. ابن ميسر، المنتقى من اخبار مصر، ص٧٥.

٦- ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٣٦٥.

في مقارعة الاحتلال الصليبيّ لفلسطينَ، من غيرِ أن يستطيع الصليبيّون احتلالها أو إسقاطها حتى هذه المرحلة.

وفي الحملة الثالثة في (ذي الحجّة ٤٩٨هـ/ أغسطس ١١٠٥ م)، التي سُمّيت بحملة الرّملة الثالثة، كانت عسقلان قاعدة انطلاق قوّات هذه الحملة[١] ضدّ الصليبيّين على الرّغم من فشل هذه الحملة في نهاية المطاف. وفي عام (٤٩٩هـ/١١٠٦م) أيضًا توجّهت حامية عسقلان لمشاركة حاميات صور وصيدا وبيروت في هجوم عسكريّ ضدّ بلدوين الأول[٢]. وأظهرت مدينة عسقلان نشاطًا عسكريًّا آخرَ ضدّ الصليبيّين في (ربيع الأول ٥٠٠هـ/ أكتوبر ١١٠٧م)، عندما حاولت اغتنام فرصة خروج بلدوين الأول إلى طبريّا، فأرسل أهل عسقلان إلى أهل صيدا وصور وبيروت يطلبون المساعدة للهجوم على الصليبيّين ومباغتة بلدوين[٣].

وهكذا أصبحت مدينة عسقلان مصدرَ قلق وازعاج ومتاعب لمملكة بيت المقدس الصليبيّة، من خلال الحملات العسكريّة، وعمليّات المداهمة، ونصب الكمائن للقوّات الصليبيّة. حيث يصف الصوري ذلك قائلا: " ازدادت غطرسة اهالي مدينة عسقلان، الان وشجاعتهم بسبب نجاحهم المستمر، وكانوا يجتاحون المنطقة باسرها دون ضابط."[٤] ويصف الشارتري أيضا ذلك: "في شهر تشرين من السنة نفسها؛ أي (١١٠٧م)، نصب رجال عسقلان؛ إذ اغتلت فيهم وحشيّتهم المعتادة، الكمائن في سفوح الجبال بين الرّملة والقدس، وكان هدفهم أن ينقضوا ويقبضوا على جماعة من

١- المصدر نفسه، ج١٠، ص٣٦٨.

٢- ابن القلانسي، ذيل، ص١٥١. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٧. فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٣٩-١٤٠. سعيد عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٢٩٨.

٣- سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص٢٩٨-٢٩٩.

٤- الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٨٢.

قومنا علموا بأنّهم أوشكوا على الذهاب من يافا[١] إلى القدس"[٢]. وهذا ما جعل بلدوين الأول يفكّر على نحو جدّي في وضع حدّ لهذه الأعمال من خلال الاستيلاء على مدينة عسقلان، فتحرّك من طبريّا[٣] باتجاه عسقلان بصحبة خمسين من الفرسان وستة آلاف من المشاة لمهاجمتها، لكنّ حملته باءت بالفشل بسبب حصانة المدينة، فقرّر الرّحيل عنها[٤].

اضطرابات عسقلان في ظلّ ولاية شمس الخلافة

تولّى شمس الخلافة حكم عسقلان في عام(٥٠٤هـ/١١١٠م)، وعندما وصل النبأ إلى بلدوين الأول أجرى مراسلات معَه، يطالبه فيها بتسليم مدينة عسقلان، وأن تدخل تحت حماية الصليبيّين[٥]. ويذكر المقريزي أنّ شمس الخلافة أرسل رسالة إلى بلدوين الأول يطلب منه أموالاً مقابل تسليمه عسقلان[٦]. وهذا يعني فعلاً أنّ شمس الخلافة قد وافق على تسليم المدينة للصليبيّين.

---

[١] – يافا شيدت المدينة على التلة القائمة أمام الميناء ويافا إحدى المدن العربية الكنعانية القديمة واسمها تحريف لكلمة يافي yafi الكنعانية بمعنى جميل وقد ذكرت المدينة في النقوش المصرية القديمة باسم يابو Yapu ووردت في النقوش آشوري باسم يا آب بو Ya- Ap- pu وسكيت في العهد اليوناني فقد تعرضت يافا للتدمير مرتين على يد الجيش الروماني وأعيد بناؤها بأمر الإمبراطور الروماني فاسبسيانوس وقد زار المقدسي البشاري مدينة يافا ووصفها بأنها تقع على ساحل البحر ولكنها بلدة صغيرة رغم أنها كانت مركز تجارة فلسطيني وميناء الرملة يحميها سور منيع له أبواب حديدية على البر والبحر مسجدها جميل. أنظر: الفيتري، يعقوب، تاريخ بيت المقدس، ص٢٧.

[٢]– الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص١٤٢.

[٣] - طبريا: هي إحدى المدن الفلسطينية الشهيرة ويرجع تأسيسها إلى أيام الكنعانيين وقد عرفت بأسماء مختلفة منها رقة الكنعانية بمعنى الأرض المنبسطة الواقعة إلى جانب الوادي وجمعها رقاق بمعنى الأرض اللينة التراب أما اسم طبرية فهو نسبة إلى الإمبراطور الروماني طيباريوس الذي عهد إلى هيرود انتباس بإعادة بناء المدينة مكان المباني الكنعانية القديمة. أنظر: الفيتري، يعقوب، تاريخ بين المقدس، ص٢٧.

[٤]– عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٢٩٩.

[٥]– ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٢. ابن الاثير، الكامل، ج١٠، ص٤٨٠. المقريزي، اتعاظ الحنفا في تاريخ الأئمة الفاطميّين الخلفا، ج٣، ص٤٦.

[٦]– المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٦.

ويذكر ابن القلانسيّ أنّ سبب موافقة شمس الخلافة على تسليم عسقلان هــو رغبتــه فــي التجارة من المحاربة ومال الى الموادعة والمسالمة، وايمان السابلة[١]. ويؤكّد ابن الأثير: إنّ شمس الخلافة قد أرسل إلى بلدوين الأول مالاً وعروضًا، طالبًا منه عقد اتفاقيّة دفاعيّة بين الطرفين مــعَ استعداده دفع الجزية للصليبيّين[٢]. لكنّ ابن الأثير يعلّل موقف شمس الخلافة هــذا بســبب نــزع الأفضل بعض الإقطاعيّات من ممتلكات شمس الخلافة في مصرَ ومنحها للآخرين أو الاحتفاظ بها لنفسه[٣]. ويؤكّد ذلك صاحب مرآة الزمان؛ حيث يقول: "إنّ نزع الأفضل الإقطاعيّات قــد أوغــر صدر شمس الخلافة على الأفضل، وأوجد مبررًا للانتقام منه بإعلان تسليم مدينة عسقلان لبلــدوين الأول، ووجد ذلك استجابة من بلدوين الأول الذي وعده بالحصول على تعــويض مناســب عــن المدينة"[٤].

وعندما علم الأفضل بما فعله شمس الخلافة، بسعيه إلى تسليم مدينة عسقلان، شعر بخطورة الموقف في عسقلان، وأهميّة هذه المدينة بالنسبة إلى الفاطميّين، كقاعدة حربيّــة عســكريّة بوجــه الصليبيّين، فأرسل في (شوال ٥٠٤هــ/ إبريل ١١١٠م) حملة عسكريّة من مصرَ إلــى عســقلان بحجّة محاربة الصليبيّين، أوصى قائدها بعزل شمس الخلافة عن ولاية عسقلان، وأن يتولّى مكانه حكم المدينة، من غير أن يشعر شمس الخلافة بذلك[٥]. وعندما وصلت قوّات الحملة إلى عســقلان

١- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٢.

٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٤٨٠، أحداث سنة ٥٠٤هــ.

٣- ابن الأثير، المصدر نفسه، ج١٠، ص٤٨١، أحداث سنة ٥٠٤هــ.

٤- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزوغلي بن عبد الله، (ت ٦٥٤ هــ)، مرآة الزمان في تــاريخ الأعيــان، د. ت، مطبعــة مجلّــة دائــرة المعارف العثمانيّة، الهند، حيدر آباد، ط١، ١٩٢١م، ج٨، ص٣٥، وسيشار إليه لاحقًا: ابن الجوزي، مرآة.

٥- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٤٨١. ابن الجوزي، مرأة الزمان، ج٨، ص٣٥-٣٦. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٦.

شعر شمس الخلافة بالخطر الذي يحيق به، فأعلن العصيان ورفض فتح البوابة لها، كما رفض مقابلة قائدها، وطردَ الفاطميّين ومن يواليهم في عسقلان[١].

ويذكر ابن القلانسيّ أنّ شمس الخلافة اتصل بعد ذلك بالملك بلدوين الأول، يستحثّه على سرعة إنجاده وإمداده بالمؤن والزّاد، وتنفيذ ما وعد به من تعويض مناسب مقابل تسليمه المدينة[٢]. وهذا ما زاد من مخاوف الأفضل، لذلك قرّر تغيير أسلوبه في التعامل معَ هذه المحنة، وذلك بالتقرّب من شمس الخلافة وملاينته، فأرسل إليه من جديد يعلن له صدق نواياه في إبقائه حاكمًا على المدينة، وأعاد كلّ ما صُودر من ممتلكاته وإقطاعاته في مصرَ إليه[٣]؛ لكي يثنيه عن تسليم المدينة للصليبيّين.

لم يطمئن شمس الخلافة لنوايا الأفضل، وأخذ يتشكّك فيمن حوله من العرب، فتنازل عن مدينة عسقلان فجند جنداً من الأرمن[٤]، الأمر الذي أساء إلى مشاعر أهل عسقلان وأثار غضبهم، ممّا دفع جماعة من عرب كتامة إلى التخلّص منه. ونجح هؤلاء في النهاية في قتله ووضع حدّ لحياته ومشروعاته معًا، وكان ذلك في أواخر (ذي الحجة ٥٠٤هـ/ يوليو ١١١٠م)، ثمّ إنهم أرسلوا رأسه إلى الأفضل في مصر[٥]، وصفّوا أيضًا أملاكه ونهبوا أمواله[١]. وبعد ذلك أرسلت الدولة الفاطميّة حامية أعادت الأمور إلى نصابها.

١- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٤٨١. انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٣٠٢-٣٠٣.

٢- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٢. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٦-٤٧. انظر: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص١٨٢.

٣- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٨١.

٤- ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٣٨١.

٥- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٣-١٧٤. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٨٢. انظر: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٨، ص٢٠٢.

وهكذا نجت عسقلان من محنة ومأزق، كادت الوقوع بهما، ونجح الأفضل في نهاية المطاف في إنقاذها والاحتفاظ بها، وقد ظلّت بيد الفاطميّين حتى منتصف (٥٤٨هـ/١١٥٣م)؛ أي حتى سقوطها. يقول سعيد عاشور: "إنّ بلدوين عندما سمع بخبر تلك الثورة ضدّ شمس الخلافة أسرع إلى عسقلان، ولكن بعد أن كان كلّ شيء قد انتهى، فلم يسعه سوى العودة، وبذلك قُدّر لعسقلان أن تظلّ أربعين سنة أخرى شوكة في حلق الصليبيّين[٢].

حصارُ عسقلان وسقوطها بأيدي الصليبيّين (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)

استمرّت مدينة عسقلان، على مدى ما يقارب الأربعين سنة بعد مقتل شمس الخلافة، تقارع قوّات مملكة بيت المقدس الصليبيّة وتداهمها، وهذا ما أرهق القوّات الصليبيّة وأتعبها خلال هذه المدّة، ممّا جعل الصليبيّين يفكّرون في كيفيّة التخلّص من مدينة عسقلان، وحاميتها الفاطميّة، بعد أن تمّت لهم السيطرة شبه الكاملة على مدن فلسطين، باستثناء عسقلان وغزّة.

ومن الخطوات التي اتخذها الصليبيّون إزاء ذلك، بناء ملك مملكة بيت المقدس فولك الإنجويّ (٥٢٦-٥٣٩هـ/١١٣١- ١١٤٤م)، بعض القلاع والحصون الصليبيّة لا سيّما جهة عسقلان[٣]؛ إذ بنى في المدّة ما بين (٥٢٨-٥٣٧هـ/١١٣٢-١١٤٢م) قلاعًا عدّة؛ الأولى: قلعة آرنولد، وبُنيت قرب بيت نوبا شرقيّ مدينة الرّملة، وعلى بعد ثلاثة عشر كيلومترًا منها، وذلك في

١- انظر: مصطفى العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص٨٨.

٢- سعيد عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٣٠٢-٣٠٣.

٣- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ج٢، ص٧٢٧.

عام (٥٢٨هـ/١١٣٣م)؛ وكان الهدف منها تأمين طريق الحُجّاج المسيحيّين الذاهبين من يافا إلى بيت المقدس من هجمات حامية عسقلان[١].

أمّا القلعة الثانية فشيّدت عام (٥٣٠هـ/١١٣٦م) في بيت جبرين، وتسيطر على الطريق الممتدّ من عسقلان إلى حبرون (الخليل)[٢].

وأمّا الثالثة فشُيّدت في يبني[٣] سنة (٥٣٦هـ/١١٤١م)[٤]، وقد اختير هذا الموقع لوفرة المياه به وسيطرته على ملتقى الطرق من عسقلان إلى يافا، ومن عسقلان إلى الرّملة[٥]. وبُنيت هذه القلعة لتضييق الخناق على عسقلان، ولقطع الطريق بينها وبين يافا على محاربيها.

وأمّا القلعة الرابعة فبُنيت إلى الجنوب من يبني لمراقبة الطريق من عسقلان إلى بيت المقدس، وشُيّدت في عام (٥٣٦هـ/١١٤٢م) على التل المعروف باسم تل الصافية، وسُمّيت بحصن بلانشرد، وزُوّدت بأربعة أبراج، يُراقب بوساطتها ما يجري في عسقلان للسيطرة على الطريق بينها وبين بيت المقدس[٦].

غيرَ أنّ بناء القلاع والحصون لم يمنع الصليبيّين من محاصرة عسقلان وتضييق الخناق عليها. وقد كانت دولة الخلافة الفاطميّة قد اتخذت إجراءاتٍ دفاعيّةً تحصينيّة في مدينة عسقلان،

١- الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ص٧٢٨. الجندي، جمعة محمّد مصطفى، الاستيطان الصليبيّ في فلسطين (٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٩- ١٢٩١م)، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، مصر، ط٢٠٠٦،١م، ص٢٢٨، وسيشار إليه لاحقًا: الجندي، الاستيطان.

٢- الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٧٢٧.

٣- وتسمّى بالعبريّة يافني. وذكرها الحموي: يبني، بالضمّ ثمّ السكون ونون، وألف مقصور بلفظ الفعل، الذي لم يسمّ فاعله من بنى يبني. بليد قريب الرّملة، فيه قبر صحابي، بعضهم يقول: هو قبر أبي هريرة، وبعضهم يقول: قبر عبدالله بن أبي السرح. انظر الحموي، معجم البلدان، ج٨، ص٤٩٥.

٤- الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٧٢٨. العرينيّ، باز، الشرق الأوسط والحروب الصليبيّة، دار النهضة المصريّة، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٦٣م، ج١، ص٣٧٣.

٥- المرجع نفسه، ج٢، ص٧٢٨.

٦- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٧٢٩. العرينيّ، باز، الشرق الأوسط والحروب الصليبيّة، ج١، ص٣٧٣.

وعملت على تقويتها وتحصينها والمحافظة على نشاط حاميتها ضدّ الصليبيّين[١]. وبقيت العمليّـــات العسكريّة الفاطميّة مستمرّة ضدّ الصليبيّين؛ حيث هجم العسقلانيّون في سنة (٥٣٥هـــــ/١١٤١م)، على الصليبيّين فقطعوا عليهم الطريق بين عسقلان والخليل، واشتبكوا معَ قـــوّات الداويـــة بقيـــادة روبرت دي كروان، وقتلتوا عددًا كبيرًا منهم[٢].

ومعَ اعتلاء بلدوين الثالث (٥٣٩-٥٥٨هـ/ ١١٤٤-١١٦٢م) عرش مملكة بيت المقدس، بدأ يولي اهتمامًا أكبر ممّا أولاه سابقوه من ملوك بيت المقدس، في السيطرة على مدينة عســـقلان، ورأى أنّ تخليصها من سيطرة الفاطميّين هو الحلّ الوحيد للحدّ من هجمات حامية عســـقلان علـــى الصليبيّين، والتخلّص منها [٣].

يقول سعيد عاشور: إنّ ظهور نور الدين محمود[٤] في دمشقَ على المسرح السياسيّ يُعـــدّ من بين العوامل التي جعلت بلدوين الثالث يُسرع للقيام بعمل عسكريّ يضمّن له السيطرة العسكريّة التامّة على عسقلان[٥]؛ بسبب التعاون بين نور الدين والدولة الفاطميّة، ما يعنـــي قيـــام عســـقلان بدورها السالف في مناوأة الصليبيّين، ويجعل مملكة بيت المقدس واقعة بين شقيّ الرحى؛ عســـقلان جنوبًا وبلاد الشام شمالاً[٦]. ولذلك رأى بلدوين الثالث ضرورة الإسراع في السيطرة على عسقلان؛ لإحباط أيّ تعاون ممكن بين نور الدين محمود والفاطميّين.

١- رنسيمان، ستيف، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٣٦٩.

٢ -ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٨٥. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٦٩.

٣- سعيد عاشور، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص٦٤٤. مصطفى العسقلاني، عسقلان دورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٠٦.

٤- كان لنور الدين محمود الدور الواضح والأثر الكبير في التصدّي للصليبيّين في بلاد الشام؛ حيث حكم حلب من ١١٤٦- ١١٧٤م، كما استولى على دمشق وحكمها (١١٥٤-١١٧٤م).

٥-سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٦٤٤.

٦- سعيد عاشور، المصدر السابق، ج٢، ص٦٤٤.

وكانت أولى حملات بلدوين الثالث ضدّ عسقلان عندما توجّه بلدوين الثالث إلى مدينة غزّة في سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)[١]، وكان يعمل على استخدام غزّة وتحصينها وتقوية الأماكن الواقعة بالقرب من عسقلان؛ من أجل التحضير لضرب عسقلان، كما عمل بلدوين الثالث على عقد تحالف معَ بعض القادة المناوئين لنور الدين محمود سنة (٥٤٦هـ/١١٥١م) في إقليم حوران، وبذلك أصبح من السهل عليه التوجّه إلى مدينة عسقلان[٢]. ومن جانبٍ آخرَ بدأت حامية عسقلان بقيادة الفاطميّين بالتحرّك استجابة لتحرّكات بلدوين الثالث؛ حيث يذكر القلانسيّ: أنّ حامية عسقلان قد تحرّكت باتجاه مدينة غزّة في يوم الخميس الموافق (العاشر من المحرم ٥٤٧هـ/ الثامن عشر من إبريل ١١٥٢م)؛ حيث وقعت مناوشات عسكريّة قرب المدينة بين الصليبيّين وحامية عسقلان، انتهت بقتل عدد كبير من الصليبيّين على حدّ قوله[٣].

وعلى إثر ذلك، تنبّه بلدوين الثالث إلى مدى خطورة حامية عسقلان، ومحاولتها ضرب تحصينات غزّة التي قام بها؛ فأرسل مجموعة من الصليبيّين إلى عسقلان وأمرهم بتدمير البساتين والحقول المجاورة لها[٤]، وقد أراد بذلك إلحاق الضرر الاقتصاديّ بحامية عسقلان، إذا نجح في حصار المدينة مدّة زمنيّة طويلة[٥].

١-الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٧٩٤. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٠٧. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٥، ص٢٤٤.

٢- رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٥٤٤.

٣- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣١٨. أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسيّ الدمشقيّ (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٥٧م)، الروضتين في أخبار الدولتين النوريّة والصلاحيّة، (٥ أجزاء)، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٨٦، وسيشار إليه لاحقًا: أبو شامة، الروضتين.

٤- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨٠٨-٨٠٩.

٥- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٠٩.

حصارُ المدينة

كان بلدوين الثالث على دراية كاملة بمدى تحصينات مدينة عسقلان وقوّة حاميتها العسكريّة وما توافر الأسلحة والإمدادات والمؤن فيها؛ لأنّ المدينة كانت تعلم بنوايا بلدوين الثالث في حصارها؛ لذا عمل بلدوين الثالث على حشد أكبر قدر ممكن من القوّات العسكريّة الصليبيّة والعدّة والعتاد؛ حيث استدعى القوّات العسكريّة الموجودة في بيت المقدس، كما استعان بالجنود الصليبيّين الذين شاركوا في الحملة الصليبيّة، بالإضافة إلى إعلانه التجنيد الإجباريّ لجميع القوّات الصليبيّة[١].

أحكم الملك بلدوين الثالث حصاره على المدينة من ناحية البرّ، من خلال نشر قوّات صليبيّة حولها، وقد تولّى قيادة هذه القوّات بنفسه، كما شارك معه في ذلك البطريرك ورئيس أساقفة صور[٢]. إضافة إلى ذلك، فقد حشد قوّات صليبيّة من البارونات من جهة البحر؛ بهدف قطع طريق الإمدادات الوافدة من مصرَ إلى عسقلان، ونشر مجموعة من الجنود الصليبيّين للاستطلاع قرب غزّة؛ بهدف مراقبة تحرّكات القوّات الفاطميّة من مصرَ، وأمرهم بإعطاء إشارات تحذيريّة للصليبيّين عند تحرّك هذه القوّات صوبَ مدينة عسقلان[٣].

لقد أدرك أهالي مدينة عسقلان أنّ حملة بلدوين الثالث ليست كسابقاتها من الحملات، وعرفوا أنّ هدف الصليبيين هو حصار المدينة وإسقاطها؛ لذا أمّنوا أسوار المدينة وحصّنوها، وحشدوا رماة السهام داخل الأبراج يساعدهم مجموعة من الفرسان، فضلاً عن عدد آخرَ من الحراس عُهد إليهم بتولّي مراقبة أسوار المدينة[٤] ليلاً نهارًا، فكانوا يحملون في أيديهم المشاعل التي

١- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨٠٩.

٢- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨١١.

٣- المصدرنفسه، ج٢، ص٨١١. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٥٤٥.

٤- المصدر نفسه، ج٢، ص٨١١.

تسهّل عليهم مراقبة ما يدور خارج الأسوار. كما اتخذوا التدابير اللازمة لحصار طويل بتخزين ما يلزمهم من طعام[١]. أمّا الصليبيّون فهجموا على المدينة هجومًا كاسحًا أوّل، تصـدّت لـه حاميـة عسقلان، واستمرّت المناوشات قرب أسوار المدينة مدّة شهرين، من غيرِ أن يُحسم الأمر لصـالح أحد الطرفين[٢].

لقد قاومت مدينة عسقلان الحصار الصليبيّ إلى ما يقارب الخمس شهور؛ نتيجـة عزيمـة سكانها، وإصرارهم على مقاومة الصليبيّين، بالإضافة إلى مناعة أسوارها وقـوّة تحصـيناتها؛ إذ يصف رنسيمان ذلك قائلاً: "وعلى الرّغم من أنه كان بوسع الفرنج أن يفرضـوا عليهـا حصـارًا كاملاً، غير أنّه ظلّ شهورًا لم يستطع في أثنائها أن يلحق الضرر بأسوارها"[٣]. ومعَ امتداد الحصار وإصرار الصليبيّين على اقتحام المدينة، بدأ القلق يساور حامية عسقلان، وتحديدًا معَ تأخّر نجدات الخليفة الفاطميّ من مصرَ، وكذلك تأخّر إمدادات نور الدين محمود من دمشـقَ. كمـا أنّ وفـود الحُجّاج المسيحيّين إلى بيت المقدس، الذين جاءوا للمشاركة في أعياد القيامة[٤]، قد أفادوا بقـدومهم بلدوين الثالث؛ إذ دعاهم إلى المشاركة في عمل يباركه الربّ، فاستجابوا، وبدأت سفنهم تتوافد إلى مدينة عسقلان[٥].

١- المصدر نفسه، ج٢، ص٨١١.

٢- المصدر نفسه، ج٢، ص٨١٢. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٤٦.

٣- رنسيمان، ستيف، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٥٤٦.

٤- هو أحد أهم الأعياد الدينية في المسيحية، وغالباً ما يكون بين أوائل شهر مايو من كل عام، ويحتفل به المسيحيون بقيامة السيد المسيح من بين الأموات بعد موته على الصليب.

٥- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨١٢. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٤٦.

وردًّا على ذلك، سارعت حامية عسقلان إلى إرسال رسالة عاجلة إلى خليفة مصرَ الظــافرِ بأمر الله (٥٤٤-٥٤٩هـ/ ١١٤٩-١١٥٤م)، يطلبون منه النجدة والإمدادات العســكريّة[١]. كمــا أرسلوا إلى نور الدين محمود يطلبون منه مساعدتهم في مواجهة الصليبيّين[٢]. ومــعَ ثبــات أهــل عسقلان في مقاومتهم للحصار صنع بلدوين الثالث برجًا من الأخشاب بُغْيَةَ الاقتراب مــن أســوار المدينة واقتحامها، كما زوّد المقاتلين الصليبيّين بآلات قذف صُنعت مــن أخشــاب الســفن غيــر المستعملة، ووجّه البرج نحو قطاع معيّن من أسوار المدينة[٣].

ويذكر وليم الصوريّ أنّ قوّات وإمدادات عسكريّة بحريّة قد أرسلها الخليفة الفاطميّ الظافر بأمرالله في الشهر الخامس من حصار الصليبيّين للمدينة؛ أي في (ربيــع الأول ٥٤٨هــــ/ مــايو ١١٥٣م)[٤]. لكنّ رنسيمان يذكر أنّ أسطول الإمدادات المصريّ قد وصل في يونيو سنة (١١٥٣م)؛ حيث يقول: "لم يغامر الفاطميّون بمحاولة إنقاذ عسقلان من جهة البر، غير أنّهــم أرســلوا إليهــا أسطولاً مؤلّفًا من سبعين سفينة شحنوها بالرّجال والسلاح والمؤن على اختلاف أنواعها، ولم يجرؤ جيرار سيد صيدا على مهاجمة السفن المصريّة، فنجحت في أن تنفذ إلى الميناء (عسقلان)، وبــذا ارتفعت الرّوح المعنويّة عند المدافعين، غيرَ أنّ السفن أقلعت من الميناء بعد أن أفرغت حمولتهــا، واستمرّ الحصار قائمًا"[٥]. وفعلاً، فقد رفعت هذه الإمدادات البحريّة من معنويّة أهل عسقلان، ممّــا

١- ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمّد بن عمر (ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م)، الدر الثمين في سيرة نور الدين محمــود، مخطــوط، د. ت، ورقة ٦٢.

٢- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٩. أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص٩٠. الصوري، وليم، تــاريخ الحــروب الصليبية، ج٢، ص٨١٢.

٣- أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٩٠. الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨١٣. رنسيمان، تاريخ الحــروب الصــليبية، ج٢، ص٥٤٦.

٤- الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨١٤. انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣١٩. المقريزي، اتعاظ الحنفــا، ج٣ ، ص٢٠٤.

٥- رنسيمان، ستيف، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٥٤٦.

أدّى إلى أن يوجّهوا ضرباتٍ إلى الصليبيّين وسفنهم، فألحقوا بهم الكثير من الأضرار[١]. غيـرَ أنّ الصليبيّين كانوا أكثر إصرارًا ولم يتراجعوا عن المدينة؛ لرغبتهم في إسقاطها والاستيلاء عليها[٢].

ويذكر أبو شامة أنّ نور الدين محمود قد استغلّ انشغال الصليبيّين بحصار عسقلان؛ فتحرّك من الشمال إلى مدينة بانياس بهدف الضغط على الصليبيّين لفكّ الحصار عنها، وكـان ذلـك فـي (الثالث والعشرين من محرم ٥٤٨هـ/ ٢١ إبريل ١١٥٣م) بمشاركة مجموعة من قوّات الأرمن[٣]. لكن رغبة الصليبيّين الملحة في دخول عسقلان كانت أقوى من هذه المحاولة، فـي الوقـت الـذي تعرّض فيه نور الدين محمود لبعض الخسائر أمام بانياس، الأمر الذي جعله يقرّر الرحيل عنها.

١- ابن القلانسي، ذيل، ص٣٢١. أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص٩٠.

٢- الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨١٤.

٣- أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص٩٠. انظر أيضًا: الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٨١٥.

سقوطُ مدينة عسقلانَ بأيدي الصليبيّين

يشير وليم الصوريّ بعد أن طال الحصار على مدينة عسقلان، إلى انقسام قد حدث داخل المعسكر الصليبيّ المحاصر للمدينة؛ إذ بات فريق يرى ضرورة الرّحيل عن عسقلان وتركها لمناعة أسوارها واستحالة إسقاطها، وكان بلدوين الثالث قائد هذه الحملة على رأس هذا الفريق، بينما رأى فريق آخرُ ضرورة مواصلة الحصار والقتال حتى إسقاط المدينة، وتزعّم هذا الفريق البطريرك ورئيس أساقفة صور وجميع الكهنة[١]. وحول هذا الانقسام يوضّح رنسيمان قائلاً: "عقد الملك بلدوين مجلسًا في خيمته أمام الصليب المقدّس؛ حيثُ أراد النبلاء العلمانيّون رفع الحصار بعد أن ثبطت الهزيمة عزيمتهم، غير أنّ البطريرك ومقدّم الاسبتاريّة ريموند لي بويه حثّا الملك على المضيّ في الحصار"[٢].

وكان الفريق الثاني الذي أراد مواصلة الحصار والقتال هو الفريق الأقوى، ونجح البطريرك في شحذ همم الصليبيّين في الوقت الذي واصلت فيه حامية عسقلان الدفاع عن المدينة، ولكنّها لم تستطع مواصلة الدفاع والصمود واضطرّت في النهاية إلى إعلان رغبتها في تسليم المدينة[٣]. ويصف رنسيمان استسلام مدينة عسقلان قائلاً: "وفي أغسطس سنة ١١٥٣، وبعد أن تعرّضت المدينة للقذف الشديد، قرّر جند الحامية التسليم، بشرط أن يبذل الفرنج للسكّان الوطنيّين الأمان عند مغادرة المدينة بأمتعتهم، وقبل بلدوين الشروط والتزم الوفاء بها. وبينما تدفّق من المدينة سيل كبير من المسلمين قاصدين مصرَ برًّا وبحرًا، دخل الفرنج المدينة في موكب رسميّ، وتسلموا القلعة بما زخرت به من المال والسلاح، وتقرّر جعل عسقلان إقطاعًا لكونت يافا إملريك شقيق

---

[١]- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨١٩.
[٢]- رنسيمان، ستيف، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٥٤٦.
[٣]- الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨١٩.

الملك (بلدوين)"[١]. وهكذا سقطت مدينة عسقلان في يد الصليبيّين ودخلوا إليها، وكان ذلك في (٢٦ جمادى الأولى ٥٤٨هـ/ ١٩ أغسطس ١١٥٣م)[٢]، ذلك السقوط الذي أُجمعت المصادر الإسلاميّة والأجنبيّة جميعها على أنّه دام أكثر من خمس شهور. يقول أبو المحاسن في ذلك: "وفيها ملكت الفرنج عسقلان بالأمان بعد أن قتل من الفريقين خلقٌ كثير، وكان قد تمادى القتال بينهم في كلّ سنة إلى أن سلّموها، وأخذ الفرنج جميع ما كان فيها من الذخائر وغيرها"[٣].

لم تكن الأسباب وراء سقوط عسقلان واستسلامها للصليبيّين، تتعلّق فقط بالحصار العسكريّ الذي فُرض على المدينة؛ فقد أشار ابن الأثير إلى حدوث خلاف بين طوائف المدينة إثر إحراز بعض الانتصارات على الصليبيّين، ومحاولة كلّ فرقة نسبة النصر إلى نفسها، ممّا أدّى إلى ظهور التنافس بين الفرق وحدوث الخلاف بينهم، وقتال بعضهم بعضًا. وقد ترك هذا الخلاف آثاره السيئة على المدينة، ممّا هيّأ للصليبيّين فرصة مواتية للاستيلاء عليها[٤].

لكنّ القزوينيّ انفرد في رواية حول سقوط مدينة عسقلان، يشير فيها إلى أنّ الصليبيّين نجحوا في الاستيلاء عليها بعد أن أحضروا مركبًا ووضعوه بالقرب من أسوارها وزوّدوه بكلّ ما يحتاج إليه المقاتلون من ذخائر وأسلحة، ثمّ وثبوا إلى داخل المدينة من فوق الأسوار، ولم تستطع الحامية الإسلاميّة التصدّي لهم، فتمّ للصليبيّين الاستيلاء على المدينة[٥].

---

[١]- رنسيمان، ستيف، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٥٤٦.

[٢]- الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٨٢١. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٢٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص١٨٤. ابن تغري بردي، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص٢٤٥. ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص٢١٤. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤١٨. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٠٦. ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٨٤. هانس ابرهارد، تاريخ الحروب الصليبيّة، ص٦٩.

[٣]- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٥٤٥.

[٤]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص١٨٥.

[٥]- القزويني، أبو عبدالله زكريا بن محمّد بن محمود (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، جزء واحد، ط١، ص١٤٧.

وقد أشارت بعض المصادر إلى أنّ الخلاف الذي نشأ في القاهرة ومقتل العادل بن السلار كان من بين العوامل التي أدّت إلى سقوط مدينة عسقلان؛ حيث يقول ابن الورديّ: "وفيها اختلفت الأهواء في مصرَ فقتل العادل، فتمكّن الفرنج من عسقلان وحاصروها وملكوها من المصريّين"[١]. حيث سرعان ما ذاع خبر مقتله بين الجنود، وسبّب ذلك اضطرابًا في عسقلان، فبدأت الحامية بالإذعان للصليبيّين[٢].

ويشير سعيد عاشور إلى أنّ ما ساهم في ضعف موقف مدينة عسقلان واستسلامها، هو أنّ الوزير الفاطميّ بن السلار قد أرسل أسامة بنَ منقذ في سفارة إلى نور الدين؛ للحصول على مساعدته من أجل الدفاع عن عسقلان، وعندما تمّت المقابلة عند بصرى في (إبريل ١١٥٠م)، اعتذر نور الدين عن تقديم المساعدات المطلوبة[٣]؛ فحُرمت حامية عسقلان من هذه المؤازرة، وأدّى ذلك إلى التفكير في تسليم المدينة للصليبيّين.

يعلّق العسقلانيّ على رواية القزوينيّ، فيقول: "إنّ رواية هذا المؤرّخ غير مقبولة؛ لأنه انفرد بها عن سائر المؤرّخين، فلم تسقط المدينة بهذه السهولة، ولا يستطيع أحد أن يتجاهل دور الحراس في الدفاع عن الأسوار، بما يملكونه من رماح وسهام وأسلحة تمكّنت من التصدّي لمثل هذه المحاولات"[٤]. ويضيف العسقلانيّ: "ممّا يؤكّد صحّة ما ذهبنا إليه هو بقاء بلدوين الثالث أمام المدينة مدّة زمنيّة زادت على خمسة أشهر، من غيرِ طائل للنفاذ إلى المدينة والسيطرة عليها. ممّا

---

[١]– ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٨٤. انظر أيضًا: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص١٤٦. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص١٣٥٤.
[٢]– ابن ميسر، تتمة المختصر، ص١٤٦.
[٣]– عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ص٦٣٦-٦٣٧.
[٤]– العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١١٩.

يؤكّد أنه واجه متاعبَ كثيرة من الحامية الإسلاميّة في عسقلان، التي لم تستسلم بسهولة على النحو الذي أشار إليه القزوينيّ"[١].

من غير شكّ، فإنّ الأسباب التي أشارت إليها المصادر جميعها قد ساهمت على نحو أو آخرَ في سقوط مدينة عسقلان واستسلامها للصليبيّين، سواء أكان الخلاف الذي وقع بين سكان عسقلان، الذي أشار إليه ابن الأثير سببًا في ذلك، أم ضعف الدولة الفاطميّة في القاهرة والخلافات التي أدّت إلى مقتل ابن السلار، أم ما أشار إليه سعيد عاشور حول تقاعس نور الدين محمود في إمداد عسقلان، ولو أنّ ذلك قد حدث قبل حصار المدينة بسنوات. غيرَ أنّ السبب الرئيس والأساس في سقوط مدينة عسقلان هو الحصار الصليبيّ الذي امتدّ إلى قُرابة ستة أشهر، وإصرار الصليبيّين على اقتحام مدينة عسقلان والاستيلاء عليها، على الرّغم من صمود سكانها البطوليّ ودفاعهم عن المدينة. بالإضافة إلى الدور الذي أدّته مدينة عسقلان وحاميتها في مقارعة الصليبيّين، والتصدّي لهم على مدار ما يقارب نصف القرن، بعد احتلال الصليبيّين بيتَ المقدس.

يقول الصوريّ على إثر استسلام مدينة عسقلان: إنّ بلدوين الثالث بدأ بإجراء مفاوضات معَ حاميتها انتهت بعقد معاهدة بين الجانبين، اتّفق خلالها على عقد هدنة مدّتها ثلاثة أيام، ليتمّ خلالها رحيل سكانها بكلّ ممتلكاتهم إلى مصرَ، على أن يتولّى بلدوين الثالث تزويدهم بمرشدين للطريق من عسقلان إلى مدينة العريش المصريّة[٢].

---

[١]- العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١١٩.

[٢]- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨٢٢. انظر أيضًا: أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص٩١.

وفي (٢٦ جمادى الأولى ٥٤٨هـ/ ١٩ أغسطس ١١٥٣م) تسلّم بلدوين الثالث عسقلان ودخلها يتبعه البطريرك والأساقفة حاملين الصليب المقدس، مرتّلين بعض التراتيل المقدّسة، وجرى تحويل المسجد الجامع بالمدينة إلى كاتدرائيّة للقديس بولس، وعيّن القس إبسالوم أسقفًا لها، كما عُيّن كونت يافا حاكمًا على عسقلان، وسلّمت قلعة المدينة الزّاخرة بالمال والسلاح للصليبيّين، وكافأ بلدوين الثالث بعض قادته من الصليبيّين بتوزيع القرى التابعة لعسقلان عليهم[١].

[١]- الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٤٧.

عسقلان في ظلّ العهد الأيّوبيّ

- عسقلان قاعدة عسكريّة للصليبيّين.
- عسقلان بين ظهور صلاح الدين وسيطرة الصليبيّين عليها.
- تحرير صلاح الدين مدينةَ عسقلان (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م).
- عسقلان بعد عودتها إلى الحكم الإسلاميّ.
- سقوط عسقلان بأيدي الصليبيّين ثانية (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م).
- عسقلان ومفاوضات الصلح: صلح الرّملة (٥٨٨هـ/١١٩٢م).
- تجدد الصّراع الصليبيّ – الإسلاميّ على عسقلان.
- استرداد المسلمين عسقلانَ (٦٤٥هـ/١٢٤٧م).

عسقلان قاعدة عسكريّة للصليبيّين

بعد سقوط مدينة عسقلان، واستيلاء الصليبيّين عليها سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م)، أصبح الصليبيّون يسيطرون على ساحل الشام وفلسطين بأكمله، من الإسكندريّة شمالاً إلى غزّة جنوبًا. وبذلك نجحوا في وقف الهجمات التي كانت توجّه إليهم من مصرَ.

وعلى الرّغم ممّا كانت تعانيه الخلافة الفاطميّة آنذاك من ضعف واضمحلال، فإنها لم تُسلّم بسقوط مدينة عسقلان، بل حاولت استردادها من الصليبيّين؛ فأرسلت حملة عسكريّة سنة (٥٤٩هـ/١١٥٣م)، بقيادة الوزير الفاطميّ عباس بن باديس(١)، بصحبة عشرة آلاف فارس، ونحو عشرين ألفًا من الرّجالة، اتّجه بهم إلى عسقلان، ووقعت بينهم وبين الصليبيّين معركة بالقرب منها، هَزَمَ فيها الصليبيّون الجيش الفاطميّ، وقُتل قائده وأُسر ابنه الذي جرى بيعه(٢).

يقول أبو شامة معلّلاً هزيمة الفاطميّين في هذه المعركة: إنّ الوزير الفاطميّ قد أظهر اغترارًا بنفسه بكثرة ما معه من الجند واعتقاده أنه قادر على دحر الصليبيّين، ولمّا جرى الاشتباك أسقط في يده وتمّت عليه الهزيمة(٣). ويضيف أبو شامة: إنّ انقسامًا قد حدث في صفوف الجيش الفاطميّ قبل المعركة؛ إذ كانت طائفة من الجند تؤيّد هذا الوزير بينما عارضته طائفة أخرى. وقيل: إنّ هذه الطائفة الأخيرة كانت تتآمر ضدّه وبيّتت النيّة للاتفاق معَ الصليبيّين(٤).

١- وهو عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي، تولّى الوزارة في عهد الحافظ بعد مقتل العادل في محرم سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، وقيل إنّه كان وراء مقتل العادل، واستمرّ في الوزارة حتى ١٩ ربيع الأول ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م. ابن تغري بردي، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢١٨-٢١٩.

٢- ابن تغرى بردى، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص٢١٩. ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر- تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٤٤١. الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨٤٠.

٣- أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النوريّة والصلاحيّة، ج١، ص٩٧.

٤- المصدر نفسه، ج١، ص٩٧.

ويشير ابن القلانسيّ إلى أنه في (ربيع الأول ٥٥٣هـ/ إبريل ١١٥٨م) خرج الأسطول الفاطميّ تحت قيادة الوزير الفاطميّ طلائع بن رُزّيك (٥٤٩- ٥٥٦هـ/ ١١٥٤م- ١١٦٠م) متوجّهًا إلى عسقلان، ومارًا بغزّة، فتصدّى له الصليبيّون بسفنهم قرب سواحل عسقلان، ويبدو أنّ الصليبيّين استهانوا بهذه القوّة، واعتقدوا بإمكانية هزيمة الفاطميّين في هذه المرّة أيضًا، غير أنّهم سرعان ما باغتتهم القوّات الفاطميّة فألحقت بهم هزيمة ثقيلة اضطرّوا على إثرها إلى الفرار تاركين بعض سفنهم غنيمة للفاطميّين[١].

ويذكر العسقلانيّ أنه في يوم الأربعاء الموافق من التاسع والعشرين من (ذي الحجة ٥٥٥هـ/ الثلاثين من نوفمبر ١١٦٠م)، منح عموري الأول كونت عسقلان رجال الدين اللاتين في كنيسة القيامة قرية جلاديا التابعة لعسقلان وأرضًا أخرى في عسقلان؛ نظير ما قدّموه من خدمات عسكريّة ومساعدات ماليّة من أجل الاستيلاء على عسقلان[٢].

ومعَ تولّي عموري الأول، حكم مملكة بيت المقدس في (٥٥٨هـ- ٥٦٩هـ/ ١١٥٢- ١١٧٣م) بعد وفاة الملك بلدوين الثالث في بيروت في العام نفسه[٣]، وكان عموري الأول على دراية تامّة بموقع مدينة عسقلان والدور الذي أدته ضدّ الصليبيّين في ظلّ نفوذ الفاطميّين عليها، بالإضافة إلى معرفته بقدرات المدينة الدفاعيّة، فقد أعاد لها مكانتها كقاعدة عسكريّة متقدّمة ضدّ مصرَ؛ فغدت المدينة قاعدة تحشد فيها الجيوش الذاهبة إلى مصَر، فضلاً عن مشاركة حاميتها

١- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٣٢.

٢- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٢٣.

٣- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨٩٥. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٥٨٣-٥٨٤. عاشور سعيد، الحركة الصليبيّة، ج١، ص٦٥٩.

الصليبيّة معَ حاميات المدن الأخرى في تلك الحملات العسكريّة[١]. وكانت حملات عمــوري الأول قد تزامنت معَ نشوب الخلافات والصّراعات في مصرَ التي دارت على منصب الوزارة بين شاور بن مجير السعديّ وضرغام بن عامر النخميّ ، وذلك في (صفر ٥٥٨هــــ/ مــارس ١١٦٢م)[٢]. ويذكر ابن الأثير أنّ الخليفة الفاطميّ العاضد (٥٥٥-٥٦٧هـــ/ ١١٦٠-١١٧١م) لم يستطع وقــف هذه المنازعات لضعفه، وكان شاور قد عزل الوزير طلائع بن رُزّيك وقتله، لكنّ ضرغام التخميّ لم يترك شاور يهنأ بالوزارة، بل استطاع إرغامه على التنازل له عنها[٣]. وبذا، فقد استغل عموري الأول هذه الصّراعات داخل البيت الفاطميّ، وباشر بحملاته على مصر للاستيلاء عليها، وكانــت مدينة عسقلان هي القاعدة الأهمّ والأكبر لانطلاق مثل هذه الحملات.

وفي ظلّ هذه الحملات كان أوّل ظهور لصلاح الدين يوسف بن أيّوب وذكر عندما بــدأت الحملات العسكريّة الصليبيّة تهدّد الخلافة الفاطميّة في مصرَ، فتوجّه الخليفة العاضد فــي (ربيــع الأول ٥٥٨هــ/ فبراير ١١٦٣م) إلى نور الدين محمود في دمشقَ يستنجده لإرسال قوّات عسكريّة إلى مصرَ، ووافق نور الدين على هذا الطلب، ثمّ أرسل قوّاته العسكريّة إلى مصرَ بقيادة أسد الدين شيركوه، الذي اصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيّوب[٤]. وردًا على هذه الأحــداث وإرسال نور الدين محمود قوّاته إلى مصر، عقد عموري الأول اجتماعًا في مدينة عســقلان يــوم (الخميس الثالث والعشرين من شعبان ٥٥٩هــ/ السادس عشر من يوليــو ١١٦٤م)؛ مــن أجــل التحضير لغزو مصرَ، وسعى في هذا الاجتماع إلى كسب تأييد رجال الدين، وأعلن فيه عقد البيــع

١- الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٨٩٦.

٢- حول الحملات العسكريّة على مصر. انظر: وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٨٩٦- ٩٢٢.

٣- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٢٩٠-٢٩١. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٥٧-ص٢٠٨

٤- ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هــ/١٢٣٤م)، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة (سيرة صلاح الــدين)، تحقيق: د. جمال الدين الشيّال، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م، ص٨٠، وسيشار إليه لاحقًا: ابن شداد، النوادر. ابن الأثير، الكامل في التــاريخ، ج١١، ص٢٩٨.

الخاصّ بممتلكات رجال الدين لعسقلان[1]. وهذا يؤكّد أنّ مدينة عسقلان باتت تشكّل الثقل السياسيّ والعسكريّ، وكذلك الدينيّ بالنسبة إلى الصليبيّين في مشروعهم لغزو مصرَ والسيطرة عليها.

بدأ عموري الأول يحرك قوّاته العسكريّة إلى مصر من مدينة عسقلان، في (رمضان – شوال ٥٥٩هـ أواخر يوليو ١١٦٤م)[2]. وردًّا على ذلك، توجّه أسد الدين شيركوه إلى بلبيس وتحصّن بها وحاصر الصليبيّين فيها مدّة ثلاثة أشهر من (شوال إلى ذي الحجّة ٥٥٩هـ أغسطس إلى أكتوبر ١١٦٤م)، تعرّض فيها شيركوه لمتاعب جمّة نجمت عن قلّة المؤن، إلا أنه لم يستسلم للصليبيّين. وفي الوقت نفسه تحرّك نور الدين محمود إلى بانياس للإغارة عليها[3]، وهذا ما جعل عموري الأول يتعجّل في العودة إلى مدينة عسقلان، ففشلت حملته وعاد من غير السيطرة على مصر. وفي (٦ ربيع الآخرة ٥٦٢هـ/ ٣٠ يناير ١١٦٧م) حشد عموري الأول مرّة أخرى قوّاته في عسقلان، وتحرّك منها باتجاه مصر[4]، وقد تزامن ذلك معَ تحرّك أسد الدين شيركوه بقوّاته من الشام إلى مصرَ، ودارت المعارك بين الطرفين في (٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٢هـ/ ٢١ إبريل ١١٦٧م)، انتهت بانتصار أسد الدين على الصليبيّين لإجادته الكرّ والفرّ[5]، الأمر الذي دفع عموري الأول إلى عقد الصلح معَ أسد الدين شيركوه رحلا بمقتضاه معًا عن مصر. لكنّ بعض المصادر تشير إلى أنّ الملك الصليبيّ قد أبقى على إثر هذا الصلح على مجموعة من قوّاته في مصرَ، كما فرض ضريبة عليها تُقدّر بمائة ألف دينار قبل مغادرته إيّاها متّجهًا إلى عسقلان، التي عاد إليها في

١- انظر: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٥٨٥.

٢- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨٨٧.

٣- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٢٩٩-٣٠٠. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٤. انظر أيضًا ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٤٧١.

٤- الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٨٨٧. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٥٨٩.

٥- ابن الاثير، الكامل، ج١١، ص٣٠٠. ابن تغرى بردى، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص٢٤٩. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٨٢-٢٨٣. عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ص٦٦٨-٦٦٩.

(٣ ذي القعدة ٥٦٢هـ/ ٢١ أغسطس ١١٦٧م). بينما عاد أسد الدين شيركوه وصلاح الدين بن أيّوب إلى دمشقَ في (٢٨ ذي القعدة ٥٦٢هـ/ ١٧ سبتمبر ١١٦٧م)[١].

وفي سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)، جدّد الملك الصليبيّ عموري الأول حملاته العسكريّة على مصرَ بحملة أخرى انطلقت من مدينة عسقلان أيضًا، شعر الخليفة الفاطميّ العاضد على إثرها بخطورة الموقف، فأرسل إلى نور الدين محمود يطلب منه المساعدة، فما كان من نور الدين محمود إلا أن أرسل إليه قوّة عسكريّة بقيادة أسد الدين شيركوه أيضًا[٢]. وقبل وصول أسد الدين شيركوه إلى مصرَ كان عموري الأول قد سبقه إليها ونزل بلبيس في (صفر ٥٦٤هـ/ نوفمبر ١١٦٨م)، وأساء معاملة أهلها وأسر بعضهم وفتك ببعضهم الآخر[٣]، ومِنْ ثَمّ غادر عموري الأول نحو القاهرة فوصل إليها في (١٠ صفر ٥٦٤هـ/١٤ نوفمبر ١١٦٨م)، وبدأ في حصارها. ويذكر ابن الأثير أنّ أهل القاهرة عزموا على المقاومة حتى لا يتعرّضوا للمصير السيء نفسه الذي تعرّض له أهل بلبيس، كما يؤكّد أنه: "لو كان الفرنج أحسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصرَ والقاهرة"[٤].

وعلى إثر حصار الصليبين للقاهرة أحسّ شاور في ذلك الوقت بحرج موقفه واستياء الناس منه، فحرق القاهرة ليمنع الصليبيّين من الاستيلاء عليها[٥]، وقد استمرّ هذا الحريق أربعة وخمسين

١- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٣٦. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٨٧. أيضًا: الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٩١٩.

٢- ابن تغرى بردى، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص٣٥٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٣٦. أيضًا: أبو شامة، تاريخ الروضتين، ج١، ص١٧٠.

٣- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٣٦. المقريزي،اتعاظ الحنفا،ج٣،ص٢٩١. أبو شامة، الروضتين، ص١٧٠.

٤- ابن الأثير، المصدر نفسه، ج١١، ص٣٣٦. المقريزي ،اتعاظ الحنفا ،ج٣،ص٢٥٦.أنظر أيضًا: سعيد عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٦٧٦.

٥- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٥١. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٩٦-٢٩٧. أبو شامة، تاريخ الروضتين، ج١، ص١٧١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٣٦.

يومًا بداية من التاسع والعشرين من (صفر ٥٦٤هـ/ ٢٨ نوفمبر ١١٦٨م)[١]. وبالرّغم من ذلك أحكم عموري الأول قبضته على القاهرة، ممّا دفع شاور إلى التصالح معه على دفع مائة ألف دينار[٢]. وعقب ذلك رحل عموري الأول من مصرَ وعاد إلى مدينة عسقلان.

عسقلانُ بين ظهور صلاح الدين وسيطرة الصليبيّين عليها

أدّت حملة عموري الأول على مصر سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)، التي أُشير إليها في ما سلف، إلى ظهور تحوّلات وتغييرات جديدة في مصرَ، وهذا ما جعل الصليبيّين أمام موقف جديد بعد أن كانت مصرُ الفاطميّة ضعيفة كلّ الضعف أمام الصليبيّين لدرجة التبعيّة الفعليّة لمملكة بيت المقدس، حتى إنها كانت تدفع الأموال رمزًا لهذه التبعيّة[٣]. فقد أتاحت حملة عموري الأول على مصر في هذا العام المجال أمام أسد الدين شيركوه قائد نور الدين محمود للوصول إلى مصرَ والسيطرة عليها؛ لتصبح مصرُ بعد الحملة جزءًا من الدولة النوريّة[٤] الكبيرة التي غدت تمتدّ من الفرات إلى النيل.

ومعَ استيلاء نور الدين على مصرَ، ظهر على مسرح الأحداث صلاح الدين يوسف بن أيّوب[٥]، وقد أُشير في ما سلف إلى أنه كان يرافق حملات أسد الدين شيركوه على مصرَ ضدّ

١- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٣٦.

٢- المصدر نفسه،ج١١،ص٣٣٧.المقريزي،اتعاظ الحنفا،ج٣،ص٢٩١. ابن تغرى بردى، النجوم، ج٥، ص٣٥١. انظر: عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٦٧٦.

٣- عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ص٦٨٢.

٤- الدولة النوريّة نسبة إلى نور الدين محمود.

٥- هو يوسف بن أيّوب بن شادي بن مروان بن أبي عليّ بن عنترة، ولد صلاح الدين بقلعة تكريت في سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٦م)، وكان أبوه نجم الدين أيّوب واليًا بها، ثمّ انتقل بابنه يوسف إلى الموصل، وصار منها إلى الشام، وتجمع المراجع على أنّ صلاح الدين يوسف كرديّ الأصل ورافق عمّه أسد الدين شيركوه في حملات نور الدين محمود على مصر، وتقلد الوزارة هناك، وأصبح له شأن كبير في مقاومة الصليبيّين وتوحيد بلاد الشام ومصر وتحرير بيت المقدس. توفي صلاد الدين يوسف في جمادى الآخرة سنة (٥٨٩هـ-١١٩٣م). أنظر: ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٤-٥.

الصليبيّين. واستقر صلاح الدين في مصرَ بعد حملة عموري الأول سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)، وتولّى الوزارة للعاضد آخرَ الخلفاء الفاطميّين[١]. وفاز نور الدين محمود في تسابقه معَ الصليبيّين على مصرَ؛ لأنّ صلاح الدين أصبح يمثّل سلطة نور الدين محمود عليها، يقول ابن كثير في ذلك: "وأقام الملك صلاح الدين بمصرَ بصفة نائب للملك نور الدين، يخطب له على المنابر بالديار المصريّة، ويكاتبه بالأمير الاسفهسلار صلاح الدين، ويتواضع له صلاح الدين في الكتب والعلاقة. لكن، قد التفت عليه القلوب، وخضعت له النفوس، واضطهد العاضد في أيامه غاية الاضطهاد، وارتفع قدر صلاح الدين بين العباد بتلك البلاد، وزاد إقطاعات الذين معه فأحبّوه واحترموه وخدموه، وكتب إليه نور الدين يعنّفه على قبول الوزارة من غير مرسومه، وأمره أن يقيم حساب الديار المصريّة، وأرسل صلاح الدين إلى نور الدين يطلب منه أهله وأخوته وقرابته، فأرسلهم إليه وشرط عليهم السمع والطاعة له، فاستقرّ أمره بمصرَ وتوطّأت دولته بذلك[٢].

وما إن استقرّ صلاح الدين بوزارته في مصرَ حتى تعرّض لحملة صليبيّة بيزنطيّة من جديد، بعد أن اتفق عموري الأول معَ الإمبراطور البيزنطيّ مانويل الأول (٥٣٨-٥٧٦هـ-١١٤٣-١١٨٠م) على القيام بعمل عسكريّ مشترك يهدف إلى طرد صلاح الدين من مصرَ، وكان ذلك في سنة (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م)[٣]. وكانت مدينة عسقلان هي القاعدة التي انطلقت منها هذه الحملة المشتركة؛ حيث تحرّكت قوّات عموري الأول البريّة من عسقلان إلى الفرما[٤]، ومن ثَمّ

١- ابن تغري بردي، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص١٧. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص١٤٩،.

٢- ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١٢، ص٣٤٧٩.

٣- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٩٢٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٤٨٢.

٤- المصدر نفسه، ج٢، ص٩٢٩.

تحرّكت القوّات الصليبيّة من الفرما إلى دمياط برًّا. وفي (٢ صفر ٥٦٥هـ/ ٢٥ أكتوبر ١١٦٩م)، وصلت القوّات الصليبيّة البحريّة إلى دمياط[١].

وفي المقابل، استعدّ وزير مصر صلاح الدين بن أيّوب لصدّ هذا الهجوم، بعد أن انفق حاكم مصرَ العاضد ألف ألف دينار للدفاع عن دمياط[٢]. وحدث أن تعرّضت السفن الصليبيّة والبيزنطيّة لعواصف شديدة أغرقت الكثير منها وأحدثت خسائر بين رجالها، فحدثت خلافات بين الصليبيّين والبيزنطيّين[٣]، ممّا أدّى إلى فشل هذه الحملة. وبذا فشل عموري الأول في اتخاذ عسقلان قاعدة تمكّنه من السيطرة التامّة على مصرَ. غيرَ أنّ صلاح الدين شنّ إثر هذه الحملة في سنة (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) غارة عسكريّة على مدينة عسقلان[٤]، كانت ردّة فعل على الحملة البيزنطيّة.

وفي أوائل (ربيع الآخرة ٥٦٦هـ/ ديسمبر ١١٧٠م)، تحرّك صلاح الدين على رأس قوّاته من مصرَ إلى فلسطينَ؛ حيث وصل إلى قلعة الداروم، واستطاع إحكام الحصار حولها، وألحق بحاميتها أضرارًا بالغة[٥]. ويشير ابن الأثير إلى: أنّ عموري الأول قد اتجه إلى عسقلان إثر تحرّك صلاح الدين إلى فلسطين، فحشد قوّة عسكريّة عُدَّتُها مائتان وخمسون فارسًا، وألف من المشاة، تحرّك بهم إلى غزّة، وهناك حدثت مناوشات عسكريّة بينه وبين صلاح الدين، لم تُسفر عن حسم

١- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٩٢٩-٩٣٠. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣١٥.

٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٥١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٣٤٨٣.

٣- أبو شامة، كتاب الروضتين، ص١٨٠. انظر: العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٣٠.

٤- أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٥٠.

٥- ابن واصل، جمال الدين محمّد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م)، مُفرج الكروب في أخبار بني أيّوب، (٦ أجزاء)، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور وحسين محمّد ربيع، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م، ج٤، ص١٨٠، وسيشار إليه لاحقًا: ابن واصل، مُفرج. الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٩٤٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٤٨٥.

المعركة لصالح فريق من الفريقين، وإن كانت خسائر الصليبيّين أكثر[١]؛ لذا عاد الملك عموري الأول إلى عسقلان[٢]. ويرى مصطفى العسقلانيّ: أنّ " صلاح الدين يبدو أنه أزعجه اتّخاذ الصليبيّين عسقلان قاعدة عسكريّة ضد مصرَ؛ لذا دأب على إحداث متاعب لهم، وتحرّك مرارًا إلى بلاد الشام"[٣].

وفي (ربيع الثاني سنة ٥٧٢هـ/ أكتوبر ١١٧٦م)، يشير وليم الصوريّ إلى قدوم وليم مونتفرات إلى بلاد الشام بعد أن دعاه بلدوين الرابع ملك بيت المقدس للزواج من شقيقته تسبيلا، فأصبح وليم مونتفرات كونتًا لإقطاع يافا وعسقلان[٤].

وفي (جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ/ أواخر نوفمبر ١١٧٧م)، حشد صلاح الدين قوّة عسكريّة واتّجه بها إلى مدينتي الداروم وغزّة محاولاً الاستيلاء عليهما[٥]، وكان ذلك بعد أن عرف بتحرّك الصليبيّين إلى أنطاكية وتركهم المِنطقة الجنوبيّة لفلسطين[٦]. وفوجيء الداوية بهجوم صلاح الدين فقاموا يدافعون عن المدينتين، ممّا جعل صلاح الدين يتقدّم إلى مدينة عسقلان[٧]. لكنّ ابن كثير يرى أنّ صلاح الدين قد غزا الرّملة في هذا العام؛ حيث يقول: "وفي جمادى الأولى منها سار السلطان الناصر صلاح الدين من مصرَ قاصدًا غزو الفرنج، فانتهى إلى بلاد الرّملة فسبى وغنم"[٨]. ويقول سعيد عاشور إنّ هذا التحرّك لصلاح الدين قد أحدث مخاوف لدى الملك الصليبيّ

١- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٦٥.

٢- الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٩٥٠.

٣- العسقلانيّ، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٣١.

٤- الصوري، تاريخ الحلاوب الصليبيّة، ج٢، ص٩٨٨. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٦٦٢-٦٦٣.

٥- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٦٩. ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيّوب، ج٤، ص٢٠٣. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص١٧٥. ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٤٢.ابن كثير، البداية والنهاية،ج١٢، ص٣٥١٣.

٦- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٩٩٨. أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٢٧٥.

٧- الصوري، المصدر نفسه، ج٢، ص٩٩٨. ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨،ص٤٢. المقريزي، السلوك، ج١، ص١٧٥.

٨- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٥١٣.

بلدوين الرابع بسبب سوء أوضاع عسقلان الداخليّة لعدم وجود قوّة عسكريّة كافية بالمدينة؛ إذ لم تتعدّ نحو خمسمائة فارس(١).

ويروي المؤرّخ اللاتينيّ وليم الصوريّ أنّ الملك الصليبيّ بلدوين الرابع عند وصوله نبأ تحرّك صلاح الدين إلى عسقلان، أسرع إليها قبل وصول صلاح الدين؛ حيث حشد بلدوين قوّاته في بيت المقدس وتحرّك إليها استعدادًا للدّفاع عنها، كما شاركه الداوية والاسبتاريّة في الدفاع عن المدينة، غير أنّه لم تحدث سوى مناوشات عسكريّة قربها بين الجانبين(٢)، لكنّ صلاح الدين ترك عسقلان وتوجّه إلى مدينة الرّملة. وبحسب المقريزي: "اعترضه نهر تلّ الصافية في يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، فازدحم الناس بأثقالهم عليه وأشرف الفرنج عليهم في جموع كثيرة فانهزم المسلمون، وثبت السلطان في طائفة، فقاتل قتالاً شديدًا، واستُشهد جماعة وأخذ الفرنج أثقال المسلمين، فمرّ بهم في مسيرهم إلى القاهرة من العناء ما لا يوصف"(٣). وبذلك عاد صلاح الدين إلى مصرَ بعد أن وصل إلى مدينة عسقلان وهددها من غير أن يدخلها. ويُلحظ أنّ الصليبيّين كانوا على دراية بأهميّة عسقلان كمدينة ساحليّة بتحصيناتها الدفاعيّة وسعي صلاح الدين إلى الاستيلاء عليها، لذلك سرعان ما هبّ الملك الصليبيّ بلدوين الرابع لنجدة المدينة وعدم السماح للمسلمين بالوصول إليها.

وفي سنة (٥٧٢هـ/ ١١٧٧م) مات وليم مونتفرات بعد إصابته بالملاريا، فأعلنت زوجته وشقيقة الملك بلدوين الرّابع سبيلا عزمها على الزواج من جاي لوزجنان، وكان ذلك في سنة

١- عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص٧٥٧.

٢- الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٩٩٩.

٣- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص١٧٥-١٧٦.

(٥٧٦هـــ يوم عيد القيامة/ ١١٨٠م). وعلى إثر هذا الزواج أصبحت مدينة عسقلان بالإضافة إلى مدينة يافا إقطاعيتان تابعتان لجاي لوزجنان[١]. وقد أثار هذا الزواج غضب الملك بلدوين الرّابـــع لرفضه خضوع كونتيه يافا وعسقلان لجاي لوزجنان، ممّا أحدث نزاعًا بـــين الـــرّجلين. ويشـــير المؤرّخ وليم الصوريّ إلى أنّ هذا النزاع بين الرّجلين قد انعكس على مدينة عسقلان، بعد أن أعلن الملك بلدوين الرّابع الحرب على جاي لوزجنان لزواجه من سبيلا من غير موافقته، ورغب بلدوين الرابع في إرغام أخته على الطلاق واسترداد الإقطاعيّة لسيطرته، فأعلن جاي لوزجنان رفضه لذلك وتوجّه إلى مدينة عسقلان، ورفض جاي السماح للموظفين العاملين بعسقلان بـــدخولها[٢]. وعلـــى الرّغم من سوء حالة بلدوين الرابع الصحيّة فإنه توجّه إلى مدينة عسقلان بنفسه، في جمادى الآخرة (٥٨٠هــ/ سبتمبر ١١٨٤م)، فوجد أبوابها موصدة[٣].

وفي نهاية المطاف، تمكّن الملك بلدوين الرّابع من حسم نزاعه معَ جاي لوزجنان لصالحه، عندما تأكد جاي من ضعف موقفه وقرّر الرّحيل عن مدينة عسقلان إلى يافا، لتعود عسقلان إلـــى سيطرة حامية بيت المقدس الصليبيّة[٤]. يقول العسقلانيّ : "بعد قضاء الملك بلدوين الرّابـــع علـــى حركة جاي لوزجنان تفرّغ لمواجهة صلاح الدين؛ إذ توجّه في عام (٥٨٠هــ/ ١١٨٤م) معَ جموع كثيرة من الداوية والاسبتاريّة إلى عسقلان انتظارًا لمواجهة عسكريّة معه، خاصّة أنّ عسقلان قـــد حظيت باهتمام كليهما؛ لذا عمد بلدوين إلى الدفاع عنها، بينما سعى صلاح الـــدين إلـــى الســـيطرة عليها، وهذا يؤكّد أهميّة مدينة عسقلان في الصّراع الصليبيّ الإسلاميّ في إبّان هذه المدّة"[٥].

---

[١]- رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٦٨٥.
[٢]- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص١٠٧٤. انظر العسقلاني،عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الاسلامي،ص١٣٤.
[٣]- الصوري، المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٧٤.
[٤]- المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٧٦. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٦٩١.
[٥]- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٣٤.

تحريرُ صلاح الدين مدينةَ عسقلانَ سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)

استطاع صلاح الدين الأيّوبيّ تحقيق سلسلة انتصارات على القوات الصليبيّة، كان أبرزها انتصاره في معركة حطين في الرابع عشر ربيع الآخرة سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)[١]. ثمّ إنه بعد هذا الانتصار بدأ يولي المدن الساحليّة التي ما زالت في حوزة الصليبيّين اهتمامًا كبيرًا وخاصًا بهدف قطع الاتصال بين الصليبيّين في مدن الشام وأوروبا، وقد برزت أهميّة عسقلان كإحدى هذه المدن الساحلية المهمّة. ويؤكّد صاحب مؤلف مُفرج الكروب: "أنّ استيلاء صلاح الدين على مدينة عسقلان أهمّ من استيلائه على غيرها؛ لأنها على طريق الديار المصريّة، فإذا أخذت، أمنت الطريق واتصلت القوافل"[٢]. ويقول عاشور: "إنّ صلاح الدين الذي اختار أن يستولي أولاً على عسقلان، ذلك المركز المهم الذي طالما اتّخذه الصليبيّون قاعدة لتهديد مصرَ من ناحية، وقطع المواصلات بينها وبين الشام من ناحية أخرى"[٣]. لذلك أصبحت عسقلان في سُلّم أولويّات صلاح الدين بعد معركة حطين.

ثمّ إنّ صلاح الدين فشل في السيطرة على مدينة صور، "إذ اجتمع فيها أمم من الفرنج، فتملك عليهم وحُصن البلد"[٤]. ويصف الأصفهانيّ ذلك قائلاً: "وجاء إلى صور ناظرًا إليها (أي صلاح الدين) وعابرًا عليها، غيرَ مكترث بأمرها، ولا متحدّث في حصرها، ولا معتقد في تعقدها، ولا متئد في تورّدها، وعلم أيضًا أنّها ممتنعة، وعن سورها مرتفعة، فعمل بالحزم، وعمد إلى

١- ابن الاثير، الكامل في التاريخ،ج١١،ص٥٤٣.ابن واصل ،مفرج الكروب،ج٤،ص٢٣١. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١،ص٢٥٧.ابن تغرى بردى، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٠٢.ابن الوردي،تتمة المختصر في أخبار البشر،ج٢،ص٧٧. ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،ص١٤١٣.أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٧٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٥٣٤.

٢- ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٩.

٣-عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص٧٨٦.

٤- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢٢٠.

العزم، ودلّته الفراسة على أنّ محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالساحل بلد منها أحصن، فعطف الأعنة إلى ما هو منها أهون"[١]. وأعاد صلاح الدين التفكير مجدّدًا، في العودة إلى عسقلان، والسيطرة عليها، فكان ذلك في السادس عشر من جمادى الآخرة سنه (٥٨٣هـ/ الرابع والعشرين من أغسطس ١١٨١م).[٢]

لكنّ صلاح الدين كان على دراية بحصانة مدينة عسقلان، ومدى استعداد أهلها للدفاع عنها؛ لذلك اصطحب معه الملك جاي لوزجنان وجيراد مونتفورت مقدّم الداوية في دمشق ليعقد من خلالهما صفقة معَ سكان مدينة عسقلان بتسليمها مقابل تسليمهما[٣]. يقول خليل عثامنة إنّ: صلاح الدين أراد إطلاق الملك من الأسر في مقابل المدينة، لكنّ الطبقة البرجوازيّة من فرنجة المدينة رفضوا هذا العرض[٤]. ولمّا رفض أهل مدينة عسقلان دعوة صلاح الدين إلى تسليمهم إيّاها باشر في حصارها للاستيلاء عليها بالقوّة، واقترب منها ونصب المنجنيقات عليها[٥]، وبدأ النقابون في محاولة لخرق أسوارها، واستطاعوا فعلاً إحداث هدم وتخريب في أجزاء منها[٦]؛ فاضطرب أهل عسقلان وقلقوا خوفًا من أن ينجح صلاح الدين في اقتحام المدينة والثأر من حاميتها، وعلى الرّغم من ذلك فقد واصلوا دفاعهم عن المدينة رافضين تسليمها[٧].

١- الأصفهاني، العماد الكاتب، ت (٥٩٧هـ/ ١٢٥١م) الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمّد محمود، دون دار نشر، مكتبة الجامعة الأردنيّة، ص١١٢.

٢- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢١٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٤.

٣- يشير ابن خلدون إلى اصطحاب صلاح الدين الأسيرين من دمشق معه وأمرهما بالإذن للإفرنج بعسقلان في تسليمها فلم يقبلوا ذلك وأساءوا الردّ عليهما. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ص١٤١٥. انظر أيضًا: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٥٤٥. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٧٤٦.

٤- عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي (١١٨٧- ١٥١٦م)، مؤسسة الدراسات الفلسطينيّة، بيروت- لبنان، ابريل ط٢٠٠٦،١م، ص٩٨-٩٩، وسيشار إليه لاحقًا: عثامنة/ فلسطين.

٥- المقريزي، السوك لمعرفة دول الملوك، ج١،ص٢١٠

٦- ابن واصل، مُفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٣. أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٩١-٩٢.

٧- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ص١٣٧.

اشتدّ حصار صلاح الدين على المدينة المحاصرة، وبدأت المنجنيقات تمطرها بالحجـــارة، وانهارت المقاومة الصليبيّة بعد أسبوعين عندما أدرك المحاصرون أنّ بعض أجزاء السور علـــى وشك السقوط، وأنْ لا طائل ولا فائدة من مقاومتهم الحصار. وهذا ما جعلهم يقرّرون في النهايـــة تسليم المدينة إلى صلاح الدين بعد أن حصلوا منه على عهد الأمان لأنفسهم وأطفالهم وممتلكاتهم[١]. يقول ابن الاثير: "ألحّ الصليبيّون في طلب عهد الأمان لخوفهم من ثأر طائفة المهرانيّة منهم لقتـــل أميرهم"[٢]. وهكذا تسلّم صلاح الدين مدينة عسقلان ودخلها في يوم السبت ٢٩ جمـــادى الآخـــرة ٥٨٣هـــ/ ٤ سبتمبر ١١٨٧م[٣].

وعادت مدينة عسقلان إلى المسلمين ثانية بعد أن سيطر عليها الصليبيّون مدّة أربعة وثلاثين عامًا؛ أي منذ سنة ٥٤٨هـــ/ ١١٥٣م. يقول ابن شداد: "كان بين فتوح عسقلان، وأخذ الفرنجة لها من المسلمين، خمسة وثلاثون سنة"[٤]. وبعد أن دخلها صلاح الدين قرّر عقد اتفاقيّة مـــعَ حاميتهـــا الصليبيّة نجم عنها ترحيلهم بأموالهم ونسائهم إلى بيت المقدس[٥]. يقول سعيد عاشور إنّ جزءًا من أهل مدينة عسقلان الصليبيّين قد اقتيدوا إلى الدلتا؛ حيث قضوا فصل الشتاء في الإسكندريّة متمتّعين بحماية صلاح الدين ورعايته، حتى رحلوا إلى بلادهم في مارس من العام التالي[٦].

١- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٥٤٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٣. أبـــو شـــامة، الروضـــتين، ج٢، ص٦٢. العليمي، مجير الدين الحنبلي، (ت ٩٢٧هـــ/ ١٥٢١م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يـــونس ابـــو تبانـــة، مكتبـــة دنديس، ط١، عمّان، ١٩٩٩م، مج١، ص٤٧١-٤٧٢

٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٥٤٥.

٣- أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٩٢. ابن الأثير، المصدر نفسه، ج١١، ص٥٤٥. المقريـــزي، الســـلوك لمعرفـــة دول الملـــوك، ج١، ص٢١٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٥٣٩.

٤- ابن شداد، النوادر السلطانيّة، ص١٠٧.

٥- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٥٤٥. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص١٤١٥.

٦- عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص٧٨٦-٧٨٧. انظر أيضًا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٧٤٦.

ويشير روبرت كلاري إلى مسألة مهمّة في ما يتعلّق بتحرير مدينـــة عســـقلان وتســـليمها لصلاح الدين، وهي أنّ تسليمها قد جرى وَفقًا لما اتّفق عليه صلاح الدين وجاي لوزجنان؛ حيـــث أسر هذا الأخير بيد صلاح الدين عقب معركة حطين، وأعطى جاي وعدًا لصلاح الـــدين بتســـليم عسقلان مقابل إطلاق سراحه هو ومقدّم الداوية وبعض القادة الذين أُسروا في حطّـــين. ويبـــدو أنّ جاي طلب من حامية المدينة فعلاً تسليمها لصلاح الدين ففعلوا[١].

يرفض العسقلانيّ هذه الرواية جملة وتفصيلاً، معلّلاً ذلك بأسباب عدّة، أوّلهـــا: "أنّ جـــاي لوزجنان لم يفِ بوعده لصلاح الدين عقب إطلاق سراحه، بل كان أوّل شيء قام به هو الاســـتعداد لحرب صلاح الدين، فتوجّه إلى صور ومنها إلى عكا؛ حيث جمع بعض الفرسان لمحاربته، فكيف يطلب إلى حامية عسقلان تسليمها إلى صلاح الدين؟ وثانيها: لأنه حدثت داخل المدينة أحداث تؤكّد عدم صحّة ما ذهب إليه روبرت كلاري، ونعني بهذه الأحداث الانقسام الذي جـــرى بـــين حاميـــة المدينة وسكانها، بين مؤيّد لجاي لوزجنان ومعارض له بسبب نزاعه معَ بلدوين الرابع. وبذا فإنه لا بدّ أنّ الحزب المعارض لجاي كان سيرفض تسليم المدينة إذا طلب جاي ذلك. وثالثها: الدليل علـــى صحّة ما نقول، استمرار حامية المدينة في الدفاع عنها نحو أربعة عشرَ يومًا قبل أن تضطرّ إلـــى التسليم لصلاح الدين مُرغمة"[٢].

وبعد أن عادت مدينة عسقلان إلى حظيرة الدولة الإسلاميّة الأيّوبيّـــة، فـــوض الســـلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الأمور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين أبا محمد

١- كلاري، روبرت، فتح القسطنطينيّة، ترجمة عن الفرنسيّة: حسن حبشي، دار الكتب العربي، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م، ص٧٢. نقلاً عـــن العسقلاني، عسقلان ودورها، ص١٤٠.

٢- انظر: العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٣٩.

عبد الله بن عمر الدمشقيّ. ويقول عثامنة إنّ السلطان صلاح الدين انتدب الفقيه جمالَ الدين لولايتها وبناء مؤسّساتها الإداريّة والدينيّة[١]. ثمّ إنه بعد فتحها لم يبق في أيدي الفرنجة من المدن إلا بيت المقدس، فكتب السلطان صلاح الدين إلى بعض أهله مبشّرًا بفتح عسقلان يقول: "ونازلنا عسقلان... ونصبت أعلام التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعَمرت بالمسلمين وخلت من مشركيها وكفّارها وكبّر المؤذنون في أقطارها، ولم يبق في الساحل من جبل إلى أوائل حدود مصرَ سوى القدس وصور، والعزم مصمّم على قصد القدس فالله يسهّله ويعجّله، فإذا يسّر الله تعالى فتح القدس مِلْنا إلى صور والسلام"[٢].

وهكذا يكون صلاح الدين قد سيطر على قاعدة مهمّة وأساسيّة يمكن أن تكون نقطة انطلاق لقوّاته ضدّ الصليبيّين، وحلقة وصل لها بين مصرَ وبلاد الشام، إضافة إلى أنّ استيلاءه عليها يعني قطع الطريق على الصليبيّين وحرمانهم من ميناء كان يربطهم بالغرب الأوروبيّ. وفعلاً، فقد أشارت بعض المصادر إلى أنّ صلاح الدين قد وجّه من مدينة عسقلان بعض قوّاته للإغارة على المدن المجاورة التي ما زالت حينذاك في حوزة الصليبيّين؛ حيث أسرت وسبت وحازت على بعض الغنائم[٣]. ويشير ابن الأثير إلى أنه: أعقب ذلك بفتح الرّملة والداروم وغزّة وبيت لحم وبيت جبريل ودأبت سراياه على الإغارة على الجهات المجاورة[٤].

عسقلانُ بعد عودتها إلى الحكم الإسلاميّ

---

[١]- انظر: عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي، ص٩٨-٩٩.

[٢]- عثامنة، فلسطين في العهدين الايوبي والمملوكي، ص٩٩.

[٣]- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٥٤٦. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢١٠. ابن شداد، النوادر والمحاسن اليوسفيّة، ص٨١. ص٥٤٦.

[٤]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٥٤٦.

ما لبثت مدينة عسقلان أن عادت إلى سيطرة الحكم الإسلاميّ الأيّوبيّ عليها حتى أضحت مجدّدًا قاعدة متصارعًا عليها بين المسلمين والصليبيّين، فمنها أرسل صلاح الدين الأيّوبيّ قوّاته العسكريّة لتحرير بيت المقدس(١)، وأصبح ميناؤها نقطة انطلاق وتجمّع لقوّاته؛ حيث استقبل السفن التي كان صلاح الدين يحرص على مشاركتها في العمليّات العسكريّة في البحر من ناحية، ونقل العتاد والمؤن والمحاربين من ناحية أخرى(٢). وكذا فإنّ الصليبيّين لم يتوانوا عن استرداد المدينة، واستمرّت جهودهم في هذا السبيل حثيثة؛ حيث حاولوا ذلك في العام نفسه الذي سلّموها فيه (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، فأرسلوا بعض فرقهم العسكريّة للإغارة عليها(٣)، إلا أنّ صلاح الدين تصدّى لهم وأجبرهم على التراجع عنها. وفي سنة (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) أمر صلاح الدين ابنه الأفضل بتحصين عسقلان والعناية بدفاعاتها(٤).

وبعد سقوط بيت المقدس وتحريرها على يد صلاح الدين في يوم الجمعة الواقع في (٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ٢ أكتوبر ١١٨٧م)؛ أي بعد ٨٨ سنة من رزوحها تحت السيطرة الصليبيّة، بدأ ناقوس الخطر يدقّ في أوروبا، وكانت النتيجة أن تحرّك الصليبيّون في إرسال ما يعرف بالحملة الصليبيّة الثالثة، كان من قادتها الملك ريتشارد قلب الأسد، وكما كان لهذا الملك طموح في استرداد بيت المقدس، كان له أيضًا طموح في إعادة السيطرة على مدينة عسقلان، التي سنرى لها أهميّة كبرى في سياق هذه الحملة.

١- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢١٠

٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٥٤٦.

٣- ابن واصل، مُفرج الكروب في أخبار بني أيّوب، ج٢، ص٢٣٥.

٤- أبو شامة، كتاب الروضتين، ج٢، ص٩٣.

وكانت أولى محاولات ريتشارد قلب الأسد لاسترداد عسقلان في يوم الأحد (أوّل شعبان ٥٨٧هـ/ ٢٦ أغسطس١١٩١م)؛ حيث أرسل قوّاته من عكّا إلى أرسوف ومنها إلى عسقلان، في الوقت الذي خرج فيه صلاح الدين من عسقلان قاصدًا أرسوف[١]. يقول المقريزي: "ولّما أهلّ شعبان، سار الفرنج إلى عسقلان، ورحل السلطان (صلاح الدين) في إثرهم، وأوقعهم في رابع عشرة بأرسوف، فانهزم المسلمون وثبت السلطان إلى أن اجتمع عليه المسلمون وعاد إلى القتال، حتى التجأ الفرنج إلى جدران أرسوف"[٢].

وقد كان لمعركة أرسوف الأثر المهم في طبيعة الصّراع الصليبيّ – الإسلاميّ، وكان لانتصار الصليبيّين فيها نتائج بالغة الخطورة؛ حيث بعث الأمل في نفوسهم، وأعاد إليهم ثقتهم بأنفسهم بعد سلسلة من الهزائم التي تعرّضوا لها، وكان نقطة تحوّل مهمّة في الصّراع بين الطرفين؛ إذ مال ميزان القوى لصالحهم مدّة ستين عامًا[٣]. وكان التأثير الأكبر في هذه المعركة في مدينة عسقلان عندما تأكّد صلاح الدين من إمكانية استيلاء الصليبيّين عليها، ففكر في تدميرها وحرقها لئلا يستفيد الصليبيّون منها[٤].

ولم يكن تفكير صلاح الدين في التخريب والتدمير يتوقّف عند مدينة عسقلان؛ إذ أصدر أوامره بتدمير مدن الساحل الفلسطينيّ، من مثل: قيساريّة وأرسوف ويافا، بالإضافة إلى طبريا القريبة من الطريق السلطانيّة بين شماليّ فلسطين ومدينة دمشقَ. وقد دكّ صلاح الدين حصون هذه

١- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٦٩. ابن تغري بردي، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٦، ص٤٥.

٢- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢١٩.

٣- انظر: عاشور سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص٨٤٢.

٤- ابن شداد، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، ص١٨٧.

المدن كي لا تتحوّل إلى موطىء قدم حصين ينطلق منه الصليبيّيون لاسترداد ما فقدوه من مواقع داخل فلسطين كما حدث لمدينة عكّا، وكان قراره بهذا الشأن نابعًا على ما يبدو من إدراكه رجحان كفّة الفرنجة العسكريّة على كفّة المسلمين، ومن اقتناعه بعدم قدرة المسلمين عسكريًّا على التصدّي للهجمة العنيفة التي أفرزتها الحملة الصليبيّة الثالثة التي كان احتلال عكّا باكورة إنجازاتها[١].

غيرَ أنّ قرار صلاح الدين بإحراق مدينة عسقلان وتدميرها لم يلقَ ارتياحًا عند بعض قادة صلاح الدين، وكذا لم يلقَ الشيء نفسه عند صلاح الدين؛ لأهميّة مدينة عسقلان وأهميّة دفاعاتها وتحصيناتها، ويتّضح ذلك في إشارة ابن شداد؛ إذ يقول إنّ صلاح الدين أدّى صلاة الاستخارة ثمّ انتهى الأمر بتنفيذ القرار، على الرّغم من إعلانه أنّ: موت أحد أبنائه أحبّ إلى نفسه من تخريب عسقلان"[٢]. لكنّ صلاح الدين اتّخذ هذا القرار مُكرهًا ومضطرًّا بعد أن عرف عجز قوّاته عن الاحتفاظ بالمدينة[٣]، معَ إصرار ريتشارد قلب الأسد ورغبته الملحة في الحصول على مدينة عسقلان واتخاذها قاعدة عسكريّة[٤]؛ لتكون عسقلان عندئذ نقطة انطلاقه ضدّ مصرَ وبيت المقدس، ويسيطر بها على الطريق بين الشام ومصر[٥].

يقول عثامنة في اتخاذ صلاح الدين قرار حرق مدينة عسقلان وتدميرها: بعد أن خسر صلاح الدين مدن الساحل جميعها باستثناء عسقلان: "هنا حدث التحوّل في استراتيجيّته، فعوضًا عن الاحتفاظ بالساحل الفلسطينيّ جعل همّه كلّه منصبًّا على الاحتفاظ بمدينة القدس، التي شكّلت واسطة

١- عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي (١١٨٧- ١٥١٦م)، ص١١٤.

٢- أبو شامة، كتاب الروضتين، ج٢، ص١٩٢. ابن شداد، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، ص١٨٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٥٥٣. رستون، مقاتلون في سبيل الله صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد، ص٣٢٧-٣٢٨.

٣- ابن واصل، مُفرج الكروب في أخبار بني أيّوب، ج٢، ص٣٦٩.

٤- انظر: العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٤٣.

٥- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٦٩. أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٩٢. ابن شداد، النوادر السلطانيّة، ص١٨٦.

العقد في إنجازات الحرب التحريريّة التي قادها حتى هذه اللحظة. وبما أنه كـان يـدرك الأهميّـة العسكريّة لمدينة مثل عسقلان، فقد كان يدرك أيضًا أهميّة الدور الذي قد تؤدّيه في خطط الفرنجـة للاستيلاء على القدس من ناحية، وما يمثله احتلالها والتحصّن فيها من دور فـي قطـع الاتصـال جغرافيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا بين مصرَ وفلسطين من ناحية أخرى"[١]. ويضيف عثامنة: "إنّ صلاح الدين قد قرّر بعد هزيمة أرسوف أن يدمّر المدينة كي لا تصبح قاعدة ينطلق منها الفرنجة لتحقيـق أهدافهم، وجاء قرار الهدم إثر أخذ ورد بينه وبين قادة جيشه ومستشـاريه بعـد أن أيقـن هبـوط معنويّاتهم وغياب روح الجهاد والتضحية التي كانت دائمًا الدافع لدى معظمهم إلى خوض معركـة التحرير"[٢].

وفعلاً، فقد باشر المسلمون بتخريب مدينة عسقلان وحرقها في (التاسع عشر مـن شـعبان ٥٨٧هـ/ الثالث عشر من سبتمبر ١١٩١م)، بعد أن أمر صلاح الدين بإخبار الأهالي عن عزمـه بحرق المدينة، كما عهد إلى كلّ أمير ومجموعة من الجنود بهدم برج معـيّن فيهـا[٣]. ويصـف المقريزيّ ذلك قائلاً: "ورحل السلطان في تاسع عشرة ونزل على عسقلان يريد تخريبها لعجزه عن حفظها، ففرّق أبراجها على الأمراء، ووقع الضجيج والبكاء في الناس أسفًا وغمًّا لخرابها، وكانـت من أحسن البلاد بناء وأحكمها أسوارًا وأطيبها سكنًا. فلم يزل التخريب والحريق فيهـا إلـى سـلخ شعبان"[٤].

---

[١]- عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي (١١٨٧- ١٥١٦م)، ص١١٥.

[٢]- المرجع نفسه، ص١١٥.

[٣]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٧١. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢١٩. ابن كثيـر، البدايـة والنهايـة، ج١٢، ص٣٥٣-٣٥٤.

[٤]- المقريزي، السلوك ، ج١، ص٢١٩.

ويصف ابن كثير تخريب عسقلان فيقول: "ثمّ طلب الولاة وأمرهم بتخريب البلد سريعًا قبل وصول العدوّ إليها، فشرع الناس في خرابه، وأهله ومن حضره يتباكون على حسنه وطيب مقيله، وكثرة زروعه وثماره ونضارة أنهاره وأزهاره، وكثرة رخامه وحسن بنائه، وألقيت النار في سقوفه وأتلف ما فيه من الغلات التي لا يمكن تحويلها ولا نقلها، ولم يزل الخراب والحريق فيه من جمادى الآخرة إلى سلخ شعبان من هذه السنة"[١].

إنّ إقدام صلاح الدين على خطوة كهذه في تخريب مدينة مثل عسقلان وحرقها، ليس بالأمر السهل واليسير عليه وعلى المسلمين، ويمكن عَدُّ هذه الخطوة عسكريّة أمنيّة بالدرجة الأولى؛ لكي لا يسيطر عليها الصليبيّون وتتحوّل إلى قاعدة عسكريّة لهم تهدّد المسلمين في مصرَ وبيت المقدس. لكن من جانب آخرَ نلحظ أنّ مدينة عسقلان كانت ضحيّة هذا الصّراع على شريط الساحل، وأنها قد دفعت ثمنًا باهظًا نتيجة ذلك، ليس فقط في هذه المرحلة من الحملة الصليبيّة الثالثة وإنما منذ بداية الحملات الصليبيّة على المشرق، لا بل أيضًا قبل ذلك؛ وهذا راجع إلى أهميّة موقعها ودورها على مرّ قرن من الزّمن في ظلّ هذا الصّراع كقاعدة عسكريّة سعى الطرفان على الدوام إلى السيطرة عليها.

وحول موقف الصليبيّين من حرق مدينة عسقلان وتخريبها يتبيّن أنّ ريتشارد قلب الأسد لم يبادر فعلاً بالسير إلى عسقلان لوقف هذا التخريب، على الرّغم من أنه كان يدرك أهميّة هذه المدينة في الصّراع الدائر بينه وبين صلاح الدين. ولا شكّ في أنّ تباطؤ ريتشارد في السير إليها مدّة

---

[١]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٥٥٣-٣٥٥٤.

أسبوعين قد أعطى المسلمين فرصة طيّبة لإنجاز المَهَمّة بنجاح؛ إذ جرى تخريب المدينة فعلاً بحيث لا يستطيع الصليبيّون أن يستفيدوا من تحصيناتها.

ويذكر العسقلانيّ نقلاً عن مصدر لاتيني[١] لم تتوافر لدينا أنه جرى خلاف داخل صفوف الصليبيّين حول الإسراع باتجاه عسقلان ومنع حرقها وتخريبها بين فريقين؛ الأول: كان على رأسه ريتشارد قلب الأسد وبعض القادة، الذين رأوا الإسراع في الذهاب إليها لوقف تخريبها بهدف الإفادة منها كنقطة انطلاق إلى مصرَ من ناحية، وكمدينة مهمّة تؤمّن طريق الحُجّاج إلى بيت المقدس من ناحية أخرى، أمّا الفريق الآخر من القادة فرأى ضرورة التوجّه إلى يافا أوّلاً لأنّها في رأيهم أهمّ من عسقلان على طريق الحُجّاج إلى بيت المقدس، ثمّ التوجّه من يافا إلى بيت المقدس[٢].

لقد تركت عمليّة تخريب عسقلان أثرًا سلبيًّا في سكّان مدينة عسقلان، سواء على المستوى الاجتماعيّ أم الاقتصاديّ؛ إذ سبّب لهم ذلك ضيقًا شديدًا بعد أن أُجبِروا على ترك ديارهم[٣]، وبيع ممتلكاتهم بأبخس الأثمان، وتدمير أسوار المدينة وإتلاف زراعاتها وأشجارها، الأمر الذي دفع أهلها إلى الرّحيل إلى مصرَ[٤]. على الرّغم من إشارة ابن شداد إلى مشاركة بعضهم في إحراق برج الاسبتار تحت قيادة الأفضل بن صلاح الدين، بإحضارهم الأخشاب اللازمة للحريق والمساهمة في

١- لم يتوفر لنا الحصول على هذا المرجع. وهو Geoffrei de vinsauf,Grusades of Richard de lion, in chronise les of the cruaades (London,١٨٤٨)

٢- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٤٥.

٣- أبو شامة، كتاب الروضتين، ج٢، ص١٩٢.

٤- ابن شداد، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، ص١٨٧.

وضعها في الأماكن المُراد إشعالها ووضع النيران فيها[١]. إضافة إلى قذفهم الحجارة ورميها في البحر؛ لكي لا يتمكّن الصليبيّون من استخدامها في تحصين المدينة مرّة أخرى[٢].

سقوط عسقلان بأيدي الصليبيّين ثانية

بعد أن تمّ تخريب مدينة عسقلان وحرقها على يد صلاح الدين، أدرك ريتشارد قلب الأسد ومن كان معه من القادة أهميّة هذه المدينة كنقطة انطلاق لا بدّ من استخدامها لاسترداد بيت المقدس، بالإضافة إلى أهميّة مينائها كنقطة اتصال معَ الإمدادات العسكريّة القادمة من أوروبا؛ فأعلن ريتشارد قلب الأسد في مؤتمر سنة (٥٨٧هـ/ ١١٩١م) أنّ عسقلان ويافا سوف تصبحان ملكًا لجيوفري لوزجنان شقيق جاي لوزجنان، وذلك بعد أن يجري تحصينهما وإعادتهما إلى ما كانتا عليه من قبل[٣]، على أن يلتزم جيوفري بواجبات الإقطاع، وربما هدف ريتشارد من هذا الإعلان إلى تشجيع الصليبيّين وشحذ هممهم لإعادة يافا وعسقلان إلى حالتهما السابقة من حيثُ الحصانة، وفي الوقت نفسه وضع جيوفري لوزجنان أمام مسؤوليّاته للنهوض بهذه المَهَمّة[٤].

قرّر ريتشارد قلب الأسد السير على رأس جيشه لإعادة إعمار مدينة عسقلان وتحصينها بعد أن وجد حماسة من بعض قادته، خاصّة جيوفري دي لوزجنان، فضلاً عن الداوية والاسبتاريّة[٥]، إلا أنّه قد تعرّض في أثناء مسيره إليها لمشاقّ ومتاعب جمّة بسبب النقص في قوّاته من ناحية، ولتعرّض المِنطقة حينئذ لعواصف شديدة وسقوط أمطار غزيرة من ناحية أخرى،

---

[١]- ابن شداد، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، ص١٨٨.

[٢]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٧١. ابن شداد، المصدر نفسه، ص١٨٨.

[٣]- انظر: العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٤٧.

[٤]- العسقلاني، عسقلان ودورها، ص١٤٧-١٤٨.

[٥]- رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٣، ص١٢١-١٢٢.

وخطورة استخدام البحر في نقل الجنود من ناحية ثالثة. يقول خليل عثامنة في ذلك: "لم يجد (قلب الأسد) في طريقه حصناً أو بلدًا يأوي إليه هو وجيشه"[١]؛ وذلك بالطبع نتيجة قيام صلاح الدين بحرق وتدمير معظم المدن الساحليّة التي توقع استخدام الصليبيّين لها.

ووصل ريتشارد قلب الأسد إلى عسقلان في (الثالث محرم ٥٨٨هـ/ فبراير ١١٩٢م)[٢]، وكانت المدينة خالية مهجورة على إثر ما حلّ بها، ليس فيها إلا حامية قليلة العدد قد تركها صلاح الدين للدفاع عنها، ويذكر منها المقريزيّ جماعة تدعى الأسديّة، فيقول: "نزل الفرنج على ظاهر عسقلان؛ لقصد عمارتها، فما مكّنوا، ووقعهم جماعة من الأسديّة منهم يازكج وغيره"[٣]، فأعمل في بعضهم القتل وأسر نحو ثلاثين أسيرًا[٤]. وقد أشار ابن الأثير إلى تلكؤ وتقاعس صلاح الدين في الدفاع عن مدينة عسقلان واتخاذه موقفاً سلبيًّا من هجوم الصليبيّين عليها[٥]؛ وذلك لأنّه قد قرّر التحصّن في مدينة بيت المقدس والاستعداد فيها لمواجهة الصليبيّين؛ لأنّه كان على علم بمسعاهم لاسترداده.

وكان ريتشارد قلب الأسد قد أرسل في (٤ محرم ٥٨٨هـ/ ٢ فبراير ١١٩٢م) إلى ملك فرنسا يستدعيه إلى مدينة عسقلان، فوجد منه ترحيبًا لذلك. وبدأت القوّات الفرنسيّة في الوصول إلى عسقلان لمشاركة ريتشارد الهجوم عليها[٦]، وبدأ الصليبيّون يتّجهون نحو أسوار المدينة وكلهم رغبة في إنجاز هذا العمل في أسرع وقت ممكن؛ لذا جرى تقسيمهم إلى مجموعات اتّجه أغلبها

١- عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي (١١٨٧- ١٥١٦)، ص١١٦.
٢- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢٢٣.
٣- المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٣.
٤- ابن شداد، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، ص٢١٠. انظر أيضًا: المقريزي، المصدر نفسه، ص٢٢٣.
٥- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٧٢-٧٣.
٦- رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٣، ص١١٩. العسقلاني، المرجع نفسه، ص١٥١.

نحو البوابة الرّئيسة، ثمّ حفر الصليبيّون عددًا كبيرًا من الخنادق امتدّت بطـــول البوابـــات لتمنـــع المسلمين من الوصول إليهم وتؤمّنهم خلال العمليّات العسكريّة[١].

وتشير بعض المصادر الإسلاميّة إلى دور الحامية الإسلاميّة قليلة العدد التي تركها صلاح الدين في مدينة عسقلان لحمايتها، وإلى دورها في الدفاع عنها؛ حيث أظهرت مقاومة باسلة تجـــاه هجوم ريتشارد وجيشه الصليبيّ، لكنها في النهاية أدركت عبث هذه المقاومة ضدّ جحافل الصليبيّين، فآثرت تدمير ما في حوزتها من أسلحة حتى لا تقع في أيدي الصليبيّين[٢]. ومن ثمّ استسلمت لهـــم، وكان من الطبيعيّ أن تستسلم نظرًا إلى الأسباب الآتية:

١) قلّة عدد الحامية الإسلاميّة وضف عتادها في المدينة، وكثرة عدد الصليبيّين وعتادهم.

٢) لم تساعد أسوار المدينة ولا تحصيناتها الحامية الإسلاميّة على الاحتماء فيها لاستمرار مقاومة الصليبيّين. وقد أشار الأصفهانيّ في هذا السياق إلى محاولة الحامية الاحتماء بما بقـــي مـــن أسوار المدينة، وذكر أنّ ريتشارد قلب الأسد دمّر ما تبقّى من أسوار منها[٣].

٣) لم تصل أيّ قوّات إسلاميّة أو أيّ إمدادات من صلاح الدين الأيّوبيّ في بيت المقدس إلى مدينة عسقلان لنجدة الحامية الإسلاميّة هناك، وهذا ما جعل رجال الحامية يشعرون بـــأنّ عســـقلان واقعة بأيدي الصليبيّين لا محالة، ومن ثَمّ فقد دفعهم ذلك إلى الاستسلام.

١- رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٣، ص١١٩.

٢- الأصفهاني، عماد الدين محمّد بن محمّد بن حامد (ت ٥٩٧هـــ/ ١٢٠١م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمّد محمود صـــبيح، مطبعة الموسوعات، القاهرة، ط١، ١٩٦١م، ص٣٠٣، وسيشار إليه لاحقًا: الأصفهاني، الفتح. انظر أيضًا: العليمـــي، محيـــي الـــدين الحنبلي، (ت ٩٢٧هـــ/ ١٥٢٦م)، الأنس الخليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس أبو تيان، مكتبة دنديس، عمـــان، الطبعـــة الأولى، ١٩٩٩م، مج ١، ص٥٢٦-٥٢٧، وسيشار إليه لاحقًا: العليمي، الأنس.

٣- الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص٣٠٣.

٤) وجد أفراد الحامية الإسلاميّة أنّ الاستسلام للصليبيّين مقابل الحصول على الأمان هو الخيار الأنسب؛ تجنّبًا لخسائر في الأرواح بينهم أو وقوعهم في الأسر. غيرَ أنّهم كانوا واهمين في ذلك؛ إذ عندما استولى ريتشارد على عسقلان نكل بهم وأمر بضرب رقابهم[١].

وبذلك سقطت مدينة عسقلان مرّة أخرى بأيدي الصليبيّين من غير مقاومة حقيقيّة، كما كان في المرّة الأولى عندما استولى عليها الصليبيّون، ودخل إليها ريتشارد قلب الأسد في (جمادى الأولى ٥٨٨هـ/ يونيو ١١٩٢م)[٢].

وما إن استولى قلب الأسد على مدينة عسقلان حتى بادر إلى ترميمها وإعادة إعمارها[٣]، فبدأ بالبوابات أولاً، وجهد الصليبيّون في نقل الحجارة اللازمة لهذه العمليّة، واضطروا إلى استخدام الخيول في ذلك[٤]، كما أظهروا همّة عظيمة. وشاركت الإمارات الصليبيّة الأخرى في هذا العمل من خلال إرسال الإمدادات والرّجال ومستلزمات البناء والترميم، ولم يتقاعس أحد عن ذلك لإدراك الجميع أهميّة عسقلان في الصّراع الدائر معَ صلاح الدين، ولمحاولة منعه من الاتصال بمصرَ أو اتخاذ عسقلان قاعدة لتهديد أملاكهم في الشام[٥]. وقد بذل ريتشارد قلب الأسد جهدًا كبيرًا في إعادة تحصين أبراج عسقلان؛ بسبب كثرتها العدديّة إذ بلغت ثلاثة وخمسين برجًا. فضلاً عن البرج الذي عرف ببرج الاسبتار، الذي استغرق تحصينه أكثر من ثلاثة أشهر[٦].

١- الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص٣٠٣. العليمي، الأنس الخليل بتاريخ القدس والخليل، مجلد ١، ص٥٢٧.

٢- المصدر نفسه، ص٣٠٤. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٣، ص١٢٢.

٣- عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي (١١٨٧- ١٥١٦م)، ص١١٦.

٤- رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة ج٣، ص١٢٢-١٢٣. العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٥٣.

٥- المرجع نفسه، ج٣، ص١٢٣. العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٥٣.

٦- برافور، ماتي، أشكلون هعير- روزنوت أشكلون- بتكوفاه هتسلفنيت، هحفراة لحكيرات آرنست يسرائيل فعتيكوت. أورشليم ط١، ١٩٥٨م، ص٢٢٦ وسيشار إليها لاحقًا: برافور، أشكلون.

يقول مصطفى العسقلانيّ إنّ عمليّة تحصين عسقلان سارت جنبًا إلى جنب معَ عمليّة الاستيلاء عليها؛ حيث شرع الصليبيّون بإعادة تحصينها، بينما كانوا ما يزالون يهاجمون جيوب المقاومة الإسلاميّة فيها، ويحاولون القضاء على مقاومة الحامية الإسلاميّة. ممّا يؤكّد أنهم أرادوا ألا يضيعوا وقتًا طويلاً في ذلك، خاصّة وأنّهم كانوا على ثقة من عبث مقاومة الحامية الصغيرة في المدينة(١).

١- العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٥٤.

عسقلان ومفاوضات الصلح

صلح الرّملة (٥٨٨هــ/١١٩٢م)

بعد أن تمّ للصليبيّين الاستيلاء على عسقلان، بدأ ريتشارد قلب الأسد باستخدامها لخدمة الحُاّج الصليبيّين؛ فقد أدخل في (جمادى الأولى ٥٨٨هــ/يونيو ١١٩٢م) مجموعة من النبلاء عهد إليهم بحماية الحُجّاج، وتأمين الطرق الموصلة إلى بيت المقدس، كما أرسل إمداداتٍ عسكريّةً من عسقلان إلى المدن الصليبيّة.[١] ويشير سعيد عاشور إلى أنّ ريتشارد قلب الأسد بعد فشل مفاوضاته معَ صلاح الدين باشر بترميم مدينة عسقلان،واتخذها ومعها الداروم من أجل قطع الطريق بين بلاد الشام ومصر.[٢]

كان أكثر ما تجلّى فيه دور مدينة عسقلان وأهميّتها قد برز من خلال المفاوضات التي دارت بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد. ولم تكن تلك المفاوضات تدور على مدينة عسقلان فقط، لكنّ عسقلان كانت حجر الأساس فيها؛ إذ إنّ الظروف التي كان يمرّ بها صلاح الدين وقلب الأسد دفعت بهما إلى التفكير في عقد هدنه لوقف القتال؛ فظروف صلاح الدين السياسيّة والعسكريّة قد ساءت بعد الخسارة التي أحيقت به على أيدي الصليبيّين، وخسارته مدنَ الساحل في فلسطين، فكان لا بدّ من المهادنة معَ الصليبيّين من أجل التقاط الأنفاس وتجديد القوى. وكذا فإنّ حال الصليبيّين لم تكن أفضل من حال المسلمين؛ فعلى الرّغم من الانتصارات التي حقّقها ريتشارد قلب الأسد في حملته الصليبيّة الثالثة، فإنّه كان يواجه مشكلاتٍ داخليّة؛ إذ إنّ وحدة الصليبيّين في بلاد الشام كانت مهدّده بسبب الخلاف المستحكم بين كونراد دي مونتفرات وجاي لوزجنان على مناصب

١- رنسيمان، ستيف. تاريخ الحروب الصليبيّة. ج٣، ص١٣٧.

٢- عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٨. ص٨٥٥.

إداريّة في الإمارات الصليبيّة التي أُسّست هناك[١]، بالإضافة إلى الأخبار السيّئة التي كانت ترد إلى ريتشارد قلب الأسد من إنجلترا تطلب إليه الإسراع في الرحيل إليها[٢]. لذلك رغب ريتشارد قلب الأسد في الوصول إلى صلاح الدين ومهادنته قبل العودة إلى بلاده.

وعلى إثر هذه الظروف التي واجهها الطرفان، سعى كلّ منهما إلى عقد الهدنة معَ حرص كلّ طرف على بقاء مدينة عسقلان تحت سيطرته وعدم تسليمها للطرف الآخر، ولذلك كانت عسقلان أحد أسباب تعثّر هذه المفاوضات في البداية؛ ففي يوم الجمعة (٢٦ جمادى الآخرة ٥٨٨هـ/٣١ يونيو ١١٩٢م)، أرسل ريتشارد قلب الأسد رسالة إلى صلاح الدين الأيّوبيّ، يبدي فيها رغبته في كسب صداقته، ويدعوه للتعايش في سلام معَ الصليبيّين حَقنًا لدماء الصليبيّين والمسلمين جميعًا، ويعلمه كذلك بأنّه عازم على ترك ابن أخته هنري دي شامبني حاكمًا في الشرق بعد رحيله إلى أوروبا، ويطلب كذلك منه السماح له ببناء الكنائس للمسيحيّين في بلاد الشام.[٣]

لم يمانع صلاح الدين، ولم يُخْفِ رغبته في التفاوض معَ ريتشارد قلب الأسد، فاستشار في ذلك كبار رجاله، ومنهم من دعمه وشجّعه على المفاوضات؛ حيث وجد منهم صلاح الدين ميلاً للسلام[٤]، ومنهم من اختلف عليه، وأسمعه كلامًا جافيًا"[٥]، إلا أنّ صلاح الدين وافق في النهاية على التفاوض، وقدّم خطّة للصلح تقوم على أساس فتح صفحة جديدة في العلاقات، والسماح للفرنج بالحجّ وزيارة كنيسة القيامة، إضافة إلى موافقته على احتفاظ ريتشارد قلب الأسد بما استولى عليه

١- للتفصيل في طبيعة هذا الخلاف. انظر: سعيد عاشور.الحركة الصليبية. ص٨٤٨-٨٥٢. انظر أيضًا: رنسيمان. تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٣، ص١٣٨.

٢- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٨٦. انظر أيضًا: رنسيمان، المرجع نفسه، ج٣، ص١٣٩.

٣- انظر: ابن شداد، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، ص٢١٩

٤- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٨٦، ابن شداد، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، ص٢١٩.

٥- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢٢٤.

من مدن الساحل، في الوقت الذي يبقى للمسلمين ما استولوا عليه من المدن، على أن تكون بعض المواقع مناصفة بين المسلمين والصليبيّين. أمّا عسقلان فقد تمسّك بها صلاح الدين.[١]

إلا أنّ هذه المراسلات الأوليّة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، التي دارت في (جمادى الآخرة ٥٨٨هـ/ يونيو ١١٩٢م) قد تعثّرت، وكانت مدينة عسقلان سببَ تعثّرها؛ فقد تمسّك ريتشارد قلب الأسد بها؛ لكثرة ما بذل وضخامة ما صرف في إعادة تحصينها[٢]، بالإضافة إلى يافا؛ لأنّ ذلك سوف يضمن له بسط سلطانه ونفوذه على كامل ساحل بلاد الشام. يقول ابن شداد: "ليوفر ملكه من صور حتى قيساريّة".[٣]

وقد أورد ابن كثير نصّ هذه المفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، وفيه يظهر دور مدينة عسقلان في تعثّر هذه المفاوضات؛ حيث يقول: "وتردّدت الرّسل من الإنكليز إلى السلطان في طلب الأمان ووضع الحرب بينه وبينهم ثلاث سنين، وعلى أن يعيد لهم عسقلان ويهب له كنيسة بيت المقدس وهي القمامة (القيامة)، وأن يمكّن النصارى من زيارتها وحجّها بلا شيء، فامتنع السلطان من إعادة عسقلان وأطلق لهم قمامة، وفرض على الزوّار مالاً يؤخذ من كلّ منهم، فامتنع الإنكليتير إلا أن تعاد إليهم عسقلان، ويعمّر سورها كما كانت، فصمّم السلطان على عدم الإجابة. ثمّ ركب السلطان حتى وافى يافا فحاصرها حصارًا شديدًا، ففتتحها وأخذوا الأمان لكبيرها وصغيرها، فبينما هم كذلك إذ أشرفت عليهم مراكب الإنكليتير على وجه البحر، فقويت رؤوسهم

١- ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيّوب، ج٢، ص٣٩٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٣٥٥٧.

٢- رنسمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٣، ص١٣٩.

٣- ابن شداد، النوادر السلطانيّة، ص٢٢٢.

واستعصت نفوسهم، فهجم اللعين فاستعاد البلد وقتل من تأخّر بها من المسلمين صبرًا بين يديه...، ثمّ ألحّ في طلب الصلح وأن تكون عسقلان داخلة في صلحهم، فامتنع السلطان".(١)

وتشير بعض المصادر الإسلاميّة إلى أنّ ريتشارد قلب الأسد، بعد تعثّر مفاوضاته معَ صلاح الدين توجّه إلى عسقلان وفيها ساءت حالته الصحيّة وأصيب بالمرض، وطلب من صلاح الدين أن يبعث إليه ببعض الفاكهة والثلج(٢). يقول ابن شداد: "إنّ صلاح الدين قد لبّى له طلبه، عندها باشر رتشارد قلب الأسد في استئناف المفاوضات ثانية، وقد أبدى صلاح الدين رغبته في استئناف المفاوضات معَ ريتشارد عندما عرف ظروف الصليبيّين وإصرار ريتشارد على استئنافها. فضلاً عن ظروف صلاح الدين والبلبلة التي دبّت في صفوف جيشة في أثناء حصار يافا في معركته معَ الصليبيّين، التي وقعت بعد أن تعثّرت المراسلات الأولى في العام نفسه؛ حيث ظهرت حالة أشبه بالعصيان داخل صفوف الجيش، وفي ذلك يقول ابن كثير: "فلم يتقدّم إليه أحد من الفرسان، ولا نهره بطل من الشجعان، فعند ذلك كرّ السلطان راجعًا، وقد أحزنه أنّه لم يرَ من الجيش مطيعًا. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولو أنّ له بهم قوّة لما ترك أحدًا منهم يتناول من بيت المال فلسًا"(٣)، فكان هذا الموقف كفيلاً بأن يفكّر صلاح الدين في استئناف المفاوضات معَ ريتشارد قلب الأسد ويسرّع في المباشرة فيها.

١- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٥٥٧

٢- ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٠. ابن شداد، النوادر السلطانيّة، ص٢٣٢. انظر أيضًا: أبو شامة، كتاب الروضتين، ج٢، ص٢٠٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٥٥٧

٣- ابن كثير، البدايه والنهاية، ج١٢، ص٣٥٥٧.

وقد تمّ عقد الصلح بين الطرفين، وهو ما عرف بصلح: "الرّملة، في (شعبان ٥٨٨هـ/ سبتمبر ١١٩٢م)[١]، بعد أن تراجع ريتشارد قلب الأسد عن شرطه بخصوص مدينة عسقلان: "وطاوع السلطان على ما يقول وترك طلبها"[٢]، وكانت مدّة الصلح ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر بدءًا من ٢١ شعبان ٥٨٨هـ/٢ سبتمبر ١١٩٢م.[٣]

وجاء الاتفاق على النحو الآتي:

١- تتبع المِنطقة الساحليّة الممتدّة من مدينة صور حتى يافا في فلسطين لنفوذ الصليبيّين.

٢- تبقى مدينة عسقلان خرابًا، ولا تتبع لأحد الطرفين. "وأن يتّفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها"[٤].

٣- من أعمال يافا، تستثنى كلّ من الرّملة واللُّد ومجدل يافا، فتكون تحت سيطرة المسلمين.

٤- من أعمال عكا، تستثنى الناصرة وصفوريا، فتكون تحت سيطرة المسلمين.

٥- دخول بلاد الإسماعيليّة القرامطة، وهو شرط صلاح الدين، مقابل دخول صاحب أنطاكية في الصلح، وهو شرط الصليبيّين.

٦- يتقاسم المسلمون والصليبيّون خراج الرّملة واللُّد مناصفة.

---

[١]- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٨٧-٨٨. أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٠٣.. ابن واصل، مفرّج الكروب، ج٢، ص٤٠٠. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢٢٣. ابن شداد، النوادر السلطانيّة، ص٢٣٢. ابن كثير، ج١٢، ص٣٥٥٧.

[٢]- ابن كثير، البداية والنهاية، ، ج١٢، ص٣٥٥٧

[٣]- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٨٨. أبو شامة، الروضتين، ج٢.ص٢٠٣-٢٠٤. ابن شداد، النوادر السلطانيّة، ص٢٣٣-٢٣٤.. ابن واصل، مفرّج الكروب، ج٢، ص٤٠١. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص١٠٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٥٥٧. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص١١٦-١١٧.

[٤]- أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٠٣.

٧- السماح بزيارة الأماكن المقدّسة المسيحيّة في مدينة القدس، لكلّ من أراد ذلك من الصليبيّين وغيرهم.

٨- تكون المناطق جميعها سواء التابعة للمسلمين أو للصليبيين آمنة وسالمة يدخلها من يشاء من الطرفين في أيّ وقت.

يبدو أنّ الطرفين في هذه المعاهدة قد توصّلا إلى صيغة مفادها أنّ عسقلان ليست ملكاً لأحد منهما؛ إذ اتفقا على تخريبها وتدميرها. فعلى الرّغم من موافقة ريتشارد قلب الأسد على شروط الصلح وتنازله، فإنّه لم يرضَ أن تخضع للمسلمين، ويبدو أنّه اشترط تخريبها؛ حيث يشير صاحب النوادر السلطانيّة إلى أنّ صلاح الدين عهد لأحد قادته، ويدعى: علم الدين قيصر بتخريب المدينة؛ إذ قام هذا الأخير بتنفيذ ما اتفق عليه صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد.(١)

وفي المقابل رأي صلاح الدين في هذا الإجراء؛ أيْ تخريب عسقلان أقلّ ضررًا ممّا لو استولى عليها الصليبيّون؛ لأنّه كان يدرك خطورة هذه المدينة على مصر إذا ما بقيت بين أيدي الصليبيّين. وبالفعل، فقد كان الخاسرُ الأكبر من تخريب عسقلان الصليبيّين من الناحية العسكريّة والأمنيّة وليس المسلمين. إلا أنّ هذا الصلح كان لا بدّ منه للطرفين؛ فقد جاء خاتمة لمرحلة طويلة من الحرب وسفك الدماء امتدّت إلى ما يقارب القرن من الزمن. فضلاً عن أنّ أهمّ ما يؤكّد أهميّة مدينة عسقلان صلح الرّملة؛ فقد تعثّرت المفاوضات في البداية لأجلها، وعندما تراضى الطرفان حولها بخرابها عُقد الصلح. وهذا يعني أنّ مدينة عسقلان بالنسبة إلى كلا الطرفين هي المدينة الأهمّ والأكثر حسمًا في الصّراعات من غير مدن فلسطين على نحو عام، ومدن الساحل على نحو خاصّ.

١- ابن شداد، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، ص٢٣٦.

ولم يمض الوقت على اتفاقية الصلح حتى توفي صلاح الدين الأيّوبيّ، وذلـــك فـــي (صـــفر ٥٨٥هـــ/ مارس ١١٩٣م)؛ لتنتهي بنهايته مرحلة تركت أثرًا في غاية الأهميّة في العالم الإسلاميّ من ناحية وفي طبيعة الصّراع الإسلاميّ الصليبيّ من ناحية أخرى. ولتبدأ بدايـــة نهايـــة الدولـــة الأيّوبيّة؛ إذ بقي عمر الوجود الصليبيّ في المشرق أطول من عمرها.

المؤرّخ أبو شامة

يصف الهدنة بين صلاح الدين وملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد،

التي عرفت بصلح الرّملة

"فسار السّلطان إلى جهة الرّملة، وجاء رسول الإنكلتير معَ الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على إسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرد به وقال له قل لأخي، يعني الملك العادل، يبصر كيف يتوصّل إلى السلطان في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان، وأمضِ، ويبقى هو ها هنا معَ هذه الشرذمة اليسيرة، ويأخذ البلاد منهم، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجيّة، وإنْ لم ينزل السلطان عن عسقلان فتأخذ لي منه عوضًا عن خسارتي على عمارة سورها، فأرسل السلطان إلى العادل إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم، فإنّ العسكر قد ضَجِرَ من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت.

ثمّ إنّ الإنكلتير نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها، وأخرج الرّملة منها ولد ومجدل يابا، ثمّ ذكر قيسارية وأعمالها وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكّا وعملها، وأخرج منها الناصرة وصفوريّة، وأثبت الجميع في ورقة وقال للرسول: هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم، فإن صالحتم على ذلك فمبارك، وقد أعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد وإلا فنعلم أنّ هذا تدفيع ومماطلة.

وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابًا، وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها، واشترط دخول بلاد الإسماعيليّة واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصلح، وشرط

أن تكون الرّملة ولدّ بين المسلمين وبينهم مناصفة، واستقرّت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ورضي الاسبتاريّة والداوية وسائر مقدّمي الإفرنجيّة بذلك، ولم يحلف الإنكلتير بل أخذوا يده وعاهدوه، واعتذر بأنّ الملوك لا يحلفون، وقنع من السلطان بمثل ذلك، ثــمّ حلف الجماعة فَحَلَف الكندهري ابن أخته المستخلف عنه في الساحل، وباليان بــن بــارزان ابــن صاحبة طبريّة، ووصل ابن الهنفريّ وابن بارزان وجماعة من مقدّميهم إلى السلطان فأخــذوا يــده على الصلح واقترحوا حلف جماعة العادل والأفضل والظاهر والمنصور وسيف الدين المشــطوب ودندرم وابن المقدم وصاحب شيزر وكلّ مجاور لبلادهم، وحلف لصاحب أنطاكيّة وطرابلس، وعلّق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين.

قال: ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبدي الطاعة، والموافقــة وتســيير العسكر، وحضر رسول الكرج، وذكر فصلاً في معنى الديارات التي لهم في القــدس وعمارتهــا، وشكّوا من أنّها أخذت من أيديهم، ويسأل ردّها إلى أيدي نوابهم ورسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبوديّة.

قال العماد: وعقدت هدنة عامّة في البرّ والبحر والسهل والوعر، وجعل لهم من يافــا إلى قيساريّة إلى عكّا إلى صور، وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، ووقعت المصــالحة مــدّة ثلاث سنين وثلاثة أشهر أوّلها مبتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان، قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والأسلحة والأقوات ليتقوّوا بها على فتح القدس؛ لتكون لهم ظهرًا وعونًــا لقربها من البيت المقدس".

تجدّد الصّراع الصليبيّ الإسلاميّ على عسقلان

لم يَعدْ حال دولة بني أيّوب كما كانت عليه في ظلّ وجود مؤسّسها صلاح الدين الأيّــوبيّ؛ فقد انقسم ورثته من آل أيّوب على أنفسهم بعد وفاته، على النفوذ والسلطة؛ لذا قسّمت الدولة الأيّوبيّة بين الورثة ولم تَعدْ موحّدة كما كانت عليه سابقًا. وهذا بطبيعة الحال أدّى إلى ضعف الأيّوبيّين أمام الصليبيّين. وانعكست أصداء ذلك على مدينة عسقلان التي كانت محظورة على الطرفين بموجــب صلح الرّملة. إلا أنّ المستجدات السياسيّة والإداريّة بعد وفاة صلاح الدين قد دفعت إلى عودة تنافس المسلمين والصليبيّين للسيطرة على عسقلان وإعادة تحصينها.

وبذا، فإنه ما إن توفي صلاح الدين حتى دبّت الخلافات داخل البيــت الأيّــوبيّ، واســتغل الصليبيّون الموقف وشرعوا في ترميم مدينة عسقلان وتحصينها[١]، ناكثين بــذلك تعهــدهم الــذي اشتملت عليه بنود الهدنة تجاه مدينة عسقلان. ويــذكر العســقلانيّ أنّ جماعــة التيوتــون ســنة (٥٩٢هــ/١١٩٦م) قد حصلوا على أملاك وإقطاعات في عسقلان، وحرصت هذه الجماعات على إثباتها في وقائعها؛ كنوع من الإغراء لهذه الجماعة من أجــل الــذهاب إلــى عســقلان وإعــادة تحصينها.[٢]

يقول المقريزيّ في نكث الصليبين للصلح: إنّ الملك العــادل (٥٣٩-٦١٥ هـــ/١١٤٤-١٢١٨م) قد بعث إلى القاهرة يطلب من العزيز نجدة، وإرسال قوّة عسكريّة إلى ســاحل فلســطين لإخراج الصليبيّين من بعض مدن الساحل ومنها عسقلان. وقد سار العزيز على رأس هذه القــوّة، وسعى إلى منع الصليبيّين من السيطرة على مدينة عسقلان؛ حيث وصل إلــى الرّملــة واصــطدم

---

[١]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٢٨٩. ابن شدادن النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، ص٢٤٦-٢٤٧.

[٢]- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز. عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الإسلاميّ، ص١٦١.

بالصليبيّين وأجبرهم على الارتداد إلى عكّا وصور.[١] ويضيف المقريزيّ: إنّه في رجب من العام نفسه تجدّد للعادل والعزيز رأي في تخريب عسقلان[٢]؛ أي ما لم يدمّر من أسوارها وتحصيناتها، ويصف ذلك قائلاً: "فتلفت مدينة لا مثل لها وثغر لا نظير له في الثغور وعمارة لا تخلف الأيام ما تلف بها؛ لعجز الملوك عن ممانعة الفرنج بالسلاح واضطرارهم إلى هدم المدن وتعفية رسومها".[٣]

بقيت مدينة عسقلان إلى وقت طويل وهي في خراب، ومن غير أن يطرأ عليها أيّ تطوّر أو تغيير حتى سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م). وكانت عسقلان حتى اللحظة تلك في عهدة السلطان العادل الثاني حاكم مصر، وفي هذا العام انطلقت من أوروبا الحملة الصليبيّة الخامسة التي تعرف بالحملة الفرنسيّ، في أسوأ ظروف عرفتها بلاد الشام؛ إذ دبّ النزاع بين الصالح أيّوب من جهة وعمّه الصالح إسماعيل ملك دمشق من جهة أخرى، الذي شارك فيه بقيّة أفراد البيت الأيّوبيّ في الشام، مثل: ملوك حمص وحماه والأردنّ، وهذا ما أوقع الدولة الأيّوبيّة في حالة شديدة من الفوضى. فضلاً عن أنّ بلاد الشام تعرّضت في هذا الوقت لغزو جموع الخوارزميّة[٤] من ناحية، وتهديد المغول من ناحية أخرى.[٥]

١- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢٥٣.

٢- المصدر نفسه، ج١، ص٢٥٣.

٣- المصدر نفسه، ج١، ص٢٥٣-٢٥٤

٤- الخوارزميّة: جنس من الأتراك، تقع بلادهم ما وراء يخارى داخل السهوب القاريّة الآسيويّة، يعيش أهلها عيشة أهل البراري والقفار. يعود تاريخ وصولهم إلى فلسطين إلى سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤هـ، أيام سلطنة الملك الأيّوبي الصالح نجم الدين أيّوب ابن الملك الكامل، وكان سبب قدومهم إليها حين استدعاهم الصالح أيّوب إلى مساعدته في التصدّي لهم. وتنسب الخوارزميّة إلى محمّد بن أنوشتكين، الذي حكم مدينة خوارزم عام ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، وحصل على لقب خوارزمشاه. انظر: عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي، (١١٨٧-١٥١٦)، ص٢١٥.

٥ انظر: عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص٩٨٦.

وفي (٦٣٧هـ /سبتمبر سنه ١٢٣٩م)؛ أي في العام نفسه، وصلت القوّات الصليبيّة إلى مدينة عكّا[١]، وحينئذ كان الناصر داوود صاحب الأردنّ قد استولى على مدينة بيت المقدس.[٢] وعندما سمع الصليبيّون بخبر استيلاء المسلمين على القدس اجتمع زعماء الحملة بأمراء الصليبيّين بالشام لدراسة الموقف وتحديد الخطوة التي يجب أن يتّخذوها، فانقسم الصليبيّون على أنفسهم؛ إذ رأى بعضهم أن تسير الحملة تجاه مصرَ بوصفها القلب النابض في الدولة الأيّوبيّة، ورأى فريق ثانٍ أنّ تتجه إلى دمشقَ مباشرة، ونادى فريق ثالث بالاتجاه إلى صفد إلى الشمال الغربيّ من طبريّا لإقامة قاعدة عسكريّة فيها، أمّا الفريق الرابع فقد أصرّ على السير إلى بيت المقدس مباشرة.[٣] إلا أنّهم في نهاية المطاف استقرّوا على رأيهم في السير إلى عسقلان والاستيلاء عليها.[٤]

ولمّا سمع الملك العادل الثاني في مصر عن تحرّك الصليبيّين تجاه عسقلان، أرسل قوّة كبيرة من مصرَ إلى غزّة للدفاع عنها. وقد استطاعت هذه القوّة الأيّوبيّة أن تلحق الهزيمة بالصليبيّين. يقول المقريزيّ: "انكسر فيها الفرنج، وأخذ من الفرنج ملوكهم وأكنادهم وثمانون فارسًا ومائتان وخمسون راجلاً، وصلوا إلى القاهرة وقتل منهم ألف وثمانمائة ولم يقتل من المسلمين غير عشر"[٥]. ويرجح سعيد عاشور خسارة الصليبيّين في هذه المعركة إلى الفوضى التي اتّسمت فيها هذه الحملة وضعف قياداتها.[٦]

١- عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي، ص١٤٥.
٢- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٣٩٩.
٣- عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص٩٨٨. رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٣. ص٣٧٥.
٤- عاشور، المرجع نفسه، ص٩٨٨.
٥- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٠٠. انظر أيضًا: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٤٤.
٦- عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص٩٨٩.

وعلى الرّغم من خسارة الصليبيّين وضعف حملتهم، فإنّ ذلك لم يساعد على وحدة البيت الأيّوبيّ، لا بل إنّ الخلاف الأيّوبيّ - الأيّوبيّ قد أصبح أشدّ وطأة ممّا كان عليه؛ فقد تأثّرت مدينة عسقلان بالصّراع الذي نشب سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م) بين الصالح نجم الدين أيّوب حاكم مصر (٦٣٨هـ-١٣ شعبان ٦٤٧هـ-١٢٤٠/ نوفمبر ١٢٤٩م)، والصالح عماد الدين إسماعيل حاكم دمشق (٦٣٧-٦٤٣هـ/ ١٢٣٩-١٢٤٥م)[١]، وترك هذا الخلاف آثاره السيّئة في المدينة إثر عودة ملك نافار إليها مرّة ثانية في هذه السنة على رأس قوّة صليبيّة من غير أن يلقى أيّ مقاومة منها.[٢]

يشير العسقلانيّ إلى أنّ ملك نافار بادر عندما دخل مدينة عسقلان إلى إعادة بناء قلاعها وأبراجها توطئة للسيطرة عليها؛ حيث أظهر الصليبيّون الوافدون معه همّة وحماسة للانتهاء من ذلك؛ فشاركوه في هذه الأعمال وجدّوا في إنجازها وحفروا خنادق دفاعيّة بطول بوابات المدينة تأميناً لهم خلال عمليّاتهم العسكريّة.[٣]

ومعَ استمرار الصّراع الأيّوبيّ _ الأيّوبيّ بين الصالح إسماعيل حاكم دمشق ونجم الدين أيّوب حاكم مصر، بدأ كلّ منهما في البحث عن حلفاء من أجل الاستقواء على بعضهما بعضً، وقد وصل ذلك إلى حدّ التحالف معَ الصليبيّين؛ إذ تنازل كلّ منهما عن بعض المواقع التابعة لملكه مقابل دعمهم له، فقد أعلن الصالح إسماعيل التنازل عن بيت المقدس وعسقلان وطبريّا.[٤] معَ العلم أنّ

---

[١]- بعد وفاة الملك الكامل الأيّوبي سنه ١٢٣٨م، خلفه في ملكه ابنه العادل الثاني، وفي عام ١٢٣٩ استولى الصالح نجم الدين ابن الكامل على دمشق، ووقع بذلك في نزاع معَ أخيه العادل الثاني. وفي نهاية سنه ١٢٣٩م، استطاع الصالح عماد الدين إسماعيل دعم الملكين العادل الثاني والصالح نجم الدين أيّوب لاسترداد دمشق، وطرد الصالح نجم الدين أيّوب منها، وظلّ يحكمها خمس سنوات (١٢٤٠-١٢٤٥م)، وفي يونيو عام ١٢٤٠م أصبح الصالح نجمد الدين أيّوب حاكمًا على مصر على إثر ثورة قامت فيها.

[٢]- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان في الصراع الصليبيّ- الإسلاميّ، ص١٧٠.

[٣]- المرجع نفسه، ص١٧١.

[٤]- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٣. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٠١-٤٠٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٣٠٦. وانظر: عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص٩٩٠.

مدينة عسقلان لا تقع ضمن ملك الصالح إسماعيل، بل كانت تابعة لملك حاكم مصر الصالح نجم الدين أيّوب. ويذكر المقريزيّ في تنازل الصالح إسماعيل أنه: "كاتب الفرنج واتّفق معهم على معاضدته ومساعدته ومحاربة صاحب مصر، وأعطاهم قلعة صفد وبلادها وقلعة الشقيف وبلادها، ومناصفة صيدا وطبريّا وأعمالها، وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل".(١)

وفي مقابل هذا التحالف بين الصالحِ إسماعيل والصليبيّين، أصبح الصالحُ نجم الدين أيّوب في موقف لا يحسد عليه، وقد أحسّ بخطورة الموقف، فحذا حذو خصمه الصالح إسماعيل، وعقد اتفاقيّة مماثلة معَ الصليبيّين اعترف لهم بها بملكيتهم عسقلان، والشقيف أرتون، وإقليم الجليل، بالإضافة إلى قلعتي كوكب والطور، فضلاً عن بيت المقدس وبيت لحم ومجدل يافا(٢). كما أنّه أطلق سراح أسراهم.(٣) وباشر الصليبيّون على الفور بتحصين مدينة عسقلان بعد أن أصبحت تحت سيطرتهم.

ويذكر عثامنة أنّ الصالح أيّوب حاكم مصر قد أرسل إلى الصليبيّين يعرض عليهم معاهدة جديدة مكمّلة للمعاهدة السابقة التي عقدها أمير شامبين الفرنسيّ، وقد تضمّن عرضه هذه المرّة استعداده للاعتراف بشرعيّة التنازلات التي قدّمها خصمه الصالح إسماعيل للفرنجة، بحيث تصبح مناطق الجليل وضاحيتا يافا وعسقلان، وكلّ نواحي بيت المقدس بما فيها بيت لحم ومجدل يافا، بالإضافة إلى طبريّا وصفد وقلعتيّ كوكب والطور، داخلة في مملكة بيت المقدس اللاتينيّة، وأن

١- المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٠٧.

٢- عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص٩١٣. عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين، ص١٤٩.

٣- المرجع نفسه، ص١٤٩. العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الاسلاميّ، ص١٧١.

تبقي مدن نابلس وعسقلان وبيسان والخليل وأريحا في أيدي المسلمين.[١] وقد رحّب الصليبيّون بعرضه ووافقوا عليه وعقدوا اتفاقيّة معه سنة (٦٣٨هـ/ ربيع ١٢٤١م)[٢].

ويبدو أنّ هذا الاتفاق الأخير لم يلقَ قبولاً عامًّا لدى الصليبيّين؛ إذ أعلن بعض القادة الصليبيّين ومنهم دوق برجنديا رفضه لهذا الاتفاق وإصراره على الحصول على عسقلان بالقوّة، وأظهر هذا تحمّسًا لبقائه عند عسقلان معَ قوّاته مدّة عام، فبنى خلال هذه المدّة ما تبقّى من أبراج المدينة وقلاعها.[٣]

بعد هذه الاتفاقيّات التي كانت تعدّ تنازلات من الأيّوبيّين، أصبحت مدينة عسقلان في عهدة الصليبيّين؛ فقد اقتنع الصليبيّون بأنّ استيلاءهم على عسقلان يضمن لهم تأمين عمليّاتهم العسكريّة في بلاد الشام، لذلك بدأوا يتوجّهون من عكّا إلى عسقلان، وكان على رأسهم ريتشارد كورنول[٤]. ولم يكد الصليبيّون يصلون إلى عسقلان حتى وجدوا دوق برجنديا قد أتمّ جزءًا كبيرًا من مَهَمّته، وأوشك على الانتهاء من إعادة تحصينات المدينة، فتحمّسوا للانتهاء من مَهَمّتهم هذه في أسرع وقت ممكن. وانفق ريتشارد كورنول كثيرًا من أمواله لإعادة تحصينات المدينة، كما حرص على توفير المؤن والعتاد اللازم لقوّاته. وفي (رمضان ٦٣٩م/ مارس ١٢٤١م) انتهى الصليبيّون من إعادة تحصين المدينة.[٥]

١- انظر: عثامنة، فلسطين في العهدين، ص١٤٩.

٢- المرجع نفسه، ص١٤٩.

٣- رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٣، ص٣٨٠. انظر أيضًا: العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الاسلاميّ. ص١٧١. عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين، ص١٤٩-١٥٠.

٤- ريتشارد أون كورنول: هو أحد قواد الحملة الصليبيّة الفرنسيّة الخامسة، وهو الذي مثّل الصليبيّين في الاتفاقيّات التي عُقدت بينهم وبين الصالح إسماعيل من جانب والصالح نجم الدين من جانب آخر، وهو أيضًا الذي رعى عمليّة تحصين عسقلان.

٥- رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٣، ص٣٨١. انظر أيضًا: برافور، ماتي، روزنوك أشكلون بتكوفاه تسلفنين، ص٢٣٣. العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع، ص١٧٢.

لكنّ السؤال في كلّ ما حدث هو: من المسؤولُ عن ضياع مدينة عسقلان؟ من غير شكّ فإنّ المسؤوليّة عن ضياعها وباقي المدن الأخرى مسؤوليّة جماعيّة، تقع على عـاتق جميـع الحكـام والملوك الأيّوبيّين نتيجة تشرذمهم وخلافاتهم المستحكمة التي وصلت إلى حدّ التحالف معَ الصليبيّين ضدّ بعضهم بعضًا. مع أنّ اليونيني يضع المسؤوليّة على الحاكم الصالح نجم الدين أيّوب، ويتّهمـه بأنه المتسبّب في ضياع مدينة عسقلان من المسلمين، ويحمّله تبعيّة ذلك نظرًا إلى تقاعسـه عـن نصرة الصالح إسماعيل، بعد أن أرسل إليه هذا الأخير يستصرخه لنجدة عسقلان ولكنه لم يحفـل به.[١]

ويعلّق مصطفى العسقلانيّ على هذا الاتهام بأنه مبالغ فيه ويحتاج إلى قرائن، وإن كان ذلك لا ينفي تهمة تقاعس الصالح نجم الدين عن نصرة عسقلان مؤثرًا أمن مصرَ على أمن عسقلان.[٢] ويضيف: إنّ ذلك لا يعني ما ذهب إليه المؤرّخ المشار إليه آنفًا؛ لأنّ الصالح إسماعيل قد سبق نجم الدين أيّوب في التنازل عن جميع ممتلكات المسلمين بالشام ومن بينها مدينة عسقلان.[٣]

نتّفق معَ ما أشار إليه العسـقلانيّ؛ لأنّ الصـالح إسـماعيل سـلّم لاحقًـا؛ أي فـي سـنة (٦٤٢هـ/١٢٤٢م)، قلعتيّ عسقلان وطبريّا بنفسه للصليبيّين نكايـة فـي الصـالح نجـم الـدين أيّوب.[٤]على الرّغم من أنّ عسقلان كانت قد أصبحت تحت سيطرة الصليبيّين آنذاك. ولكنّ هذا لا يعني أنّ هناك طرفًا مسؤولاً وطرفًا آخرَ معفيًّا، وينبغي للباحث المنصف ألا يصطفّ للدفاع عـن طرف واتهام طرف آخرَ؛ لأنّ مسؤوليّة الحفاظ على مدينة عسقلان وباقي المدن الأخرى مسؤوليّة

١- اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مجلد١، ج١، ص١٥٧.
٢- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبيّ الاسلاميّ، ص١٧٣.
٣- المرجع نفسه، ص١٧٣.
٤- انظر: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٢٠.

جماعيّة، مع العلم أنّ جميع الأطراف المتصارعة في البيت الأيّوبيّ كانت على دراية تامّة بنوايا الصليبيّين تجاههم، وأنّ تحالف أيّ طرف منهم معَ الصليبيّين ضدّ الطرف الآخر سيعود بالنتائج والعواقب الوخيمة عليهم جميعًا وليس على طرف دون الآخر.

إضافة إلى ذلك يمكننا القول: إنّ هذا ما يمكن أن ينجم عن حالة التفكّك والتشرذم بين أبناء الأمّة، في التسابق إلى عقد التحالفات معَ العدو للاستقواء على بعضهم بعضًا. ولو عدنا إلى التاريخ المعاصر من غير أيّ إسقاطات لقلنا: "ما أشبه اليوم بالبارحة"؛ فحالة الخلافات بين الدول العربيّة والتفكّك المستمر بينهم قد دفع أطرافًا عربيّة للتحالف معَ القوى الغربيّة والأجنبيّة في المِنطقة ضدّ أطراف عربيّة أخرى، ولم ينجم عن ذلك سوى المزيد من التنازل عن الأراضي وثروات الأمّة، والخسارة في النهاية خسارة جماعيّة، وليس من رابح سوى الغريب الأجنبيّ، فالحالة العربيّة في التاريخ المعاصر خيرُ دليل على فهم حالة بني أيّوب وخلافاتهم التي أدّت بهم إلى تقديم كلّ هذه التنازلات للصليبيّين، معَ التأكيد بأن لكلّ مرحلة تاريخيّة ظروفها وشروطها الخاصّة؛ لأنّ التاريخ لا يعيد نفسه.

على الرّغم من سيطرة الصليبيّين على عسقلان فإنّهم بقوا على توجّس دائم من مصر؛ لذلك أرسل فريدرك الثاني[١] إلى القوّات الاسبتاريّة في (صفر ٦٤١هـ/ أغسطس ١٢٤٣م) يحثّهم على التوجّه إلى عسقلان لاتخاذها قاعدة عسكريّة حربيّة لهم. وقد لقي هذا العرض قبولاً منهم لحرصهم

١- فردريك الثاني: وفد إلى الشرق الإسلاميّ على رأس حملة صليبيّة هي السادسة، نشأ وتربّى في صقليّة على مقربة من المؤثرات العربيّة، عُرف عنه إعجابه بالعرب وميله إلى أخذ العلم عنهم بشغف.

على كسب قاعدة حربيّة قريبة من مصر[١]، وكانت عسقلان خير مثال لذلك؛ نظراً إلى موقعها الجغرافيّ وقربها من مصر.

وما إن اتخذ الاسبتاريّة عسقلان قاعدة عسكريّة؛ من أجل تصويب حملاتهم على مصر، حتى تنبّه الصالح نجم الدين أيّوب إلى خطورة ذلك؛ فرأى أن يوجّه ضربة عسكريّة استباقيّة إلى عسقلان قبل أن يتحرّك الصليبيّون باتجاه مصر. يقول المقريزيّ: "وجهّز الملك الصالح نجم الدين أيّوب عسكرًا من القاهرة جعل عليه الأمير ركن الدين بيبرس أحد مماليكه الأخصّاء الذين كانوا معه وهو محبوس بالكرك، فسار إلى غزّة"[٢]، وكانت هذه الحملة سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، ولمّا وصل قائد الحملة ركن الدين بيبرس إلى مدينة عسقلان تأكد من قوّة أسوارها وتحصيناتها فاضطرّ في نهاية المطاف إلى التراجع عنها.[٣]

وبعد أن فشلت حملة نجم الدين هذه بقيادة ركن الدين بيبرس، اتبع نجم الدين أسلوبًا آخرَ وهو السيطرة على غزّة بدلاً من عسقلان، فأرسل إلى نوّابه يأمرهم بالاستيلاء على غزّة والسواحل القريبة منها، وعلى القدس وبيت جبريل. وأعقب ذلك بعقد تحالف سياسيّ وعسكريّ معَ القوّات الخوارزميّة ضدّ الصالح إسماعيل صاحب دمشق.[٤]

١- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤١٧.

٢- المصدر نفسه، ج١، ص٤١٩. أبو شامة، الروضتين في تاريخ الدولتين النوويّة والأيّوبيّة، ص١٧٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٧١٣-٣٧١٤.

٣- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٢١. أبو شامة. الروضتين، ص١٧٤.

٤- المصدر نفسه، ج١، ص٤٢١. انظر إلى التفاصيل: عثامنة، خليل، فلسطين في القرنين الأيّوبي والمملوكي، ص١٥٠-١٥٤. العسقلاني، عسقلان ودورها، ص١٧٤-١٧٥.

ثمّ إنه بعد هذا التحالف أرسل حملة عسكريّة أخرى إلى غزّة، استطاعت هزيمة الصالح إسماعيل والقوّات الصليبيّة وأسر أكثر من ثلاثين ألفًا منهم.[١]

استرداد المسلمين عسقلانَ (٦٤٥هـ/١٢٤٧م).

بعد الانتصار الذي حقّقه الصالح نجم الدين أيّوب في غزّة على الصليبيّين والصالح إسماعيل بتحالفه معَ قوّات الخوارزميّة، بدأ نجم الدين أيّوب في السعي إلى تخليص مدينة عسقلان من الصليبيّين؛ لذا بادر إلى إرسال حملة عسكريّة أخرى في (جمادى الأولى ٦٤٤هـ/ سبتمبر ١٢٤٦م) من مصرَ إلى ساحل فلسطين بقيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ[٢]، الذي وصل إلى عسقلان في (صفر ٦٤٥هـ/ ١٧ يونيو ١٢٤٧م)، وفرض عليها حصارًا بريًّا وبحريًّا بهدف قطع الإمدادات البريّة والبحريّة عن الصليبيّين.[٣] ويذكر مصطفى العسقلانيّ أنّ فخر الدين بن شيخ الشيوخ قد أحضر معه ما يلزمه من قوّات وعون وعتاد يكفي لحصار طويل، ممّا مكّنه من الاستمرار في حصار المدينة، فعرّض بذلك حاميتها الصليبيّة لمتاعب جمّة.[٤] ويضيف قائلاً: إنّه وعلى الرّغم ممّا أبداه الاسبتاريّة من حماسة بالغة للدفاع عن عسقلان فإنّ قوّتهم لم تصمد طويلاً، ممّا اضطرّهم إلى طلب النجدة من حجّاج الصليبيّين ومن ملك قبرص وكبار قادة الصليبيّين.[٥] وفي المقابل أرسل الصالح نجم الدين أيّوب اثنين وعشرين سفينة من الإسكندريّة إلى ميناء عسقلان[٦].

١- الذهبي، الحافظ شمس الدين أبي عبدالله محمّد بن أحمد التركماني (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، كتاب دول الإسلام، دون تحقيق، جمعيّة دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد، ط٢، ١٣٦٥هـ ج٢، ص١١١. وسيشار إليه لاحقًا: الذهبي، دول.

٢- يذكر بن تغري بردي أبو المحاسن في مصنفه النجوم الزاهرة، أنّ فخر الدين بن شيخ الشيوخ قد قام بحملته هذه على عسقلان سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠هـ. ويبدو أنّه يشير إلى هذه الحملة لتعذّر قيام الصالح نجم الدين أيّوب بها في عام تولية لحكم مصر؛ نظرًا إلى حاجته إلى تعزيز مركزه في مصر. انظر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٤.

٣- الذهبي، كتاب دول الإسلام، ج٢، ص١٢٤. ابن الوردي، تتمة المختصر في تاريخ البشر، ج٢، ص٢٥٩. ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيّوب، ج٥، ص٣٧٨. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٣١.

٤- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ص١٧٦.

٥- المرجع نفسه، ص١٧٦.

٦- انظر: عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص١٠٤٩. العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الاسلامي، ص١٧٦.

وهذا ما أحدث قلقًا كبيرًا لدى الصليبيّين؛ حيث ذكر: إنّ البابا أنوسنت الرابع قد أرسل إلى رؤساء نقوسيا وأساقفتها يطلب إليهم التسريع في إيفاد مساعدات عسكريّة للاستباريّة عند عسقلان.[١]

وعلى ضوء هذه الأحداث هبّ ملك قبرص هنري لوزجنان Henry Lusignns أيضًا لنجدة مدينة عسقلان، فأرسل ثمانمئة من الفرسان توجّهوا إلى عكّا محمّلين بأسلحتهم وعتادهم، وهناك انضمّ إليهم ألف وخمسمائة فارس صليبيّ، ثمّ اتجهوا إلى عسقلان. غير أنّه من سوء حظّ هذا الأسطول أن تعرّض لهبوب رياح شديدة على الرّغم من إبحاره في (صيف ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م)[٢]. وعلى الرّغم من وصول هذه السفن إلى مدينة عسقلان، فقد أدرك الصليبيّون صعوبة فكّ الحصار عنها، فقرّروا أخيرًا الرّحيل عنها والعودة إلى عكا.[٣]

وقد أدّى رحيل الصليبيّين عن مدينة عسقلان وعدم قدرتهم على فكّ الحصار عنها إلى إحداث فزع وهلع لدى حامية المدينة، التي أدركت حتمًا ضعف إمكاناتها في مجابهة المسلمين؛ لذا هرب بعضهم متسللاً عن طريق البحر، بينما آثر بعضهم الآخرُ الدفاع عن المدينة وخاصّة الاسبتاريّة[٤]، الذين استخدموا الأسلحة التي كانت في حوزتهم، لكنّ مقاومتهم فترت بعد أن دهمتهم القوّات الإسلاميّة، وتمكّنت من قتل بعضهم وأسر بعضهم الآخر[٥]. وهكذا تمكّن القائد فخر الدين ابن شيخ

١- الحناوي، مصطفى محمّد، جماعة الفرسان الاستباريّة ودورها في عصر الحروب الصليبيّة (٤٩٣-٦٩٠هـ/١٠٩٩-١٢٩١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإسكندريّة، ١٩٨٠، ص٣٣٠، وسيشار إليه لاحقًا: الحناوي، جماعة.

٢- المرجع نفسه، ص٣٣١.

٣- المرجع نفسه، ص٣٣١. العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الاسلامي، ص١٧٨

٤- المرجع نفسه، ص٣٣١-٣٣٢. انظر أيضًا: عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي (١١٨٧-١٥١٦)، ص١٥١.

٥- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٣١. انظر أيضًا: الحناوي، جماعة الفرسان الاستباريّة ودورها في عصر الحروب الصليبيّة (٤٩٣-٦٩٠هـ/١٠٩٩-١٢٩١م) ، ص٣٣٢.

الشيوخ من فتح مدينة عسقلان عنوة، وذلك يوم الخميس (الثاني عشر من جمادى الأولى ٦٤٥ هـ الخامس عشر من أكتوبر ١٢٤٧م).[١]

ويشير ابن واصل إلى أنّ القائد فخر الدين ابن شيخ الشيوخ قد هدم التحصينات والأسوار التي بناها الصليبيّون في أثناء سيطرتهم عليها بعد تنازل الأيّوبيّين عنها؛ إذ يقول: "فحاصرها الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ بعد منازلة الكرك، ففتحها وهدمها وطهّرها من الفرنج. ووردت البشرى بفتحها إلى القاهرة والسلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب بالشام؛ فاستبشر المسلمون بهذا الفتح وعودتها وتطهيرها من الفرنج"[٢].

وفي ذلك يقول مصطفى العسقلانيّ في معرِض حديثه عن النتائج التي ترتّبت على عودة مدينة عسقلان للمسلمين: إنّ حدود الصليبيّين في بلاد الشام تقلّصت؛ إذ لم تعد تتجاوز أبواب يافا[٣]. ومن النتائج المهمة أيضًا أنها أسهمت في تقوية الدولة الأيّوبيّة وتدعيم ملكها، بعد أن أضحى السلطان الصالح نجم الدين أيّوب هو صاحب مصرَ وجزء كبير من بلاد الشام.[٤]

بعد الانتصار الذي حقّقه الصالح نجم الدين أيّوب على الخوارزميّة والصليبيّين، الذي أدّى إلى إخراجهم من مدينة عسقلان، أصحبت عسقلان وجميع مدن بلاد الشام تدين لحكم الصالح نجم الدين أيّوب باستثناء مدينتيّ حلب والكرك.[٥] لكنّ ما حققه الصالح أيّوب لم يكن يعني الاستقرار

١- ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيّوب، ج٥، ص٣٧٨. الذهبي، كتاب دول الإسلام، ج١، ص١١٤. ابن الوردي، تتمّة المختصر في تاريخ البشر، ج٢، ص٢٥٩-٢٦٠، المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص٤٣١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٧١٥.

٢- المرجع نفسه، ج٥، ص٣٧٨-٣٧٩.

٣- العسقلاني، مصطفى عبدالعزيز، عسقلان ودورها، ص١٧٩.

٤- انظر: عاشور، سعيد، الحركة الصليبيّة، ج٢، ص١٠٥١. العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الاسلامي، ص١٧٩.

٥- انظر: عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين، ص١٥٥.

والثبات للدولة الأيّوبيّة، ففي هذه المدّة تجدّد التهديد الصليبيّ على بلاد الشام ومصر على إثر الحملة الصليبيّة التي عرفت بالحملة السابعة سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، بقيادة الملك الفرنسيّ لويس التاسع؛ حيث توجّهت إلى مصر ووصلت سنة (٦٤٧هـ/ مايو١٢٤٩م) إلى دمياط واحتلتها. وفي خضم هذه الأحداث توفي السلطان نجم الدين صالح أيّوب[1]، وبموته بدأت الدولة الأيّوبيّة تلفظ أنفاسها الأخيرة ومدينة عسقلان تابعة لسلطانها، لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ بلاد الشام ومصر التي عرفت بالمرحلة المملوكيّة نسبة إلى الأمراء المماليك، التي وستشير الدراسة إليها في الفصل اللاحق (الأخير).

وبذلك تكون مدينة عسقلان قد عادت إلى حظيرة النفوذ الإسلاميّ، بعد أن شهدت صراعًا مستحكمًا عليها في ظلّ الصّراع الصليبيّ – الأيّوبيّ. فعلى الرّغم من الخلافات والنزاعات الداخليّة التي حلّت بالدولة الأيّوبيّة فإنّ السلطان الأيّوبيّ الصالح نجم الدين استطاع استردادها من الصليبيّين؛ لأنّ بقاءها بيدهم يعني التهديد المباشر للعرش الأيّوبيّ في مصر. معَ التذكير بأنّ هذا الصّراع الصليبيّ – الإسلاميّ على عسقلان كقاعدة عسكريّة لحاميات الطرفين وقوّاتهما قد كلّف المدينة كلفة باهظة على المستويين: الاقتصاديّ والاجتماعيّ من جانب، وعلى المستوى المعماريّ من جانب آخر.

---

[1]- ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٨١. الذهبي، كتاب دول الإسلام، ج٢، ص١١٩. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٣٤.

الفصل الثالث

عسقلان بعد الحروب الصليبيّة

- عسقلان في العهد المملوكيّ.
- **الحياة الاقتصاديّة في عسقلان:**
  - الزراعة.
  - الصناعة والحِرف.
  - التجارة.
- **الحياة الاجتماعيّة في عسقلان:**
  - أهل الذمّة واليهود والنصارى.
  - القبائل العربيّة.
- **الحياة الثقافيّة والعلميّة في عسقلان.**

عسقلانُ في العهد المملوكيّ

لفظت الدولة الأيّوبيّة أنفاسها الأخيرة وانتهت، وتزامن ذلك مع نهاية الحملة الصليبيّة السابعة، في سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م). وقد انقضت دولة بني أيّوب نتيجة عوامل وأسباب عدّة، ليس من مجال للخوض فيها في هذه الدراسة. وفي المقابل كان عُمُرُ الوجود الصليبيّ أطول من عُمُرِ الدولة الأيّوبيّة في بلاد الشام. لتظهر على الساحة السياسيّة في مصر وبلاد الشام قوّة جديدة، هي قوّة المماليك البحريّة، التي أسّست الدولة المملوكيّة في مصر وبلاد الشام، وسيكون لها الدور الأساسيّ في مقاومة الوجود الصليبيّ في بلاد الشام من جهة، والغزو المغوليّ القادم من الشرق من جهة أخرى.

لم يظهر دور المماليك في مقارعة الصليبيّين، والدفاع عن بلاد الشام ومصر معَ تأسيس دولتهم المملوكيّة، بل إنه ظهر قبل ذلك في أيّام الدولة الأيّوبيّة، وتحديدًا في ظلّ حكم الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، وحملاته العسكريّة على فلسطين، التي شارك فيها المماليك البحريّة كمقاتلين في صفوف قوّات بني أيّوب. وقد برز من بين المماليك في هذه الحملات الأمير ركن الدين بيبرس البندقداريّ، الذي سيعرف لاحقًا باسم الظاهر بيبرس، وكان مملوكًا للصالح نجم الدين أيّوب، الذي كلّفه كثيرًا من المَهَمّات العسكريّة، ومنها الدفاع عن ساحل فلسطين وعن مدينة عسقلان سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م[١].

لقد أدّى المماليك دورًا مهمًّا وأساسيًّا في أثناء الحملة الصليبيّة السابعة على مصر؛ إذ استطاعوا طرد الصليبيّين عن دمياط، ووضع حدّ لأطماع لويس التاسع، الأمر الذي افتتح لهم عهدًا جديدًا بجلاء الصليبيّين عن هذه المدينة، ووضع ملامح جديدة في حكم مصر؛ حيث أعاد المماليك

١- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٢١. أبو شامة، الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والأيّوبية، ص١٧٤. ابن كثير البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٧١٤.

في شجرة الدرّ إلى الحكم، بوصفها زوجة الملك الصالح نجم الدين أيّوب، إلا أنّ الملوك الأيّوبيّين لم يعترفوا بسلطتها؛ لذا وجد المماليك من الخير أن تتزوّج شجرة الدرّ من الأمير المملوكيّ عزّ الدين أيبك أمير العسكر على أن تترك له السلطة، ففعلت ذلك.(١)

لقد آلت مصر إلى حكم المماليك بقيادة الأمير عزّ الدين أيبك (٦٤٨- ٦٥٤هـ/ ١١٥٠ ١٢٥٦م). لكنّ ظروف الدولة الناشئة لم تكن مستقرّة، لا داخليًّا ولا خارجيًّا؛ لذا سعى أيبك إلى عقد الاتفاقيّات والمهادنات ليكفل أمن دولته نظرًا إلى كونها في طور التأسيس؛ إذ عقد في سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) اتفاقًا معَ ملك الشام الناصر يوسف: "فقرّر الصلح على أن يكون للملك المعز (أبيك) ما كان للملك الصالح نجم الدين أيّوب من الساحل ببلاد الشام، معَ ملك مصر".(٢)

وكانت المدة الأكثر نشاطًا، والأكثر أحداثًا من تاريخ المماليك، هي مدّة حكم الأمير الظاهر بيبرس (٦٥٨- ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠- ١٢٧٧م)، ففي عهده شهدت مصر وكذلك بلاد الشام نشاطًا حربيًّا وجهاديًّا ضدّ القوّات الصليبيّة في بلاد الشام. معَ العلم أنّه عمل في أوّل عهده على مهادنة الصليبيّين؛ نتيجة ظروف مستجدّة كانت تعصف بالعالم الإسلاميّ، أهمّها اجتياح المغول العراق وسقوط الخلافة العباسيّة في بغداد سنة ١٢٥٨م(٣). بالإضافة إلى إعلان ملك الشام الناصر يوسف الأيّوبيّ في العام نفسه خضوعه للمغول، كما أنّ ظروف الظاهر بيبرس في مصر لم تكن

[١]- الذهبي، كتاب دول الإسلام، ج٢، ص١١٦، أحداث سنة ٦٤٨هـ، انظر أيضًا: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٥٧. انظر إلى التفاصيل: فوزي، فاروق عمر، حسين، محسن محمّد، الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، دار الشروق، الأردنّ، عمّان، سنة ١٩٩٩م، الطبعة الأولى، ص٢١٩، يشار إليه لاحقًا: فوزي، الوسيط.

[٢]- المقريزي، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٤٨٩.

[٣]- ابن تغرى بردى أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٣.

مستقرّة بعد سلسلة من الانقلابات الدمويّة المستمرّة بين الأمراء المماليك. وقد دفعت كلّ هذه الظروف بيبرس إلى التريّث في مجابهة الصليبيّين في بداية عهده.

واحتلت مدينة عسقلان مكانة مهمّة في خطط الظاهر بيبرس الحربيّة؛ إذ كان على دراية تامّة بأهميّتها، وموقعها الجغرافيّ، والدور الذي أدّته على مدار قرن من الزمن، في ظلّ الصّراع الصليبيّ الإسلاميّ عليها. وكان الصليبيّون قد شنّوا غارة عسكريّة على عسقلان في (شعبان ٦٦١هـ/ مايو ١٢٦٣م) فردّ عليهم الظاهر بيبرس بتوجيه قوّة عسكريّة نحو قيساريّة وعتليت، أوغلت وقتلت وأسرت بعض الصليبيّين.[١] وليس في المصادر ما يشير إلى ظروف عسقلان الداخليّة في هذه السنوات، لكن يبدو أنّ عسقلان كان قد أصابها الإهمال وبعض التخريب على إثر تواصل الغارات وتبادل السيطرة عليها بين المسلمين والصليبيّين.

يتبيّن لنا من خلال نشاط الظاهر بيبرس، وحملاته المتتالية على فلسطين منذ عام (٦٩٢هـ/ ١٢٦٤م) ضدّ الصليبيّين أنّ مدينة عسقلان لم تُذكر في حملاته هذه، لا في المصادر الإسلاميّة ولا في المراجع الأجنبيّة، وإنْ دلّ ذلك على شيء فهو يدلّ على أنّ مدينة عسقلان كانت شبه خالية من السكان، وتابعة للمسلمين، وليس للصليبيّين أيّ نفوذ عليها. حتى إنه لم يكن فيها على الصعيد العسكريّ أيّ قوّة عسكريّة أو حامية تُذكر، سواء للمسلمين أو الصليبيّين. وقد عرفت سنوات (٦٦٣- ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦- ١٢٦٧م) نشاطًا عسكريًّا قام به الظاهر بيبرس ضدّ الصليبيّين على مدن ساحل فلسطين، مثل قيساريّة وأرسوف[٢]، من غير أيّ إشارة إلى عسقلان ودخولها، ممّا يعني أنّ

---

[١]- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص١٨.

[٢]- المصدر نفسه، ج٢، ص١٧-٢٩. ابن الوردي، تتمّة المختصر في أخبار البشر، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٣١١-٣١٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٧٨١-٣٧٨٣.

مدينة عسقلان قد خرجت في هذه المدّة من مسرح الأحداث السياسيّة والعسكريّة؛ بسبب ما لحق بها من خراب ودمار في ظلّ الصّراع الأيّوبيّ – الصليبيّ.

وفي عام (٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م) تجدّدت عمليّات الهدم والتخريب في مدينة عسقلان، بعد أن أدرك الظاهر بيبرس صعوبة إعادة تحصينها. وعلى الرّغم ممّا تعرّضت له المدينة من تدمير وتخريب، فإنّ بعض أسوارها وأبراجها كانت ما تزال قائمة، ممّا حدا بالظاهر بيبرس إلى التوجّه إليها، وكان ذلك في (صفر ٦٦٩/ سبتمبر ١٢٧٠). يقول المقريزيّ: "توجّه السلطان إلى عسقلان؛ ليهدم ما بقي منها خوفًا من مجيء الفرنج إليها، فنزل عليها وهدم بنفسه ما تأخّر من قلعتها وأسوارها حتى سوّى بها الأرض[1]. وبذلك تكون مدينة عسقلان قد أضحت خرابًا.

ولو عدنا إلى الدوافع وراء قيام بيبرس باتمام تخريب مدينة عسقلان، لوجدنا أنه دافع واحد ووحيد، وهو قطع الطريق على الصليبيّين وثنيهم عن التفكير في إعادة تحصينها والاستيلاء عليها؛ لأنّ بيبرس في مشروعه التحريريّ لفلسطين وجميع بلاد الشام من الصليبيّين عرف أهميّة عسقلان والدور الذي أدّته على مدى الصّراع الإسلاميّ – الصليبيّ، خصوصًا في أثناء سيطرة الصليبيّين عليها وتهديدهم لمصر من خلالها. والجديد هذه المرّة، أنه نظرًا إلى أهميّة مدينة عسقلان، وحساسيّة موقعها، لم يعد الهدف هو تحصينها، إنما تدميرها وتخريبها ما أمكن من قِبل المسلمين؛ لمنع سيطرة الصليبيّين عليها. وبذلك تكون عسقلان قد دفعت ثمنًا باهظًا على المستويين: العمرانيّ والاجتماعيّ؛ بسبب أهميّة موقعها.

---

[1]- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٦٩.

وفي أواخر عهد الظاهر بيبرس، وتحديدًا في (١١ رمضان ٢٢/٦٧٠ مايو ١٤٧٢)، عقد الظاهر بيبرس اتفاقية صلح معَ الصليبيّين. يقول المقريزيّ: "وأتته رسل الفرنج بعكّا – وهو بالسواد– تطلب الهدنة، فسار وبعث إليهم الأمير فخر الدين أغار القرى، والصدر فتح الدين ابن القيسرانيّ كاتب الدرج، في حادي عشر من رمضان، ونزل السلطان بمروج قيساريّة فعقد الهدنة معَ الفرنج لمدّة عشرة سنين وعشرة أشهر وعشرة ساعات من التاريخ المذكور، وخرج أهل عكّا لمشاهدة العسكر[١]، وبموجب هذا الصلح احتفظ الصليبيّون بنفوذهم على المناطق الممتدّة من عكّا في السهل الساحليّ حتى صيدا، بينما بقيت مدينة عسقلان تابعة للمماليك.

وبعد وفاة الظاهر بيبرس سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م)[٢]، وتولي السلطان المنصور قلاوون السلطنة (٦٧٨– ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩م)، بقي حال مدينة عسقلان على ما هو عليه، ولم يطرأعليها أيّ تغيير أو أيّة مستجدات، فقد بقيت المدينة تحت سيطرة المماليك. وفي الهدنة التي عقدت بين السلطان المنصور قلاوون واسبتار الصليبيّين في عكّا، التي عرفت بهدنة عكّا، وذلك في (٢ محرم ٦٨٠هـ/ ٢٣ إبريل ١٢٨١م)، وكانت لمدّة عشرة أعوام وعشرة أشهر وعشرة أيّام، قُسّمت بناءً عليها مدن ساحل فلسطين بين الصليبيّين والمسلمين، واتفق فيها على أن تبقى عسقلان وموانئها ملكًا للمماليك.[٣]

يقول مصطفى العسقلانيّ: "إنّ الدلائل تشير إلى أنّ المماليك حرصوا في إبرامهم لمعاهدات معَ الصليبيّين على تأكيد سلطانهم على عسقلان ومدن الساحل؛ ضمانًا لأمن مصر من

[١]– المقريزي، السوك لمعرفة دول الملوك،ج٢، ص٧٧–٧٨.

[٢]– انظر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٢. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملـوك، ج٢، ص١٠٨. الـذهبي، تـاريخ دول الإسلام، ج٢، ص١٣٤. ابن الوردي، المختصر، ج٢، ص٣٢١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٨٠٦.

[٣]– المقريزي، السوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص١٣٩. ابن كثير، البداية والنهايةج١٣، ص٣٨٢٢. انظر أيضًا: عثامنة، فلسطين فـي العهدين، ص١٨٢. العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع، ص١٨٤.

ناحية، وحرمانًا للصليبيّين من تهديدها من ناحية أخرى، خاصّة وأنّ التحرّكات العسكريّة قد زادت من مصر إلا بلاد الشام في هذا العصر.[١]

وفي عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩- ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠- ١٢٩٢م) كان العدّ التنازليّ للوجود الصليبيّ في بلاد الشام قد شارف على النهاية، وبدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة خصوصًا بعد حصار مدينة عكّا وسقوطها بأيدي المسلمين يوم الجمعة الواقع في (١٧ جمادى الثانية ٦٩٠هـ/ ١٧ يونيو ١٢٩١)[٢]، تلك المدينة التي كانت حصن الصليبيّين الأخير، وكان سقوطها يُعدّ دقّ المسمار الأخير في نعش الوجود الصليبيّ في فلسطين وجميع بلاد الشام، بعد ثلاثة عقود من عمر الدولة المملوكيّة، ما أعلن بدوره عن نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة من تاريخ فلسطين وبلاد الشام أجمع. علمًا بأنّ مدينة عسقلان لم تغبْ عن المشهد السياسيّ العسكريّ من هذه الفترة؛ إذ حظيت باهتمام هذا السلطان عندما حشد فيها القوّات العسكريّة المنطلقة من مصر إلى بلاد الشام لمواجهة الصليبيّين.[٣]

وبذا، نخلص إلى أنّ مدينة عسقلان قد بقيت في ظلّ العهد المملوكيّ تابعة للمسلمين المماليك في مصر وخاضعة لسلطانهم، ولم يساوم المماليكُ الصليبيّينَ عليها لا في الحرب ولا في السلم والمعاهدات؛ نظرًا إلى معرفة سلاطينهم أهميّة موقعها، ودورها التاريخيّ في الصّراع الإسلاميّ الصليبيّ. والأهمّ من كلّ ذلك أنّ مدينة عسقلان، لم تؤدِّ دورًا في العهد المملوكيّ مثل الدور الذي أدّته في الصّراع الصليبيّ – الأيّوبيّ؛ بسبب الخراب الذي حلّ بها، والدمار الذي لحقها

---

[١]- العسقلاني، مصطفى، عسقلان ودورها في الصراع، ص١٨٤.

[٢]- المقريزي، السلوك لمعرفة دولة الملوك، ج٢، ص١٥٦. الذهبي، تاريخ دول الإسلام، ج٢، ص١٤٩. ابن الوردي، المختصر.

[٣]- المصدر السابق، ج٢، ص١٥٨.

نتيجة لمرحلة الصّراع الصليبيّ – الأيّوبيّ، وهذا ما جعلها في العهد المملوكيّ مدينة ساكنة ومهدّمة الأسوار والتحصينات، إلا أنّ سيطرة المماليك عليها كانت ضماناً أمنيًّا وحماية لسلطتهم في مصر.

الحياة الاقتصاديّة

إنّ مدينة عسقلان من المدن الفلسطينيّة التي عرفت نشاطًا اقتصاديًّا، سواء على المستوى الزراعيّ، أو المستوى الصناعيّ الحرفيّ، وكذلك الملاحيّ البحريّ والتجاريّ، وهذا يعود كما أُشير في الفصل الأول إلى طبيعتها وإلى موقعها الجغرافيّ ومُناخها المعتدل، سواء في الصيف أو في الشتاء، بالإضافة إلى موقعها الذي يُعدّ حلقة الوصل بين مصر وبلاد الشام، وهذا ما شجّع الحياة التجاريّة والصناعيّة فيها (الحرفيّة) معَ القوافل التجاريّة المارّة من بلاد الشام إلى مصر، والقادمة أيضًا من مصر إلى بلاد الشام.

وسنبدأ الحديث هنا عن الزراعة، وأهمّ المحاصيل الزراعيّة في مدينة عسقلان. ومن الجدير ذكره أنّ موقع مدينة عسقلان والتربة الرمليّة التي تميّزت بها؛ كونها مدينة بحريّة ساحليّة قد أثّرت في أنواع المحاصيل الزراعيّة ومواسم زراعتها، ومن بين هذه المحاصيل التي اشتهرت زراعتها فيها الأشجار المثمرة، مثل: التين والكروم والرّمان والبرقوق والجمّيز، إلى جانب الخضروات والحبوب[١]. كما عرفت مدينة عسقلان زراعة النخيل والموالح والبِطّيخ[٢]، فكانت تزرع هذه المحاصيل فيها، وفي المواقع المحيطة بها منذ أقدم العصور من تاريخها، وقد كان جزء من المحاصيل التي ذُكرت سلفًا بعليّة؛ أي تعتمد على الأمطار الموسميّة، بينما كان الجزء الآخر يعتمد

---

[١]– انظر: الاصطخري، المسالك والممالك، ص٤٤، وانظر أيضًا: ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي الموصلي (ت٣٥٦ هـ/٩٦٦م)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، الطبعة الأولى، ص١٥٦، وسيشار إليه لاحقًا: ابن حوقل، صوة. المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٧١. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣٢٣. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٣٩.

[٢]– نبهان، عسقلان، ص٣٧٧، انظر أيضًا: أبو رحمة، زهير، الحياة العلميّة، ص٧٥.

على مياه الرِّيّ؛ إذ بحكم وجود المياه الجوفيّة فيها في أعماق متوسّطة، فإنّ ذلك يسهّل عمليّة حفر الآبار الجوفيّة؛ لاستخدامها في فصل الصيف. كما خزّن أهل عسقلان مياه الأمطار في صهاريج كبيرة استخدموها للشرب[١]؛ حيث وصفها صاحب مؤلف أحسن التقاسيم، بقوله: "عسقلان على البحر جليلة كثيرة المحاسن والفواكه وأشجار الجمّيز جامعها في البزازين، وقد فرش بالرّخام بهيّة فاضلة، حصينة قزها فائق[٢]، وخيرها دافق، والعيش فيها رائق.[٣]

وقد عُرفت مدينة عسقلان، وكذلك معظم مدن الساحل بزراعة الكرمة (العنب)؛ حيث كان له شهرة خاصّة قبل الإسلام؛ إذ كان المصدر الأساسيّ لخمور روما[٤]. وقد أشار المؤرّخ أبو الفداء إلى البساتين وكثرتها في غزّة، لكنه لم يشر إليها في عسقلان[٥]، ويؤكّد الإدريسيّ ذلك، بقوله: وأمّا مدينة عسقلان فهي مدينة حسنة ذات سورين، وبها أسواق وليس بها من خارجها بساتين، وليس بها شيء من الشجر.[٦] مع أن المقدسي قد أشار إلى كثرة الزراعة فيها مثل أشجار الفواكه والزيتون والجُميز[٧].

إنّ ما أشار إليه الإدريسيّ صحيح، ولكنّ هذا لا ينطبق على جميع المراحل من تاريخ المدينة، فالإدريسيّ من جغرافيي القرن السادس للهجرة، الثاني عشرة للميلاد، وقد عاين المدينة في

١- الصوري وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨٠٩.

٢- قزها: وهو حرير دودة القز الذي كانت تشتهر به.

٣- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٧١.

٤- يقول جدعون فوكس: إنّ النبيذ والخمور كانت تصنع من عنب عسقلان وغزّة، وكانت كلّ الخمور ترسل منهما إلى مصر وبلاد الشام، ويضيف إنّ نبيذ عسقلان كان ذائع الصيت منذ مراحلَ مبكرةٍ من التاريخ الروماني في البلاد. انظر: فوكسس، جدعون، عير ربات يميم، ص٨٤، وانظر أيضًا: حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: جورج حدّاد وعبدالكريم رأفت، دار الثقافة، بيروت، د. ت، الطبعة الأولى، ج١، ص٣٩١.

٥- أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٣٩.

٦- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٥٩.

٧- المقدسي، أحسن التقاسيم، ج٢، ص٨٠٩.

هذه المدّة، ما يعني أنّ مدينة عسقلان والحياة الزراعيّة قد لحقها الخراب والدمار؛ نتيجة الصّراعات التي مرّت بها في القرنين الثالث والرابع للهجرة، في ظلّ الصّراع الإسلاميّ – الصليبيّ. لكنّ زهير أبو رحمة يقول: إنّ ذلك راجع إلى أنّ عسقلان كانت بمثابة ثغر من ثغور الإسلام، التي كانت مليئة بالمقاتلين والمرابطين وليس الفلاحين.(١)

أمّا عن أهمّ النباتات والبقوليّات في عسقلان، فكان البصل، الذي عُرف باسم البصل العسقلانيّ، وهو من أهمّ الزراعات البقوليّة، التي عرفت فيها المدينة منذ مراحلَ مبكّرة من تاريخها ما قبل الإسلام؛ إذ يقول الإسرائيليّ جدعون فوكس: "في داخل مدينة عسقلان ومحيطها ظهر نبات مميّز، هو البصل صغير الحجم الذي كان معروفًا عند اليونانيّين منذ القرن الرابع قبل الميلاد. كما عرفت مدينة عسقلان في مدّة لاحقة؛ أي المرحلة البيزنطيّة بزراعة بعض أنواع النباتات والحبوب التي كان يُستخرج منها الزيت(٢)، بالإضافة إلى ما أشار إليه ابن البيطار إذ ذكر النباتات الطبيّة التي عرفت زراعتها في مدينة عسقلان، مثل: بخور مريم(٣)، وأبو عبيد البكري، وكان المرء يُسقى من نباتات برية للوقاية من نهش الأفاعي، ممّا يدلّ على انتشار الأفاعي والزواحف اللاذعة في مِنطقة عسقلان، أضاف إلى ذلك ذكره نبتتي: فتائل الرُّهبان(٤).

١- أبو رحمة زهير، الحياة العلمية، ص٨٥.

٢- المرجع نفسه، ص٨٥-٨٦.

٣- يُعرف بأفريقيا بخبز المشايخ وأهل الشام بعرفونه بالركف له ورق شبيه بورق قسوس وفي الورق آثار لونها إلى البياض وساق طولها أربع أصابع عليها زهر شبيه بالورد الأحمر وفي لونه فرفيرية وله أصل أسود شبيه بشكله بالشلجم إلى العرض مائل وقد يقطع بصل هذا النبات ويخزن مثل بصل الغار وينبت في مواضع ظليلة وأفياء وخاصة في ظلال الشجر. أنظر: ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمّد عبدالله بن أحمد الأندلسيّ المالقيّ العشاب، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دون تحيقيق، ٤ أجزاء، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٩٩٢م، ج١، ص١١٥. وسيشار إليه فيما بعد ابن البيطار/ الجامع.

٤- وهي نبتة منبسطة على الأرض رجليه الورق على الاستدارة ما هي صلبة الأغصان في ورقها جعودة ويسير قيض مزغبة ما هي شديدة الخضرة تكون على الأرض في استدارة على قدر الشبر تخرج فيما بين تضاعيف الورق على الأغصان زهرة دقيقة إلى الصفرة ما هي على شكل زهرة الرجله ثم يسقط فيخلفه من الحلبة صلب ويسقط وتورق وتنقبض الأغصان وترتفع على الأرض حتى ترجع على الشكل الذي يتعارفه الناس على حسب ما تجلب إليهم وقل من يعرفها على الصفة التي وصفت أيضاً ولم يحللها أحد قبلي

وكفّ مريم.[١]

ويشير الإسرائيليّ ناحوم شكيف، في أثناء حديثه عن الحياة الزراعيّة في عسقلان في المرحلة الرومانيّة، إلى نوع نبات انتشرت زراعته في عسقلان، ويسمّيه باللغة العبريّة: "الكوفر" (Lawsonia inermis)، وهو ما يعرف عند العرب "بالحنّاء"، الذي كان يعطي لونًا أحمر مائلاً إلى السواد؛ حيث كان يستخدمه الرومان لوشم أجسادهم بالرّسومات والرموز، كما كانت النساء تستخدمه أيضًا مسحوقًا للتزيّن في الأفراح والمناسبات، وقد كان الحنّاء العسقلانيّ من أكثر الأنواع شهرة؛ لذا كان يباع بأسعار عالية جدًّا[٢]. وفي المدّة نفسها وما تلاها في ظلّ السيطرة البيزنطيّة على مدينة عسقلان يشير شكيف إلى كثرة زراعة شجرة التين بجميع أنواعه وألوانه، وكان أشهر أنواعه: " تين بربريت"، نسبة إلى قرية عربيّة اسمها "بربرة" كانت قائمة في القرن الرابع للميلاد في محيط مدينة عسقلان"[٣].

ومن النشاطات الزراعيّة الأخرى التي عرفتها مدينة عسقلان، تربية الأسماك؛ إذ كانوا يقيمون البرك المائيّة الاصطناعيّة لأجل ذلك، وهذا يعود إلى كون مدينة عسقلان مدينة ساحليّة ممّا مكّن من إقامة هذه البرك المائيّة على شاطئ المدينة. يقول جدعون فوكس: "إنّه وفي أعمال حفر

فيما علمت وقد رأيتها في صحراء مصر وأيضاً بالمغرب ورأيت فيها نوعا بجبال بيت المقدس صغيرة أبيض اللون دقيق العيدان مدحرج الخلقة دقيق البزر وهذا النوع هو موجود أيضاً في طريق عسقلان في الصحاري. أنظر: ابن البيطار، ج٤، ص٣٣٧.

١- هي شجيرة نباتها من الأرض قدر ذراع وزيادة قليلاً ولها ورق مثل ورق الشونيز وفيه كهيئة الزغب أملس اللمس وله عرق طيب الرائحة فإن نزعت منه غصناً فألقيت ورقه ثم جعلته في مصباح وجعلت منه زيتاً فإنه يسرج والرهبان يجعلونه فتائلهم وله جذور دقاق بعرق طويل في الأرض طريه ولونه إلى الصفرة وله طعم حار وعرف طيب وله ثمرة صغيرة صفراء مجتمعة في أطراف عيدانها مرة الطعم وله حب مثل حب الجرجير ولأصل هذا النبات قوة حارة تطرد البلاد وتأكل البلغم وهي تنبت بالشام وفي السواحل وفي الرمال. أنظر: ابن البيطار، ج٣، ص٢١٣.

٢- شكيف، ناحوم، أشكلون كلات هدروم (عسقلان قلعة الجنوب)، مجموعة باحثين، دراسة بتاريخ مدينة عسقلان منذ أيام البنائين حتى نهاية القرن العشرين، الكلية الأكاديميّة أشكلون (عسقلان) عسقلان، ٢٠٠٢م، الطبعة الأولى، ص٣١٤، وسيشار إليه لاحقًا: شكيف، أشكلون.

٣- المرجع نفسه، ص٣٥.

وتنقيب حديثة سنة ١٩٨٥م على شاطئ مدينة عسقلان، اكتُشفت على عمق ثلاثة أمتار في الرّمال بركتان مائيّتان خُصّتا لتربية الأسماك، وتعود هذه البرك المائيّة إلى المرحلة البيزنطيّة من تاريخ المدينة"[١] ويضيف: "إنّ الهدف من بناء هذه البرك وتربية الأسماك فيها هو ضمان وفرة الأسماك على نحو دائم لبيعها وأكلها، وكذلك لضمان وجود أسماك طازجة على نحو دائم.[٢]

إنّ ما أُشير إليه آنفا، من منتوج عسقلان الزراعيّ وأنواع المحاصيل وجودتها، يبيّن مدى أهميّة هذه المدينة وغناها وخصوبة أراضيها. يقول زهير أبو رحمة: "إنّ المحاصيل الزراعيّة لغزّة وعسقلان على الخصوص وفلسطين على العموم، جعلت الجغرافيّين والمؤرّخين العرب يؤكّدون ارتفاع مقادير الخراج والجزية، من بلاد الشام إلى خزينة بيت مال المسلمين طَوال الخمسة القرون الإسلاميّة الأولى.[٣] ويضيف: ويتأكّد من خلال الإحصائيّات النقديّة والعينيّة ارتفاع جند فلسطين من حصيلة خراج بلاد الشام والجزيرة معًا؛ إذ تراوح ما نسبته من (٤٠-٦٠%)؛ وذلك لأسباب عدّة: منها، خصوبة التربة، ووفرة المحاصيل، والمواسم الجيّدة، ونجاعة جهاز الجباية، واستقرار الأوضاع السياسيّة والأمنيّة في غالبها".[٤]

نتّفق معَ ما أشار إليه أبو رحمة بخصوص فلسطين على نحو عام، وإنتاجها الزراعيّ في ظلّ القرون الإسلاميّة الخمسة الأولى، لكنّ لمدينة عسقلان ظروف خاصّة أفضت إلى تراجع الحياة الزراعيّة في ظلّ الحكم الإسلاميّ عليها مقارنة بالحياة الزراعيّة في مراحل ما قبل الإسلام؛ فقد لوحظ ممّا ورد سابقًا وما أشارت إليه بعض المصادر وبعض المراجع أنّ الحياة الزراعيّة في

١- فوكس، جدعون، عير ربات يميم، ص٨٧.
٢- المرجع نفسه، ص٨٧-٨٨.
٣- أبو رحمة، زهير، الحياة العلميّة في عسقلان، ص٥٨.
٤- المرجع نفسه، ص٥٨.

عسقلان في المرحلتين: الرومانيّة والبيزنطيّة ما قبل الفتح العربيّ كانت أكثر نشاطًا وأكثر تنوّعًا ممّا كانت عليه بعد الفتح العربيّ الإسلاميّ، وقد أشارت إلى ذلك بعض المصادر على نحو واضح[١]، وهذا يعود إلى جملة من الأسباب يمكن أن نجملها في الآتي:

١- إنّ الفاتحين العرب القادمين من الجزيرة العربيّة إلى بلاد الشام هم محاربون ومقاتلون وليسوا فلاحين، لا بل إنّ سكان الجزيرة العربيّة لم يألفوا الفلاحة والزراعة بقدر ما ألفوا الغزو والقتال، إضافة إلى التجارة. وهذا ما جعل هؤلاء القادمين يعتمدون في أحسن الأحوال الحرب أو التجارة كمصدر للرزق وليس الزراعة، الأمر الذي أدّى إلى تراجع النشاط الزراعيّ في بعض المدن مثل عسقلان، قياسًا بما كانت عليه المدينة قبل الفتح العربيّ.

٢- إنّ مدينة عسقلان، بحكم موقعها على ساحل البحر، وكونها مدينة ثغر من ثغور الإسلام، وبسبب حساسيّة موقعها ضدّ الأخطار الخارجيّة، تحوّلت إلى حامية عسكريّة وبنيت فيها القلاع والحصون والأسوار، ممّا أكسبها طابعًا عسكريًّا أمنيًّا، فنزلها العساكر والمقاتلون وليس الفلاحون، وهذا بالطبع كان على حساب الحياة الزراعيّة فيها.

٣- يقول أبو رحمة سابقًا: إنّ فلسطين قد عرفت الهدوء والاستقرار على مدار القرون الخمسة الأولى، لكنّ ذلك لا ينطبق على مدينة عسقلان على الدوام، فمن خلال فصول هذه الدراسة لمدينة عسقلان في ظلّ الحكم الإسلاميّ عليها، تبيّن أنّ هذه المدينة لم تعرف بعد سقوط الدولة الأمويّة الهدوء والاستقرار إلا النزر اليسير. فمنذ العصر العباسيّ الأول من النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة وحتى نهاية الحروب الصليبيّة؛ أي حتى نهاية القرن السابع للهجرة، ومدينة

---

[١]- ما ذكره الإدريسي، وكذلك الحميري حول قلّة بساتين عسقلان وقلّة محاصيلها في زمن المؤلفين، انظر: الحميري، محمّد بن عبدالمنعم الصنهاجي (ت ٧٢٧هـ-١٣٢٦م) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، دار القلم، بيروت، ١٩٧٥م، ط١، ص٤٢٠.

عسقلان ساحة للصراعات السياسيّة والعسكريّة، ما جعلها مدينة متوتّرة ومتقلّبة الأحوال؛ فتراجعت الحياة الزراعيّة والفلاحيّة فيها لأنّ ازدهار الزراعة يحتاج إلى هدوء واستقرار.

٤- ما عانته مدينة عسقلان في ظلّ الصّراع الإسلاميّ – الصليبيّ، الأمر الذي أدّى إلى تدميرها وجعلها خرابًا. والمقصود ما فعله صلاح الدين من تدمير لهاوتخريب بها سنة (٥٨٧هـ/ ١٢٩١م). علمًا بأنّ هذا الدمار الذي لحق بالمدينة كان قد قضى على الحياة الزراعيّة فيها وفي محيطها.

ونظرًا إلى هذه الأسباب، نجد أنّ الحياة الزراعيّة في مدينة عسقلان قد تراجعت في ظلّ الحكم الإسلاميّ، بينما كانت في المراحل التي سبقت الفتح العربيّ الإسلاميّ؛ أي المرحلتين: الرومانيّة والبيزنطيّة، أكثر انتشارًا ونشاطًا.

الصناعة والحرف

لقد عرفت مدينة عسقلان الكثير من الحرف والصناعات، ومنها الصناعات التي اعتمدت على المحاصيل الزراعيّة، مثل: صناعة النبيذ التي ترتبط بزراعة الكُرمة والعنب، وكذلك صناعة بعض أنواع الزيوت، التي تعتمد على بعض محاصيل الحبوب والنباتات[١]، كما عرفت صناعة السكر؛ إذ أشار سبط ابن الجوزيّ إلى وجود مقصبة صناعة السكر داخل أسوار مدينة عسقلان[٢]، وهذا يدلّ على أنّ زراعة قصب السكر قد انتشرت فيها؛ فالمُناخ الجغرافيّ للمدينة من حيثُ درجاتُ

١- راجع: فوكس، جدعون، عير ربات يميم، ص٨٤. انظر أيضًا: حتي: فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج١، ص٣٩١. شكيف ناحوم، أشكلون كلات هداروم، ص٣٤.

٢- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، مرآة الجنان في تاريخ الأعيان، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الشروق، بيروت ١٩٨٥م، ط١، ج٨، ص٢١٥، وسيشار إلية لاحقًا: ابن الجوزي، مرآة.

الحرارة والتربة الرمليّة، وكذلك توفيرُ المياه الجوفيّة فيها ساعد على انتشار زراعة قصب السكر حتى التاريخ الحديث في مدن، مثل: عكّا، والزيب[١].

ومن أشهر الصناعات التي اشتهرت بها مدينة عسقلان، كانت صناعة النسيج، فهي حرفة عرفت في بلاد الشام منذ آلاف السنين؛ إذ كانت من أشهر بلدان العالم في صناعة الغزل والنسيج، وخصوصًا سوريا، التي ترجع صناعة المنسوجات فيها إلى أيّام الفينيقيين، وبقيت فيها حتى التاريخ المعاصر[٢]. وقد اعتمدت صناعة النسيج والغزل وصناعة الأقمشة في بلاد الشام على مصادر عدّة، منها : شَعْرُ الماعز الذي كان ينسج ليصنع منة خيام البدو في البادية، وقراب الماء بالإضافة إلى وبر الإبل، وسمّيت الخيام المصنوعة من شَعْرِ الماعز ببيوت الشَّعر، ومن مصادر صناعة النسيج في بلاد الشام أيضًا الصوف، الذي يؤخذ من الأغنام والمواشي، وبقي هذا المصدر ساريًا حتى يومنا هذا، بالإضافة إلى المصدر الأوّل والرئيس في صناعة النسج وهو القطن، الذي انتشرت زراعته في مصر وبلاد الشام.

وكان لمدينة عسقلان قسط وافر في صناعة النسيج وحياكة الأقمشة، وقد اعتمدت فيها على زراعة القطن، المنتشر فيها منذ ما قبل الفتح العربيّ الإسلاميّ، الذي كان المصدر الأساسيّ لمنسوجاتها؛ وبذا ذاع صيت عسقلان في صناعة النسيج وحياكة الثياب؛ حيث عرفت في جميع الولايات الإسلاميّة بالثياب العسقلانيّة[٣]. كما عرفت مدينة عسقلان بصناعة الأقمشة الحريريّة، وقد أشار الدبّاغ إلى انتشار هذه الصناعة وشهرتها في مدينة عسقلان؛ إذ اعتمدت على شرانق دودة القزّ

---

[١]- منطقة الزيب تعدّ من ضواحي مدينة عكا ونهاريا، وهي منطقة سهلية ساحليّة، تتميّز بتربتها الرمليّة وتكثر فيها زراعة القصب؛ نظـرًا إلى توافر المياه فيها، ووجود مُناخ ملائم لزراعتها.

[٢]- انظر: حتي، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج١، ص٣٠٤. صالحة، محمود، المجدل، عسقلان تاريخ وحضارة، ص١١١.

[٣]- انظر: المقدسي، أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم، ص١٦٠.

التي كانت تجلب من الصين وتربّى في عسقلان[١]، وقد أشرنا إلى قول المقدسيّ سابقًا: وقزّها فائق[٢].

يقول أبو رحمة: إنّ مزارع التوت المنتشرة بكثرة في عسقلان، كانت تُعدّ الغذاء الرئيس لدودة القزّ، ممّا ساعد على صناعة الحرير، فأنتجت عسقلان الحرير فائق الجودة، ومن أشهر أنواع المنسوجات الحريريّة العسقلانيّة: الشقق المتطرّز، والباذج، الذي كان يصنع خصّيصًا لكبار رجال الدول[٣]. وقد أشار صاحب أحسن التقاسم إلى أسواق عسقلان، التي كانت المصدر الرئيس لملابس الخلفاء الفاطميّين وكبار رجال الدولة[٤].

ومن الحرف والصناعات التي عرفت في عسقلان، الدباغة، وهي دبغ جلود المواشي، وقد عرفت بعض مدن فلسطين هذه الحرفة، وكذلك أيضًا: الصباغة؛ أي صباغة الأقمشة والثياب بالألوان المختلفة؛ إذ اشتهرت عسقلان وكذلك الرّملة بهذه الصناعة؛ حيث أشار البلاذريّ إلى إنشاء الخليفة الأمويّ سليمان بن عبدالملك عند بنائه مدينة الرّملة دارَ الصباغة أو دارَ الصباغين فيها، التي استولى عليها العباسيّون في ما بعد[٥].

ومن الصناعات التي اشتهرت في مدينة عسقلان، الصناعات الطبيّة، مثل: الأدوية والوصفات الطبيّة، بالإضافة إلى العطور، وقد كانت تُستخرج من بعض أنواع النباتات التي أشار ابن البيطار إلى جزء منها، مثل: بخور مريم، كما أشار أبو عبيد البكريّ إلى فتائل الرّهبان[٦].

١- الدبّاغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ج٨، ص٦٩٣.

٢- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧١.

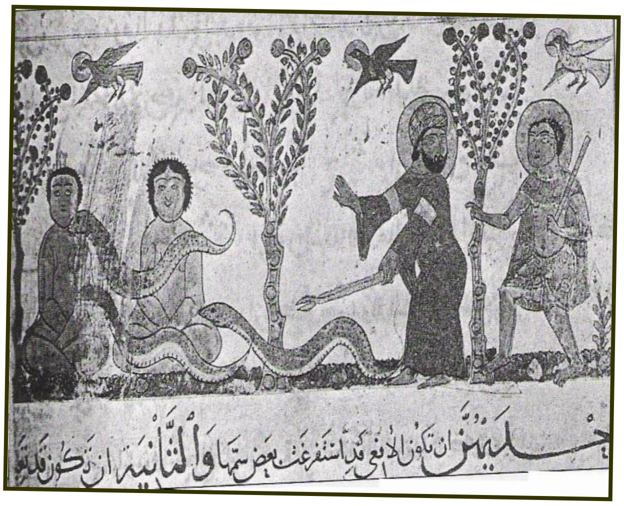
٣- انظر: أبو رحمة، زهير، الحياة العلميّة في عسقلان، ص٥٩.

٤- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٤.

٥- البلاذري، فتوح البلدان، ص١٧٠.

٦- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص٢١٣.

فضلاً عن غير ذلك من النبات والأزهار التي كانت تُستخرج منها الوصفات الطبيّة. وقد أشار الدكتور يارون ساري إلى إحدى أهمّ الصناعات الطبيّة التي اشتهرت في مدينة عسقلان وهو الترياق العسقلانيّ، الذي كان يصنع خصيصًا للوقاية من لدغات الأفاعي والزواحف الأخرى[١]، وقد عرفت صناعة دواء الترياق في فلسطين وجميع بلاد الشام منذ مراحلَ مبكرة ما قبل الفتح العربيّ أيام الرومان، وفي عسقلان يقول يارون: يتبيّن لنا أنّ صناعة الترياق كانت قد عرفت أيضًا في مدينة عسقلان في منتصف القرن العاشر للميلاد، ولم يذكر أن أقام شخص في هذه الفترة ولم يحقن من هذا الدواء، وقد أخذت طريقة صناعة هذا الدواء عن أهل اليمن، لكنّ الزهور التي كان يستخرج منها زهورٌ ونباتاتٌ محليّة، كانت تنتشر في محيط عسقلان، وواحدة من أشهر هذه الزهور كانت زهرة: المحلتسة (المخلصة)، التي كانت تنبت في حقول عسقلان الزراعيّة[٢].



تظهر هذه الصورة كثرة الأفاعي في عسقلان، ما دفع سكان المدينة إلى صناعة الترياق.



١- ساري، يارون، أشكلون كلانت هداروم، عسقلان قلعة الجنوب، مجموعة باحثين، دراسة لمدينة عسقلان منذ أيام البنائين وحتى نهاية القرن العشرين، الكلية الأكاديمية أشكلون (عسقلان)، ٢٠٠٢م، ط١، ص٤٩، وسيشار إليه لاحقًا: شار، أشكلون. الملخّصة هي النبتة أو الزهرة نفسها التي كانت تنتسب إلى اسم عبيد البكري. انظر: ساري، يارون، اشكلون، ص٥٠.

٢- المرجع نفسه، ص٥٠-٥١.

تظهر هذه الصورة صناعة الترياق في مدينة عسقلان وتعود إلى منتصف القرن العاشر مــيلادي، نقــلاً عــن ساري يارون.

وقد وُجدت في عسقلان بعض الحِرف اليدويّة الخفيفة، ومنها القناديل المعلّقــة[١] والفــوانيس الزجاجيّة ذات الأغلفة الشفّافة لحماية لَهَبِها[٢]، وعرفت عسقلان أيضًــا صــناعة الأدوات الحــادّة كالسكاكين والفؤوس وأدوات الحرب والقتال، من مثل السيوف والنبال[٣]. وكون أنّ مدينة عسقلان مدينة بحريّة تقع على ساحل البحر، فقد اشتهرت فيها صناعة ثقيلة ومركزيّة وهي صناعة الســفن، وظهرت صناعة السفن أوّل ما ظهرت في مدينة عسقلان في أثناء السيطرة الفاطميّة على المدينــة، بعد أن كانت مدينة عكّا مرفأ صناعة السفن أيّام الأمويّين[٤]، إلا أنّ عسقلان كانــت إحــدى أهــمّ المرافئ لصناعة السفن وأهمّ القواعد البحريّة أيّام الفاطميّين[٥]، وأصبحت صناعة السفن فيها تقليدًا متوارثًا لدى الأهالي في المدن الساحليّة[٦].

١- المقريزي، اتعاظ الحنفا في تاريخ الأئمة الفاطميّين الخلفاء، ج٣، ص٨٦.

٢- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبيّة، ج٢، ص٨١١.انظر: أبو رحمة، زهير، الحياة العلميّة في عسقلان، ص٦٠.

٣- الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٣٧.

٤- البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٠، ابن اعثم الكوفي، الفتوح، ج١، ص٣٤٨،

٥- خسرو، ناصر، سفرنامة (ت ٤٨٠ هــ/ ١٠٨٧م)، ترجمة يحيى الخشاب، تصدير عبد الوهاب، الهيئــة المصــرية العامــة للكتــاب، ١٩٩٣م، ص٩١. وسيشار إليه فيما بعد ناصر خسرو.

٦- انظر: عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين والمملوكي، ص٣٠١، أبو رحمة، الحياة العلمية في غزة وعسقلان، ص٦٠.

التجارة

لقد شهدت مدينة عسقلان على مرّ العصور نشاطًا تجاريًّا، وتبادلاً للبضائع والمنتوجات على المستويين: الداخليّ المحليّ، والخارجيّ الأجنبيّ. فعلى المستوى الداخليّ كان موقع مدينة عسقلان الجغرافيّ قد أتاح لها نشاطًا تجاريًّا محليًّا منذ مرحلة ما قبل الفتح العربيّ الإسلاميّ؛ كونها حلقة وصل للقوافل التجاريّة القادمة من بلاد الشام إلى مصر وبالعكس؛ إذ كانت سوقًا تجاريًّا رائجًا لحركة التجار الدائمة وملتقى لقوافلهم عند دخولهم وخروجهم إلى البادية[١]، وقد أشار إليها ناصر خسرو في رحلته وذكرها بقولة: "ثمّ بلغنا مدينة تسمّى عسقلان، وكان بها سوق وجامع جميل رأيت بها طاقًا جميلاً قيل إنّه كان مسدًّا، وهو خامة من الحجر الكبير، ولو أرادوا هدمه لزمه إنفاق مال كثير[٢]. وكان يتمّ فيها افتداء الأسرى المسلمين من الروم بتعاون شعبيّ وتشجيع حكوميّ وشراء الجزية والبضائع، وإنّها مدينة منظّمة.[٣]

ومن الطبيعيّ أن تشهد مدينة عسقلان نشاطًا تجاريًّا في ظلّ ما أُشير إليه سابقًا، من نشاط زراعيّ وصناعيّ وحرفيّ. فهذا النشاط لزراعة المنتوجات، والمحاصيل، والصناعات الغذائيّة، والطبيّة، وكذلك النسيج إنْ دلّ فإنّه يدلّ على مدينة رائجة تجاريًّا في بيع البضائع وشرائها.

وعلى المستوى الخارجيّ أيضًا، عرفت مدينة عسقلان نشاطًا تجاريًّا في التصدير والاستيراد على مرّ العصور، وهذا بالتأكيد بحكم موقعها على البحر كمدينة ساحليّة، وبحكم مينائها الذي أدّى دورًا أساسيًّا في التجارة معَ الغرب؛ فقد أشار إليه ابن رستة في أثناء وصفه مدينة

---

[١]- البلاذري، أنساب الأشراف، ج١، ص٩٤.

[٢]- خسرو، ناصر، سفرنامة، ص٩١.

[٣]- انظر: صالحة، محمود، المجدل، عسقلان، تاريخ وحضارة، ص١٣.

القسطنطينيّة؛ إذ قال: "وحمل إلى القسطنيطينيّة على طريق البحر في المراكب من عسقلان[١]. وقد أشار المبيض أيضًا على نحو واضح إلى النشاط التجاريّ لأسواق عسقلان وكذلك عزّة استيرادًا وتصديرًا،والى الأساليب التجاريّة التي وُجدت في العصر الفاطميّ في فلسطين إقامة سوق للبيع والشراء في يوم من أيام الأسبوع.[٢]

وهناك جانب آخر كان لعسقلان أهميّة كبرى فيه، وهو: جانب النقود وصكّ العملة؛ فقد أدّت نقودها دورًا مهمًّا وَفقًا لنشاطها التجاريّ كميناء[٣]، وعرفت هذه المدينة صكّ النقود منذ ما قبل الفتح العربيّ الإسلاميّ؛ إذ يقول فوكس: إنّ تاريخ النقود في عسقلان يعود إلى مراحلَ مبكّرة من تاريخ المدينة منذ المرحلة الهيلنستيّة والرومانيّة فيها[٤]، ما يعني أنّ هناك نقودًا خاصّة ترتبط بمدينة عسقلان منذ عصور قديمة بسبب موقعها البحريّ التجاريّ، وقد أفرد فوكس حيّزًا خاصًّا في كتابه للحديث عن تاريخ النقود والعملة في عسقلان ودور النقد وصكّ العملة فيها؛ إذ يسمّي دار النقد "مدبيسة"، وبالعربيّة تعني "مطبعة"، والمقصود دار صكّ النقود.

يقول فوكس في دور النقد بعسقلان: "تقريبًا كان لكلّ مدينة في الشرق عملتها (نقودها) الخاصّة بها، وعسقلان كانت كذلك، وقد وجدت قطع نقدية تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد تحمل شارة دار النقد في عسقلان التي كانت برسم اليونا (الحمامة)[٥]، وقد استمرّت عمليّة صكّ النقود في

---

[١]- ابن رستة، أبو عليّ أحمد بن عمر (ت ٣٠٠هــ/٩١٢ م)، كتاب الاعلاق النفسيّة، دون تحقيق، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل،١٨٩١م، م٧، ص٣٣٩.

[٢]- انظر في ذلك: المبيض، سليم عرفات، النقود العربيّة الفلسطينيّة، من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام ١٩٤٦م، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، الطبعة الأولى، ص٤٥-٤٨.

[٣]- فوكس، جدعون، عير ربات يميم، عسقلان في العهدين الهيلنستي والروماني، ص١٠١.

[٤]- المرجع نفسه، ص١٠١-١٠٢.

[٥]- المرجع نفسه، ص١٠١.

عسقلان في الفترة البيزنطيّة التي سبقت الفتح العربيّ للمدينة، وبقيت النقود البيزنطيّة هي المتداولة معَ الفتح العربيّ الإسلاميّ حتى تعريبها في العصر الأمويّ، ففي هذه المدّة كانت عسقلان إحدى أهم المدن الإسلاميّة التي صكّت بها النقود الإسلاميّة؛ حيث عثر على بعض النقود التي تحمل عبارة "ضربت بعسقلان فلسطين"، وعثر أيضًا على نقود نحاسيّة من غير تاريخ ضُربت بعسقلان، كما يحتوي مُتحف الاشموليّات بأكسفورد على فلس كتب على مداره ظهر "بسم الله الرّحمن الرّحيم، ضرب هذا الفلس في عسقلان.[١]

وشهدت مدينة عسقلان نشاطًا نقديًّا في ضرب العملة والنقود في العصر الفاطميّ أيّام الخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله، وكانت من المدن الرئيسة لضرب النقود؛ حيث يقول المقريزيّ: "وصار ما يضرب باسم الخليفة في ستّة مواضع: القاهرة، ومصر، وقوص، وعسقلان، وصور، والإسكندريّة.[٢] وقد أشار عادل نبهان إلى وجود أربع وعشرين قطعة من النقود الذهبيّة التي ضربت في مدينة عسقلان في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله.[٣]

الحياة الاجتماعيّة في عسقلان

يُعدّ موضوع كتابة التاريخ الاجتماعيّ للمدينة العربيّة الإسلاميّة من أكثر الموضوعات صعوبة على الباحث، وهذا ناجم عن غياب البعد الاجتماعيّ في الرواية الإسلاميّة العربيّة، فالمصادر الإسلاميّة، وتحديدًا المبكرة منها، تركّز في روايتها حول المدن الإسلاميّة على الجانبين: الدينيّ والسياسيّ، أكثر من الجوانب الأخرى، كالجانب الاقتصاديّ، والاجتماعيّ، وكذلك الثقافيّ،

---

[١]- انظر: نبهان، عادل، عسقلان منذ منتصف القرن الرابع الهجري وحتى النصف الثاني من القرن السابع الهجـري، دراسـة تاريخيّـة وحضاريّة، ص٣٨٣. وانظر أيضًا: أبو رحمة، الحياة العلمية في غزة وعسقلان، ص٦١.

[٢]- المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٥٠.

[٣]- نبهان، عسقلان منذ منتصف القرن الرابع الهجري، ص٣٨٣.

وهذا ما يجعل الباحث يقف حائرًا أمام هذه المصادر عند كتابته للتاريخ الاجتماعيّ. يقول عماد الدين خليل في هذا الموضوع: "إنّ المتصدّي لكتابة الجوانب الاجتماعيّة للمدن الفلسطينيّة يعاني من شحّ المعلومات في كتب الجغرافيا والرّحلات، ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ عنصر الجذب لفلسطين كان وسيظلّ مركزها الدينيّ للديانات السماويّة، فالرّحالة أو الجغرافيّ بغضّ النظر عن ديانته وجنسيّته عندما يشدّ الرّحال إلى فلسطين لا يكاد يرى إلا ما قد جاء لكي يراه فعلاً، وهو تراث فلسطين الدينيّ، فلا نتوقّع منه أن يحدثنا عن كيف يعيش الناس وما يعملون.[١]

هذا بالنسبة إلى فلسطين على نحو عام؛ إذ يقول زهير أبو رحمة: فكيف يكون الحال بالنسبة إلى مدينتين تقعان جنوبيّ فلسطين (غزّة وعسقلان)؟ حتمًا سيكون البحث أشدّ صعوبة، لذلك لا بدّ من التعميم لا محالة لصغر حجم فلسطين بالمقارنة معَ الولايات الأخرى، بالإضافة إلى تقارب المدن الفلسطينيّة وتداخلها لعامليّ التقارب والمصاهرة والرّحلة في طلب العلم بين المدن الفلسطينيّة[٢]. ومن المهمّ أيضًا الإشارة إلى أنّ الظروف التي تعرّضت لها مدينة عسقلان في ظلّ الصّراع الإسلاميّ الصليبيّ والدمار الذي لحق بها كان له الأثر البالغ في حياة المدينة من الناحية الاجتماعيّة؛ إذ أثّر في تركيبتها السكانيّة ومبناها الاجتماعيّ.

أهل الذمّة: اليهود والنصارى في مدينة عسقلان

عرفت مدينة عسقلان، كباقي المدن الفلسطينيّة وبلاد الشام، تنوعًا في التركيبة السكانيّة منذ ما قبل الفتح العربيّ الإسلاميّ؛ فقد أقام في عسقلان بالإضافة إلى العنصر العربيّ ثلاثة طوائف دينيّة، هم: اليهود، والنصارى، والسامرة، ولم ترد أيّة إشارة في المصادر سواء الإسلاميّة أو

١- خليل عماد الدين، فلسطين في الأدب الجغرافي العربي، ص١٣٥.

٢- انظر: أبو رحمة، زهير، الحياة العلميّة في غزة وعسقلان، ص٦٥. وانظر أيضًا: عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي، ص٣٠٢،٣٠١.

الأجنبيّة، إلى وجود عناصر، مثل: الصابئة أو المجوس على الإطلاق، لا في عسقلان ولا حتى في فلسطين على نحو عام، وحتى على مستوى اليهود فقد كان وجودهم في فلسطين على مرّ التاريخ وجودًا نسبيًّا وقليلاً إلى حدّ ما، أمّا الوجود المسيحيّ في فلسطين فكان هو الأكثر والأكبر؛ حيث عرفت فلسطين تراثًا مميّزًا عن سائر بلاد الشام؛ كونها مهد الديانة المسيحيّة وفيها مجموعة مدن تُعدّ مدنًا مقدّسة يحجّ إليها المسيحيّون من جميع أقطار العالم، مثل: بيت لحم، والناصرة، والقدس.

وفي العودة إلى وجود اليهود، فقد شهد القرن الخامس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ ضمورًا مطّردًا في عدد أفراد الطائفة اليهوديّة التي كانت تقيم في فلسطين إبّان الحكم الفاطميّ وما تلاه من قيام حكم التركمان الناوكيّة من السلاجقة، وكان ذلك بتأثير الاضطرابات الداخليّة التي رافقت هجمات القرامطة، ونشاط أمراء آل جرّاح الطائيين التدميريّ من جهة، وجرّاء ازدياد وتيرة تنافس أمراء الحرب السلاجقة وهجماتهم المتكرّرة من أجل السيطرة على فلسطين من جهة أخرى، وكان أبناء الطائفة اليهوديّة القليلة العدد أصلاً أكثر قطاعات السكان تأثّرًا بهذه الاضطرابات، فاختارت أغلبيّتهم الساحقة مغادرة المدن الفلسطينيّة والنزوح إلى أماكن أكثرَ أمنًا واستقرارًا، مثل: القاهرة أو دمشق أو بغداد[١].

وكانت مدينة عسقلان، من بين المدن الفلسطينيّة التي أقام فيها اليهود في ظلّ الحكم العربيّ الإسلاميّ على الرّغم من موجات النزوح اليهوديّة. وقد جاءت أكثر إشارة وضوحًا في مصادر تلك المرحلة لوجود اليهود في عسقلان في رحلة بنيامين التطيليّ من الأندلس إلى البلاد المقدّسة بين (سنة ١١٦٥م وسنة ١١٧٣م)؛ حيث يقول: "ويقيم فيها نحو مائتيّ يهوديّ من الرابيين

---

[١]- عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي، (١١٨٧-١٥١٦)، ص٢٣٣.

بينهم الرابيون صمح وهرون وسليمان ونحو الأربعين من اليهود القرائين وثلثمائة من الكونيين (السامريّين)[١].

ويبدو ممّا جاء في رحلته أنّ عدد السكان اليهود في عسقلان قد كان قليلاً، وأنّ فيها تركيز للطائفة السامريّة بالنسبة إلى إعداد اليهود وبالنسبة إلى طائفة السامريّة نفسها، فأكثر من نصف سامرة فلسطين يعيشون في عسقلان، وقد بلغوا سبعة أضعاف ونصف اليهود في عسقلان، ومن الجدير بالذكر أنّ الصّراع الإسلاميّ – الصليبيّ على عسقلان قد كان له الأثر البالغ في هجرة اليهود من مدينة عسقلان إلى المدن الأخرى، عندما كانت تقع المدينة تحت سيطرة الصليبيّين، فقد أشار الأديب اليهوديّ الأندلسيّ يهودا الحريزيّ في أثناء زيارته القدس سنة (٦١٥ هـ– ١٢١٨م) إلى وجود ثلاث طوائف يهوديّة في القدس، هي: يهود مغربيّون ويهود فرنسيّون ويهود من عسقلان[٢]، ممّا يعني أنّ جزءًا من يهود عسقلان قد نزحوا إلى مدينة القدس وباتوا يصنفون تحت اسم يهود عسقلان؛ لتميّزهم عن اليهود الآخرين في المدينة.

أمّا بالنسبة إلى المسيحيّين النصارى، فقد تلازم وجودهم في فلسطين معَ ظهور الديانة المسيحيّة في فلسطين قبل الفتح العربيّ بقرون طويلة، ومعَ الفتح العربيّ الإسلاميّ كانت الديانة المسيحيّة هي الديانة الأكثرُ والأوسع انتشارًا؛ إذ كان معظم سكان فلسطين آنذاك من النصارى سواء أعربًا كانوا أم عجمًا.[٣] وقد أُشير سابقًا إلى ما ذكره البلاذريّ؛ إذ قال إنّ عسقلان من المدن التي فيها عدد وافر من النصارى، وأنهم نقضوا عهدهم فأعاد معاوية فتحها ثمّ نقضوا عهدهم في خلافة

---

[١]- التطيلي، بنيامين بين يونة النبارى الأندلسي (ت٥٦١-٥٦٩هـ/١١٦٥-١١٧٣م)، رحلة بنيامين التطيلي ترجمة: عزار حدّاد، تقـديم: عبد الرحمن عبدالله الشيخ، المجمع الثقافي، الإمارات العربيّة، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص٢٦٢.

[٢]- انظر: عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيّوبي والمملوكي، (١١٨٧-١٥١٦)، ص٢٣٦

[٣]- الحميري، الروض في خبر الأقطار، ص٥١٠.

عبدالملك بن مروان فأعيد فتحُها مرّة ثالثة، فقام بترميم حصونها ومسجدها وإنزالها خلقًا من العرب وقطعهم القطائع.[١]

ويلحظ أنّ معظم نصارى عسقلان كانوا من المسيحيّين اليونان، وأنّ معظمهم خاصّة العرب منهم قد تحوّلوا إلى الإسلام في أواخر العصر الأمويّ وبداية العصر العباسيّ[٢]. وقد عاش المسيحيّون بأمان واطمئنان في ظلّ الحكم الإسلاميّ إلى جانب المسلمين.

وحتى معَ الاحتلال الصليبيّ لفلسطين، وعلى الرّغم من أنّ الدين المسيحيّ كقاسم مشترك بين مسيحيي فلسطين والصليبيّي،. إلا أنّ هذا لم يعني انسلاخ المسيحيّين العرب عن هويّتهم العربيّة والحضاريّة، لا بل عومل المسيحيّون العرب كباقي المسلمين من قِبل الصليبيّين، وحول ذلك يقول عثامنة: "إنّ أخوّة المسيحيّين في الدين معَ الفرنجة الصليبيّين لم تشفع لهم في التخلّص من التمييز الرسميّ والقانونيّ الذي مارسته مملكة القدس اللاتينيّة ضدّهم، كما لم تشفع لهم في منع التعسّف الدينيّ والاضطهاد المذهبيّ اللذين مارستهما الكنيسة اللاتينيّة الكنيسة الرسميّة تجاههم.[٣] ويضيف عثامنة على ذلك قائلاً: "ولعلّ هذه السياسة تفسّر ذلك الترحيب الذي قوبلت به حركة التحرير التي قادها صلاح الدين الأيّوبيّ في فلسطين من جهة، وتوضّح بما لا يترك مجالاً للشكّ من جهة أخرى لماذا اختار سكّان البلدات والمدن الفلسطينيّة المحرّرة من المسيحيّين البقاء في مدنهم وبلداتهم ليعيشوا في كنف الدولة الأيّوبيّة.[٤]

---

[١] – البلاذري، فتوح البلاد، ص١٩٤–١٩٥. الواقدي، فتوح، ج١، ص٣٤٠، الطبري، تاريخ، ج٢.

[٢] – انظر: أبو رحمة، الحياة العلميّة في غزّة وعسقلان، ص٧٤.

[٣] – عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين، ص٢٢٢.

[٤] – المرجع نفسه،ص٢٢٢–٢٢٣.

أمّا عن القبائل العربيّة التي نزلت مدينة عسقلان، فقد كانت الركن الأساسيّ من التركيبة السكانيّة لهذه المدينة، فمن هذه القبائل ما نزل المدينة قبل الفتح العربيّ، ومنها ما نزلها وأقام فيها بعد الفتح العربيّ الإسلاميّ، فالقبائل التي نزلت قبل الفتح العربيّ تعود أسباب نزولها إلى الدافع التجاريّ والجغرافيّ؛ حيث كانت عسقلان معبرًا للهجرات البشريّة العربيّة الدائمة من الجزيرة العربيّة إلى بلاد الشام، ومن بلاد الشام إلى مصر وكلّ شمال أفريقيا والأندلس، ومعَ الفتح العربيّ الإسلاميّ أصبحت دوافع نزول القبائل العربيّة في مدينة عسقلان مختلفة ومتغيّرة، فأصبح الدافع الدينيّ الإسلاميّ هو الأساس في الهجرة إلى فلسطين لِما لها من أهميّة دينيّة وقدسيّة عند المسلمين، بالإضافة إلى الدافع الأمنيّ الاستراتيجيّ بحكم موقع مدينة عسقلان كمدينة على البحر، ما دفع الخلفاء المسلمين إلى إنزال بعض المقاتلين والمحاربين العرب فيها للدفاع عنها بوجه التهديدات الدائمة والمستمرّة.

ونزلت عسقلان أيضًا أفضل قبائل العرب نسبًا وهي قبيلة قريش؛ حيث كان عُرفت أسماء قبائل واسعة في عسقلان بمقابر قريش[١]، ويذكر أبو رحمة: "أنّه وُجد في غزّة وعسقلان بعض فروع القبائل الصغيرة التي تنتمي إلى قبائل وأصول عربيّة كبيرة، ولكن المصادر حَسَبَ علميّ لم تشرْ إلى أصول هذه القبائل، ومنها بنو كعب بقرب عسقلان[٢].

---

[١]- ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢٩، ص٤٣.

[٢]- أبو رحمة، زهير، الحياة العلمية، ص١٣٦.

الخاتمة

حاولت الباحثة في هذه الأطروحة تتبّع تاريخ مدينة عسقلان الساحليّة مدّة زمنيّة تمتدّ من القرن الرّابع حتى مطلع القرن السابع للهجرة. وقد بدا جليًّا من خلال هذه الدراسة بفصولها الثلاثــة، أنّ مدينة عسقلان مدينة غاية في الأهميّة بالنسبة إلى الدول والقوى التي سعت إلى السـيطرة عليهـا طوال هذه المدّة الممتدّة التي غطتها الدراسة؛ إذ كانت مدينة عسقلان أشبة ببؤرة توتّر دائمة، لـم تعرف الاستقرار والهدوء قط، باستثناء بعض الفترات الزمنيّة القصيرة التي بقيـت فيهـا سـاحة للتجاذبات والنزاعات، سواء أفي ظلّ الصّراعات الإسلاميّة – الإسلاميّة (المحليّـة)، أم فـي ظـلّ الصّراعات معَ أطراف خارجيّة أهمّها الصليبيّون الذين استطاعوا السيطرة علـى المدينـة عقـودًا طويلة من الزمن.

وقد توصّلت هذه الأطروحة إلى نتائجَ مهمّة، كان أبرزها الآتي:

١- الموقع الجغرافيّ الذي تميّزت به مدينة عسقلان لوقوعها على ساحل المتوسّط؛ فهي نقطة التقاء بحرية مهمّة بين المشرق الإسلاميّ وأوروبا من الناحية الاقتصاديّة لوجود ميناء تاريخيّ فيها يعود إلى الفترة البيزنطيّة، الذي ساعد على نشاط حركة التجارة والنقل فيها، بالإضـافة إلـى مُناخها المعتدل نسبيًّا لأنّها تقع ضمن إقليم مُناخ البحر المتوسط المعتدل.

٢- أنّ مدينة عسقلان كونها مدينة ساحليّة بحريّة تُعدّ مدينة ثغور حدوديّة؛ إذ هـي واقعـة علـى أطراف الدولة الإسلاميّة، ممّا جعلها عرضة للهجمات الخارجيّة البيزنطيّة ومن ثمّ الصـليبيّة لبعدها عن العاصمة، وتحديدًا عاصمة الخلافة في بغداد. وهذا هو السبب نفسه الـذي سـاعد على ظهور قوًى محليّة متنافسة ومتنازعة سعت إلى السيطرة على المدينة.

٣- بحكم بُعد المدينة خاصةَ وفلسطين على نحو عام عن مقرّ الخلافة العباسيّة وأعين السلطة، فقد كانت غيرَ مستقرّة وفي حالة توتّر دائمة.

٤- تُعدّ مدينة عسقلان، بالإضافة إلى مدينة غزّة، حلقة وصل بين بلاد الشام ومصرَ؛ لـذا كانـت محطّ أنظار السلطات الحاكمة في مصرَ. وقد شهدنا سعي الفاطميّين الدائم فـي مصـر إلـى السيطرة عليها لكونها نقطة عبور مهمّة من بلاد الشام وإليها، وبوابة أمنيّة لضمان اسـتقرار مصر.

٥- برزت مدينة عسقلان كحامية أمنيّة وقاعدة عسكريّة بالدرجة الأولى، وتحديدًا في ظلّ الصّراع الإسلاميّ - الصليبيّ الذي امتدّ إلى ما يقارب القرنين من الزمن، ممّا جعلها فـي حالـة مـدّ وجزر طوال هذه المدّة؛ إذ كانت تسقط بيد الصليبيّين تارة، وتارة ثانية يسـتردّها المسـلمون، فكان دمارها من أهمّ نتائج الصّراع الإسلاميّ الصليبيّ.

لقد عرفت مدينة عسقلان إرثًا حضاريًّا وتاريخيًّا على مدار قرون طويلة منـذ مـا قبـل الميلاد، وحظيت باهتمام العرب المسلمين، فكان فتحها في سنة (٢٣ هـ/ ٦٤٤م) تأشـيرة عبـور للعرب تجاه مصرَ وشمال أفريقيا. وقد تبيّن أنّ لعسقلان حظوةً في قلوب العرب المسـلمين مـن جوانب جغرافيّة وسياسيّة واقتصاديّة عدّة، وكذلك من الناحية الدينيّـة؛ إذ وردت فيهـا الأحاديـث النبويّة وسكنها مجموعة من العلماء والفقهاء المسلمون، وعُدّت في ظلّ الحكم الأمويّ لبلاد الشـام مدينة أمويّة موالية لقصر الخلافة في دمشق، فعرفت الأمن والاستقرار في جميع نواحي الحياة في هذه المدّة.

ومعَ زوال حكم بني أميّة وظهور دولة بني العباس شهدت مدينة عسقلان فاتحة عهد جديد، خصوصًا بعد انتقال عاصمة الخلافة الإسلاميّة من دمشقَ إلى بغدادَ؛ حيث أصبحت مـلاذًا للقـوى

الخارجيّة والمتمرّدة على الدولة، وهذا ما عزّز من مكانتها عند القوى المتمرّدة والمتنازعة، وإهمالها من قبل عاصمة الخلافة في بغداد. وتعزّز في الوقت نفسه دور مدينة عسقلان أكثر معَ ظهور دولة منافسة ومعادية للخلافة العباسيّة في بغدادَ، وهي الدولة الفاطميّة، فبلاد الشام كانت ساحة الصّراع، وعسقلان في عمق التجاذب والتنافس بين كلا الطرفين؛ لكونها نقطة عبور من بلاد الشام إلى مصرَ؛ فقد كان ميناؤها القاعدة العسكريّة الأولى بالنسبة إلى الفاطميين لمدّ نفوذهم على بلاد الشام.

ومعَ انطلاق الحملات الصليبيّة على المشرق الإسلاميّ سنة (٤٨٨هـ/ ١٩٠٥م)، انتقلت مدينة عسقلان إلى مرحلة أكثرَ أهميّة وحساسيّة، ولا تقلّ توترًا واضطرابًا عن تلك المراحل التي سبقتها لا بل أكثر، وكانت تحت سيطرة الفاطميّين حينئذ، فاستطاعت عسقلان أن تصمد بعد سقوط بيت المقدس سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م)، وبقيت عصيّة على الصليبيّين إلى مدّة تزيد على النصف قرن، على الرّغم من حصارهم لها أكثر من مرّة. وقد أدّت عسقلانُ في هذه المدّة بعد سقوط بيت المقدس دور الحامية العسكريّة التي تنطلق منها الحملات العسكريّة الإسلاميّة ضدّ الصليبيّين، إلى أن حاصرها الصليبيّون ثمّ سقطت بأيديهم سنة (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م).

وقد تبيّن أنّ المسلمين لم يتوانوا عن التطلّع إلى تحرير مدينة عسقلان واستردادها، بعد أن أضحت قاعدة عسكريّة للصليبيّين. وقد جسّد ذلك الأيّوبيّون الذين ظهروا على الساحة السياسيّة في بلاد الشام في أصعب ظروف كان يعيشها المسلمون من تشتّت وصراعات محليّة وداخليّة؛ فاستطاع القائد الأيّوبيّ صلاح الدين تحرير المدينة سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، غيرَ أنّ الصليبيّين لم يسلّموا بذلك، فأعادوا احتلالها بعد خمس سنوات (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)، وبقيت هكذا بين استرداد وسقوط

حتى استردّها المسلمون على نحو نهائيّ سنة (٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م). وهذا ما يفسّر أهميّة عسقلان عند كلا الطرفين نظرًا إلى موقعها الجغرافيّ الساحليّ الحدوديّ، وهذا ما لم تعرفه أيّ مدينة طوال مدّة الصّراع الدائر آنذاك، وقد تجلّى ذلك أكثر خلال مفاوضات صلح الرّملة سنة (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)؛ إذ حاول كلّ طرف إخراج مدينة عسقلان من دائرة التفاوض وعدم المساومة عليها أو التفريط فيها.

وكان المصاب الأكبر الذي ألمّ بمدينة عسقلان في هذا الصّراع، هو عمليّة تدمير المسلمين لها وإحراقها على نحو متعمّد على يد صلاح الدين في (التاسع عشر من شعبان ٥٨٧هـ، الثالث عشر من سبتمبر ١١٩١م)، على الرّغم من أهميّتها لدى المسلمين وقدسيّتها عند صلاح الدين على نحو خاصّ؛ إذ إنّ الدور الذي أدّته المدينة خلال الصّراع الإسلاميّ الصليبيّ، وحساسيّة موقعها دفع بصلاح الدين إلى إصدار أمر بحرقها عندما عرف أن سيطرة الصليبيّين عليها باتت أمرًا وشيكًا. وهذا ما يجعلنا نستنتج أنّ أهميّة عسقلان وحظوتها عند كلا الطرفين قد أدّت إلى دمارها وخرابها إلى حدّ التفكير في أنّ دمارها أفضل من سيطرة الآخر عليها، ناهيك عن أنّ هذا الدمار في ظلّ الصّراع الإسلاميّ الصليبيّ قد قضى على معالم الحياة في تلك المدينة، سواء الحياة الاجتماعيّة فيها؛ إذ هجرها سكانها بعد أن أصبحت قاعدة عسكريّة مدمّرة، أو الحياة الاقتصاديّة التجاريّة التي لم تعد كما كانت عليه سابقً، بالإضافة إلى الحياة العلميّة الثقافيّة التي شهدت تراجعًا واضحًا بعد كلّ هذه الأحداث والأضرار التي لحقت بالمدينة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: المصادر

١. ابن الأثير، عزّ الدين أبي الحسين عليّ بن أبي الكرم محمّد الجزري، (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، **الكامل في التاريخ**، الطبعة الأولى، ١٢ جزءًا، د.ت، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ، ١٩٦٦م.

٢. الإدريسي، أبو عبدالله محمّد بن عبدالله إدريس الحموديّ الحسينيّ (ت ٥٦٠هـ/١١٦٦م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، الطبعة الأولى، جزأين، د.ت، مكتبة الثقافة الدينية بور سعيد، د.ط.

٣. الأزديّ، محمّد بن عبدالله (ت ٢٣١هـ/٨٤٥م)، **فتوح الشام**، الطبعة الأولى، تحقيق عبدالمنعم عامر، مؤسّسة سجل العرب، القاهرة، ، ١٩٧٠م

٤. الأصفهانيّ، عماد الدين محمّد بن محمّد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١مـ)، **الفتح القُسّي في الفتح القُدْسي**، الطبعة الأولى، تحقيق: محمّد محمود صبيح، مطبعة الموسوعات، القاهرة، ١٩٦١م.

٥. الإصطخريّ، أبو إسحق إبراهيم بن محمّد الفارسي المعروف بالكرخيّ (ت النصف الأول من القرن الرابع الهجريّ)، **مسالك الممالك**، الطبعة الأولى، مطبعة ليدن، برلين، ، ١٩٣٧م.

٦. البكريّ، أبو عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسيّ (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) ، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، الطبعة الأولى، ١٢ جزءًا، تحقيق: مصطفى السّقا، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٢م.

٧. البلاذريّ، ابن العباس أحمد بن يحيى بن صابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢مـ)، **فتوح البلدان**. الطبعة الأولى، تحقيق: عبدالله أنيس الطبّاع. دار النشر للجامعيين، القاهرة، ١٩٥٧م.

٨.---، **أنساب الأشراف**، الطبعة الأولى، تحقيق: سهيل زكّار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

٩. ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، **كتاب رحلة ابن بطوطة المسمّاة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، الطبعة الرابعة، جزأين، تحقيق: عليّ المنتصر الكتانيّ، مؤسسة الرّسالة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥م.

١٠. ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمّد عبدالله بن أحمد الأندلسيّ المالقيّ العشاب، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، ط١، دون تحقيق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م.

١١. التطيليّ، بنيامين بين يونة النبارى الأندلسيّ (ت ٠٥٦١هـ/١١٦٦م)، **رحلة بنيامين التطيليّ**، الطبعة الأولى، ترجمة: عزّار حدّاد، تقديم: عبدالرّحمن عبدالله الشيخ، المَجمع الثقافيّ، الإمارات العربيّة، أبو ظبي، ٢٠٠٢م.

١٢. ابن تغري برديّ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكيّ، (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، د.ط ، ١٢ جزءًا،د.ت: طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب- وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة.

١٣. الحمويّ، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الروميّ البغداديّ، (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، **معجم البلدان**،الطبعة الأولى، ٨ أجزاء، تحقيق: محمّد عبدالرّحمن المرعشليّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ٢٠٠٨م.

١٤. الحميريّ، محمّد بن عبدالمنعم الصنهاجيّ (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، **الرّوض المِعطار في خبر الأقطار**، الطبعة الثانية، تحقيق: إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.

١٥. ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبيّ الموصليّ (ت٣٥٦/٩٦٦م)، **صورة الأرض**، الطبعة الأولى، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م.

١٦. ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت٣٠٠هـ/٩١٣م)، **المسالك والممالك**، الطبعة الأولى، دون تحقيق، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة، ١٩٩٢م.

١٧. خسرو، ناصر (ت ٤٨٠هـ/١٠٨٧م)، **سفرنامة**،د.ط، ج١، تحقيق وترجمة: يحيى الخشّاب، تصدير عبد الوهاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

١٨. ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبدالرّحمن بن محمّد الإشبيليّ التونسيّ القاهريّ المالكيّ، (ت٧٣٢هـ/ ٨٠٨هـ)، **العِبر في ديوان المبتدأ والخَبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، المعروف بـ تاريخ ابن خلدون، د.ط، تحقيق: أبو صهيب الكرميّ، بيت الأفكار الدوليّة، عمّان، الأردنّ، د. ت.

١٩. ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكيّ الأربيليّ الشافعيّ (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، **وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، د.ط، ٨ أجزاء، تحقيق: احسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

٢٠. الذهبيّ، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن عثمان قايماز (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام**، ط١، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمريّ. دار الكتاب العربيّ،١٩٩٣

٢١. ---، **سير أعلام النبلاء**، ط٩، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٩٩٩م.

٢٢. ---، **العِبر في خبر من غَبر**، الطبعة الأولى، ٥ أجزاء، تحقيق: بشّار عوّاد معروف وآخرون، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٣. ---، **كتاب دول الإسلام**، ط٢، دون تحقيق، جمعية دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد، ١٣٦٥هـ.

٢٤. ابن رستة، ابن عليّ أحمد بن عمر (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م)، **الأعلاق النفيسة**، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٩٨٨م.

٢٥. الزبيديّ، السيّد محمّد مرتضي الحسنين (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩١م)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، الطبعة الأولى، تح: عبدالستار أحمد فرّاج، القاهرة، ١٩٦٥م.

٢٦. سبط ابن الجوزيّ، يوسف بن قزوغلي بن عبد الله (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ط١، د. ت، مطبعة مجلّة دائرة المعارف العثمانيّة، الهند، حيدر آباد، ١٩٢١م.

٢٧. ابن سعد، محمّد بن سعد بن منيع الزهريّ (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، **الطبقـات الكبـرى**، ط٨،١ أجزاء،٤ مجلّدات، تحقيق رياض عبدالهادي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٩٩٦م.

٢٨. السمعاني، ابن سعيد عبد الكريم بن محمد بـن منصـور التميمـي، ت(٥٦٢هـ/١١٦٦م)، **الانساب**، ط٥،١ اجزاء، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.

٢٩. السيوطيّ، أبو الفضل جلال الدين عبدالرّحمن بن أبي بكر الكمال (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، **لبّ الألباب في تحرير الأنسـاب**، د.ط، تحقيق: محمّد أحمد عبدالعزيز وأشرف أحمد عبـدالعزيز، دار الكتب العلميّة، بيروت، د. ت.

٣٠. أبو شامة، شهاب الدين عبدالرّحمن بـن إسـماعيل بـن إبـراهيم المقدسـيّ الدمشـقيّ (ت ٦٦٥هـ/١٢٥٧م)، **الروضتين في إخبار الدولتين**، الطبعة الأولى، ٥ أجزاء، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٩٩٧م.

٣١. ابن شدّاد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، **النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة (سيرة صلاح الدين)**، ط١، تحقيق: جمـال الـدين الشـيال، القـاهرة، ١٩٦٤م.

٣٢. الطبريّ، أبو جعفر محمّد بن جرير بن يزيد (ت ٢٢٤- ٣١٠هـ/ ٨٣٨- ٩٢٢م)، تـاريخ **الأمم والملوك**، ط٤، ٦ أجزاء، دون تحقيق، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

٣٣. ابن ظافر الأزديّ، جمال الدين أبو الحسن عليّ بن أبي منصور (ت ٦١٣هـ/١٢١٥م)، **أخبار الدول المنقطعة (القسم الخاصّ بالفاطميّين)**، ط١، تحقيق: أندريه مزية، المعـرِض العلمـيّ الفرنسيّ للآثار المشرقيّة بالقاهرة، ١٩٧٢م.

٣٤. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبه الله بن عبدالله الشافعيّ (ت ٥٧١ هـ/١١٧٥م)، **الأربعين البلدانية**، الطبعة الأولى، ٥ أجزاء، تحقيق: مركـز جمعـة المسـاجد، دار الفكـر، بيروت، ١٩٩٢م

٣٥. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة العقيليّ (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٢م)، **بغيـة الطلب في تاريخ حلب**، ط١، (١٢ جزءًا)، تحقيق: سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م.

٣٦. ابن عذاري، المراكشيّ، **البيان المغربيّ في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ج. س. كولان وليفي بروفنال، دار الثقافة، بيروت، د. ت.

٣٧. العليميّ، محيي الدين الحنبليّ (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م)، **الأنس الخليل بتاريخ القدس والخليل**، الطبعة الأولى، تحقيق: عدنان يونس أبو تيان، مكتبة دنديس، عمّان، ١٩٩٩م.

٣٨. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل، بن عليّ محمود بن عمر شاهنشاة بن أيّوب (ت ٧٣٢هـ-١٣٣١م)، **تاريخ أبي الفداء المسمّى المختصر في تاريخ البشر**، ط١، د.ت، دار صادر، بيروت، د.ت.

٣٩. ---، **تقويم البلدان**، ط٢، دار صادر، بيروت، د. ت.

٤٠. ابن الفقيه، أبو عبدالله محمّد بن إسحق الهمذانيّ (ت٣٤٠هـ/٩٥١م)، **البلدان**، ط١، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦م.

٤١. ابن القاضي، أبو بكر بن أحمد بن محمّد بن عمر (ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م)، **الدر الثمين في سيرة نور الدين محمود**، مخطوط، دون تحقيق.

٤٢. ابن قتيبة، أبو محمّد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، **المعارف**، الطبعة الأولى، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

٤٣. القرماني، أحمد بن يوسف، **أخبار الدول وآثار الأُول في التاريخ**، (ت١٠١٩-١٦١٠م)، ط١، تحقيق: أحمد حطيط، وفهمي سعيد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٢م.

٤٤. القزوينيّ، أبو عبدالله زكريّا بن محمّد بن محمود (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، ط١، دون ناشر، بيروت، د. ت.

٤٥. ابن القلانسيّ، أبو يعلى حمزة بن أسد بن عليّ بن محمّد التميميّ (ت ٥٥٥هـ/١١٦٩م)،**تاريخ ابن القلانسي المعروف بذيل تاريخ**، ط١، د.ت، طبع في بيروت مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨م.

٤٦. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقيّ (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، **البداية والنهاية**، ط١، (١٤ جزءًا)، تحقيق: سهيل زكّار، دار الشروق، عمّان، الأردنّ، ٢٠٠٧م.

٤٧. المسعوديّ، أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمّد محي الدين عبدالحميد، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٦٦م.

٤٨. المقدسيّ، محمّد بن أحمد بن أبي بكر البنّاء (ت ٣٩٠هـ/٩٩٩م)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط٢، د. ت، مطبعة بريل ليدن، مدينة ليدن، ١٩٦٧م.

٤٩. المقريزيّ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عليّ (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المواعظ **والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، د.ط، جزأين، دار صادر، بيروت، د. ت.

٥٠. ---، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميّين الخلفا**، الطبعة الأولى، تحقيق: د. محمّد حلمي محمّد أحمد – المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة- لجنة إحياء التراث الإسلاميّ، القاهرة، ١٩٧٣م.

٥١. ---، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، الطبعة الأولى، تحقيق: محمّد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٧م.

٥٢. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمّد مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، **لسان العرب**، العرب، د.ط، تحقيق: يوسف خياط، دار بيروت، د.ت.

٥٣. ابن ميسر، تاج الدين محمّد بن علي بن يوسف بن حلب بن راغب (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)، **المنتقى من أخبار مصر**، الطبعة الأولى، تحقيق: أيمن فؤاد رشيد، المعرِض العلميّ الفرنسيّ للآثار المشرقيّة بالقاهرة، القاهرة، د. ت.

٥٤. النويريّ، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهّاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، د.ط، المؤسّسة المصريّة العامّة، القاهرة، د. ت.

٥٥. الهرويّ، أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت ٦١١هـ/١٢١٤م)، **كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات**، ط١، تحقيق: جانين سورويل طوميم، دمشق، ١٩٥٣م.

٥٦. ابن واصل، جمال الدين محمّد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، **مُفرج الكروب في أخبار بني أيّوب**، (٦ أجزاء)، ط١، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور وحسين محمّد ربيع، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٧م.

٥٧. الواقدي، أبو عبدالله محمّد بن عمر بن واقد السهميّ الأسلميّ المدنيّ (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، **الفتوح**، الطبعة الثالثة، جزأين، د. ت، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩م.

٥٨. ابن الورديّ، الشيخ زين الدين عمر بن الورديّ (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، **تتمّة المختصر في أخبار تاريخ ابن الورديّ**، ط١، تحقيق: أحمد رفعت البدراويّ، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠م.

٥٩. اليافعي، عفيف الدين أبو السعادات عبد الله بن أسعد، (ت٧٦٨هـ- ١٢٥٧م)، **مرآة الجنان وغبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ط١، تحقيق: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٥م.

٦٠. اليعقوبيّ، أحمد بن إسحق بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢هـ/٩٠٥م) ، **تاريخ اليعقوبيّ**، ط١، جزأين، تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٩م.

ثانيًا: المراجع العربيّة

١. ابن باز، عبدالعزيز بن عبدالله،٢٠٠٢م. **مسؤوليّة طالب العلم**، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الإمام أحمد للنشر والتوزيع.

٢. باشميل، محمّد أحمد،١٩٨٠م. **حروب الإسلام في الشام**، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفكر.

٣. الجنديّ، جمعة محمّد مصطفى،٢٠٠٦م. **الاستيطان الصليبيّ في فلسطين (٤٩٢-٦٩٠هـ/ ١٠٩٩- ١٢٩١م)**، ط١، مصر: مكتبة الأنجلو المصريّة.

٤. حسين، عبدالرّحيم أحمد، د. ت.**قصّة مدينة المجدل وعسقلان**، المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، د.ط، بيروت: دائرة الثقافة – منظمة التحرير الفلسطينيّة.

٥. الحناويّ، مصطفى محمّد،١٩٨٠م. **جماعة الفرسان الاستباريّة ودورها في عصر الحروب الصليبيّة (٤٩٣هـ)**، د.ط، مصر: جامعة الإسكندريّة.

٦. خليل عماد الدين، **فلسطين في الأدب الجغرافيّ العربيّ**.

٧. الدبّاغ، مصطفى مراد،١٩٨٦م، **بلادنا فلسطين**، الطبعة الرابعة، ج١١، بيروتا: دار الطليعة.

٨. شراب، محمّد محمّد حسن،٢٠٠٦م، **اللدّ والرّملة تؤمان لفلسطين خالدان**، الطبعة الأولى، سلسلة المدائن الفلسطينيّة، عمان: دار المكتبة الأهليّة للنشر والتوزيع.

٩. الشواف، قاسم،٢٠٠٦م، **فلسطين: التاريخ القديم الحقيقيّ منذ ما قبل التاريخ حتى الخلافة العباسيّة**، بيروت: دار الساقي.

١٠. صالحة، محمود،١٩٨٠م، **المجدل تاريخ وحضارة**، ط١، بيروت: منشورات المركز القومي للدراسات والتوثيق.

١١. العارف، عارف، ١٩٤٣م **الموجز في تاريخ عسقلان**، ط١، القدس: مطبعة بيت المقدس.

١٢. عاشور، سعيد عبدالفتاح،١٩٧٨م. ال**حركة الصليبيّة صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربيّ في العصور الوسطى**، ط١، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة.

١٣. --- ١٩٧٣م،**تاريخ اوروبا في العصور الوسطي**، ط١، بيروت: دار النهضة العربية.

١٤. عثامنة، خليل،٢٠٠٦م، **فلسطين في العهدين الأيّوبيّ والمملوكيّ (١١٨٧- ١٥١٦م)**، ط١، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينيّة.

١٥. عراف، شكري عارف،١٩٩٣م. **طبقات الأنبياء والأولياء الصالحين في الأرض المقدّسة**، الطبعة الأولى، فلسطين: مطبعة إخوان فحوك.

١٦. عطية، عليّ مسعود،١٩٩٦م. **تاريخ الحروب الصليبيّة**، الطبعة الأولى، القدس: منشورات جامعة القدس المفتوحة.

١٧. عنابسيّ، غالب إبراهيم،٢٠٠٧م، **من أدب فضائل الشام- نصوص مختارة من مخطوطات مملوكيّة وعثمانيّة**، ط١، عمان: دار الهدى ودار الفكر.

١٨. العرينيّ، باز،١٩٦٣م. **الشرق الأوسط والحروب الصليبيّة**، ط١، مصر: دار النهضة المصريّة.

١٩. عيتانيّ، حسام،٢٠١١م. **الفتوحات العربيّة في روايات المغلوبين**، ط١، بيروت: دار الساقي.

٢٠. المبيض، سليم عرفات،١٩٨٩م. **النقود العربيّة الفلسطينيّة من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام ١٩٤٦م**، ط١، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.

٢١. مرسي، محمّد الشيخ،١٩٨٠م. **الإمارات العربيّة في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين**، الطبعة الأولى، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.

٢٢. فوزي، فاروق عمر، حسين، محسن محمّد،١٩٩٩م، **الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلاميّ الوسيط**، الطبعة الأولى، عمان: دار الشروق.

٢٣. ---١٩٩٩م، **نشأة الحركات الدينية السياسية في الاسلام**، ط١، عمان: دار الاهلية.

٢٤. الناصر، محمّد حامد،١٩٩٨م. **الجهاد والتغريب في القرن السادس الهجريّ**، عهد نور الدين وصلاح الدين، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة الكروش للنشر والتوزيع.

٢٥. يوسف، جوزيف نسيم،١٩٨٣م. **العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبيّة الأولى**، الطبعة الثانية، مصر: مؤسّسة شباب الجامعة.

المخطوطات:

١. مجهول، **فضائل الشام وفضائل مدنها وبيت المقدس وعسقلان وغزة والرملة واريحا ونابلس وبيسان ودمشق وحمص وذكر الانبياء فيها وذكر الصحابة المعروفين فيها**، مكتبة الجامعة الاردنية، ١٣٣٩م.

٢. مجهول، **الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية، دار الكتب الظاهرية الاهلية، دمشق، ويوجد صورة منها في مركز والمخطوطات**، الجامعة الاردنية، ميكرو فيلم، بحث رقم ٤٩٢٠.

ثالثًا: المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة إلى العربيّة

١. البيرشاندور، صلاح الدين الأيّوبيّ،١٩٩٣م. **البطل الأنقى في الإسلام**، الطبعة الثانية ترجمة: سعيد أبو الحسن، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ، بيروت.

٢. التطيلي، بنيامين بن يونة التطيلي، د.ت، **رحلة بنيامين (٥٦١- ٥٦٩هـ/ ١١٦٥-١١٧٣م)**، الطبعة الأولى، ترجمه عن العبرية: عزرا حدّاد، المطبعة الشرقيّة، بغداد.

٣. جونز، أ،هـ،م،١٩٨٧م **بحوث في تاريخ بلاد الشام – مدن بلاد الشام**، الطبعة الأولى، جزأين، ترجمة: إحسان عبّاس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ، عمّان – الأردنّ.

٤. جيمس، رستون،٢٠٠٢م، **مقاتلون في سبيل الله صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبيى الثالثة**،ط١، نقله :الى العربية رضوان السيد، العبيكان، السعودية.

٥. حتي، فيليب، ت١٩٥٩م، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، الطبعة الأولى، جزأين، ترجمة: كمال اليازجيّ، دار الثقافة، بيروت.

٦. الراهب، دانيال،٢٠٠٣م. **وصف الارض المقدسة في فلسطين، (١١٠٦-١١٠٧م)**، ط١، ترجمة سعيد البيشاوي، وداوود اسماعيل ابو هدية، دار الشروق، عمان.

٧. رنسيمان، ستيف، ١٩٨٧م.**تاريخ الحروب الصليبيّة**، الطبعة الأولى، جزأين، ترجمة: السيد الباز العرينيّ، جامعة القاهرة، القاهرة.

٨. ريموندداجيل،٢٠٠٢م. **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**، الطبعة الأولى، ترجمة: حسين محمّد عطية وجوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريّة.

٩. سيمنيوفا.د.أ،٢٠٠١م. **تاريخ مصر الفاطميّة**، الطبعة الأولى، ترجمة: حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومي للترجمة، القاهرة.

١٠. الصوري، وليم، ١٩٩٩م، **تاريخ الحروب الصليبيّة – الأعمال المنجزة في ما وراء البحار**، جزأين، الطبعة الأولى ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، ، بيروت.

١١. ---، الحروب الصليبية، ط١، دار الفكر، بيروت.

١٢. الشارتريّ، فوشيه،١٩٩٠م. **تاريخ الحملة إلى القدس**، الطبعة الأولى، ترجمة: زياد العسليّ، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، الأردنّ.

١٣. الفيتري، يعقوب،١٩٩٨م **تاريخ بيت المقدس**،الطبعة الاولى، ترجمة سعيد البيشاوي، دار الشروق،القاهرة.

١٤. كلاري، روبرت،١٩٦٤م. **فتح القسطنطينية**، الطبعة الأولى، ترجمة: حسن حبشيّ، دار الكتاب العربيّ، القاهرة.

١٥. ماير، هانس ماير،١٩٩٠م. **تاريخ الحروب الصليبيّة**،ط١ ترجمة: عماد الدين غانم، المعهد العالي للعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة – منشورات مجمع الفاتح للجامعات طرابلس _ ليبيا.

١٦. مجهول، **مختصر البلدان في ارض كنعان**، د.ط، ترجمة جودت السعيد، مكتبة برهومة، عمان، الاردن.

المراجع العبرية

١. برافور، ماتي،١٩٥٨م. **أشكلون هعير– روزنوت أشكلون– بتكوفاه هتسلفنيت**،ط١، هحفراة لحكيرات آرنست يسرائيل فعتيكوت. أورشليم .

٢. جونيفيل، يوسي،٢٠٠١م. **اشكلون هنيولونيت**، مجموعة باحثين، ط١ دار يتسحاك بن تسفي، يروشلايم.

٣. ساري، يارون٢٠٠٢م، **اشكلون كلات هدروم(عسقلان، قلعة الجنوب) دراسة لمدينة عسقلان منذ ايام البنائين حتى نهاية القرن العشرين**، مجموعة باحثين،ط١، الكلية الاكاديمية، اشكلون(عسقلان).

٤. شكيف، نحوم٢٠٠٢م.، **اشكلون كلات هدروم**، ،ط١،المؤسسة الاكاديمية اشكلون، عسقلان.

٥. شوشن، آفي،٢٠٠١م **اشكلون عير لاحوف ياميم**،ط١، ٣اجـــزاء، دار يســـتحاق بـــن تســـفي، يروشلايم.

٦. فوكس، جدعون، ٢٠٠٣م،**اشكلون بتكوفاه هاهيلنستي فهارومانيت**،ط٣، دار يستحاق بن تسفي، يروشلايم.

الرّسائل الجامعيّة

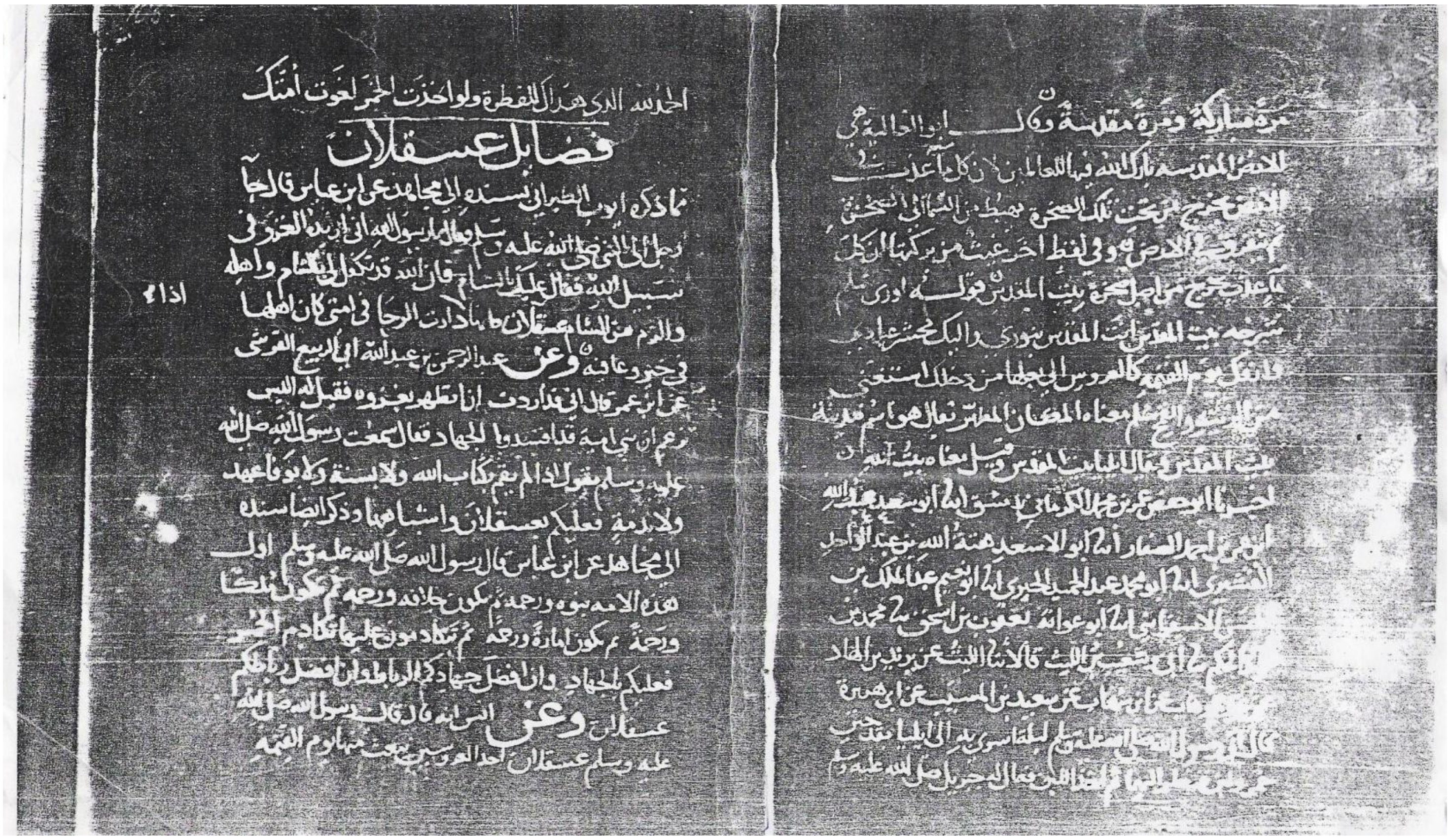
١. أبو رحمة، زهير عبدالله سعيد،٢٠٠٩م، **الحياة العلميّة في غزّة وعسقلان- منذ بداية العصر العباسيّ حتى الغزو الصليبيّ (١٣٢-٤٩١ هـ/٧٥٠-١٠٩٧م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلاميّة، غزّة، فلسطين.

٢. العسقلانيّ، مصطفى عبدالعزيز،١٩٩٢م، **عسقلان ودورها في الصّراع الصليبيّ الإسلاميّ**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإسكندريّة، الاسكندرية، مصر.

٣. نبهان، عادل محمّد عبدالهادي،٢٠٠٠م، **عسقلان منذ منتصف القرن الرابع الهجريّ وحتى النصف الثاني من القرن السابع الهجريّ - دراسة تاريخيّة وحضاريّة**، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، مكّة، السعودية.

الملاحق

الملحق ١: مخطوط (د.ن) فضائل الشام وفضائل مدنها، ١٣٣٩م.


الحمد لله الذي هداك للفطرة ولو اخذت الخمر لغوت امتك

فضايل عسقلان

ثم ذكره ابو ... الطبراني بسنده الى مجاهد عن ابن عباس قال جا
رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله اني اريد الغزو في
سبيل الله فقال عليك بالشام فان الله قد تكفل لي بالشام واهله
والزم من الشام عسقلان ... دارت الرحا في امتي كان اهلها
في خير وعافية وعن عبد الرحمن بن عبد الله ابي الربيع القرشي
عن ابن عمر قال اني قد اردت ان اتطهر بغزوه فقيل له الست
تزعم ان بني امية قد افسدوا الجهاد فقال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول اذا لم يقم بكتاب الله ولا بسنة ولا بوفا عهد
ولا بذمة فعليكم بعسقلان واشباهها وذكر ايضا بسنده

الملحق ٢: نصّ المؤرّخ أبي شامة في صلح الرّملة.

المؤرّخ أبو شامة

يصف الهدنة بين صلاح الدين وملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد،

التي عرفت بصلح الرّملة*

"فسار السّلطان إلى جهة الرّملة، وجاء رسول الإنكلتير معَ الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على إسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرد به وقال له قل لأخي، يعني الملك العادل، يبصر كيف يتوصّل إلى السلطان في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان، وأمضِ، ويبقى هو ها هنا معَ هذه الشرذمة اليسيرة، ويأخذ البلاد منهم، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجيّة، وإنْ لم ينزل السلطان عن عسقلان فتأخذ لي منه عوضًا عن خسارتي على عمارة سورها، فأرسل السلطان إلى العادل إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم، فإنّ العسكر قد ضَجِرَ من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت.

ثمّ إنّ الإنكلتير نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها، وأخرج الرّملة منها ولد ومجدل يابا، ثمّ ذكر قيسارية وأعمالها وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكّا وعملها، وأخرج منها الناصرة وصفوريّة، وأثبت الجميع في ورقة وقال للرسول: هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم، فإن صالحتم على ذلك فمبارك، وقد أعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد وإلا فنعلم أنّ هذا تدفيع ومماطلة.

وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابًا، وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها، واشترط دخول بلاد الإسماعيليّة واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصلح، وشرط أن تكون الرّملة ولد بين المسلمين وبينهم مناصفة، واستقرّت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ورضي الاسبتاريّة والداوية وسائر مقدّمي الإفرنجيّة بذلك، ولم يحلف الإنكلتير بل أخذوا يده وعاهدوه، واعتذر بأنّ الملوك لا يحلفون، وقنع من السلطان بمثل ذلك، ثمّ حلف الجماعة فَحلّف الكندهري ابن أخته المستخلف عنه في الساحل، وباليان بن بارزان ابن صاحبة طبريّة، ووصل ابن الهنفريّ وابن بارزان وجماعة من مقدّميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح واقترحوا حلف جماعة العادل والأفضل والظاهر والمنصور وسيف الدين المشطوب

* أبو شامة. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين. ج٢. ص٢٠٣-٢٠٤.

ودندرم وابن المقدم وصاحب شيزر وكلّ مجاور لبلادهم، وحلف لصاحب أنطاكيّة وطرابلس، وعلّق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين.

قال: ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبدي الطاعة، والموافقـــة وتســـيير العسكر، وحضر رسول الكرج، وذكر فصلاً في معنى الديارات التي لهم في القــدس وعمارتهـــا، وشكّوا من أنّها أخذت من أيديهم، ويسأل ردّها إلى أيدي نوابهم ورسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبوديّة.

قال العماد: وعقدت هدنة عامّة في البرّ والبحر والسهل والوعر، وجعل لهم من يافـــا إلى قيساريّة إلى عكّا إلى صور، وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، ووقعت المصــــالحة مـــدّة ثلاث سنين وثلاثة أشهر أوّلها مبتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان، قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والأسلحة والأقوات ليتقوّوا بها على فتح القدس؛ لتكون لهم ظهرًا وعونًـــا لقربها من البيت المقدس".

الملحق٣: كيف بدأ أهل عسقلان بغزو بيت المقدس، وكيف ردّهم المسيحيّون؟

هجوم حامية عسقلان على مدينة بيت المقدس سنة ١١١٠م/٥٠٤هـ

نقلا عن المؤرخ اللاتيني البرت دأكس في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (١)

النص الأصلي باللغة اللاتينيـــــة

Qualiter Ascalonitæ, Iherusalem debellantes, a Christianis superati sint.

Eodem quoque tempore ejusdem mensis Augusti, quo hæc fiebant, Ascalonitæ, gavisi absentia et diutina expeditione regis Baldewini, æstimantes modicas vires militum Iherusalem remansisse, quingentis equitibus armatis, decreverunt civitatem obsidere et oppugnare[11], et viros qui erant in arce turris David bello lacessere. Verum fideles Christi, cognito decreto et adventu illorum[12], Rames, Assur, Joppen, Cayphas, Cæsaream undique miserunt ad universos regi Baldewino obedientes, ut sine mora die ac nocte Iherusalem [illegible] arcem ab hostili assaltu defensarent. Qui mox ex[14] omni parte [illegible][15], civitatem intraverunt noctis in silentio [illegible] quæ [illegible][16], turresque fideli militum diligentia munientes, [illegible] armis et sagittis conglobati milites trecenti equo et pede per montana [illegible] Ascalonitarum via affutura erat. Et ecce Ascalonitæ [illegible] in equitatu magno et apparatu, obviam facti Christianis in campo magno[17]. Ubi prælio diu commisso armis et sagittis, ad extremum[18] Ascalonitæ terga verterunt. Quos Christiani insequentes, ducentos peremerunt, equos et spolia multa cum captivis multis Iherusalem abducentes in lætitia et victoria inopinata.

---

(1) Albert d'Aix, Op.Cit., IV, P.676.

الترجمة العربية للنـــص

كيف بدأ أهل عسقلان فى غزو بيت المقدس وكيف رد هم المسيحيـــون ؟

فى شهر اغسطس من هذا العام (١) ابتهج اهل عسقلان لغياب المـــلك بلدوين عن بيت المقدس فى حملاته المستمرة ، وقدروا حجم الجنود الموجودين فى بيـــت المقدس بنحو خمسين من الفرسان ، فقرروا محاصرة المدينة ثم مهاجمتها . كما عمدوا الى استفزاز الرجال القائمين على حماية قلعة " برج داود " ليشتبكوا معهم فى قتال ، وعندما علم المسيحيون بهذا ، وتأكدوا من تحرك هؤلاء الرجال نحوهم ، أرسلوا الى المـــدن التابعة للملك بلدوين مثل الرملة ، وأشور (٢) ، يافا ، حيفا ، قيسارية ، فأسرع هـــؤلاء دون ابطاء الى بيت المقدس ، ولم يتوقفوا ليلا أو نهارا ، ودافعوا عن المدينة وقلعتهـــا من الهجوم المعادى ، واحتشدوا فى كل مكان ، بعد أن دخلوا المدينة فى سكون الليل ، وعهدوا الى الرجال والنساء بحراسة بوابة المدينة ، كما عهدوا الى بعض الجنود بتأمـين الأبراج . أما الباقون فاحتشدوا بأسلحتهم ، فبلغوا حوالى ثلاثمائة من الفرسان والمشاه ثم انتشروا عبر الجبال الى الطريق الذى يتوقع وصول حامية عسقلان اليه ، وعندما وصلت حامية عسقلان لملاقاة الصليبيين فوجئت بأعداد كبيرة وقوة غير متوقعة ، مما دفعهم الـــى ترك ميدان المعركة وولوا مدبرين ، فتعقبهم الصليبيون وقتلوا منهم مائتين كما حصلوا على الكثير من الغنائم والأسرى ، وعمت الفرحة المعسكر الصليبى لذلك النصر غير المتوقع .

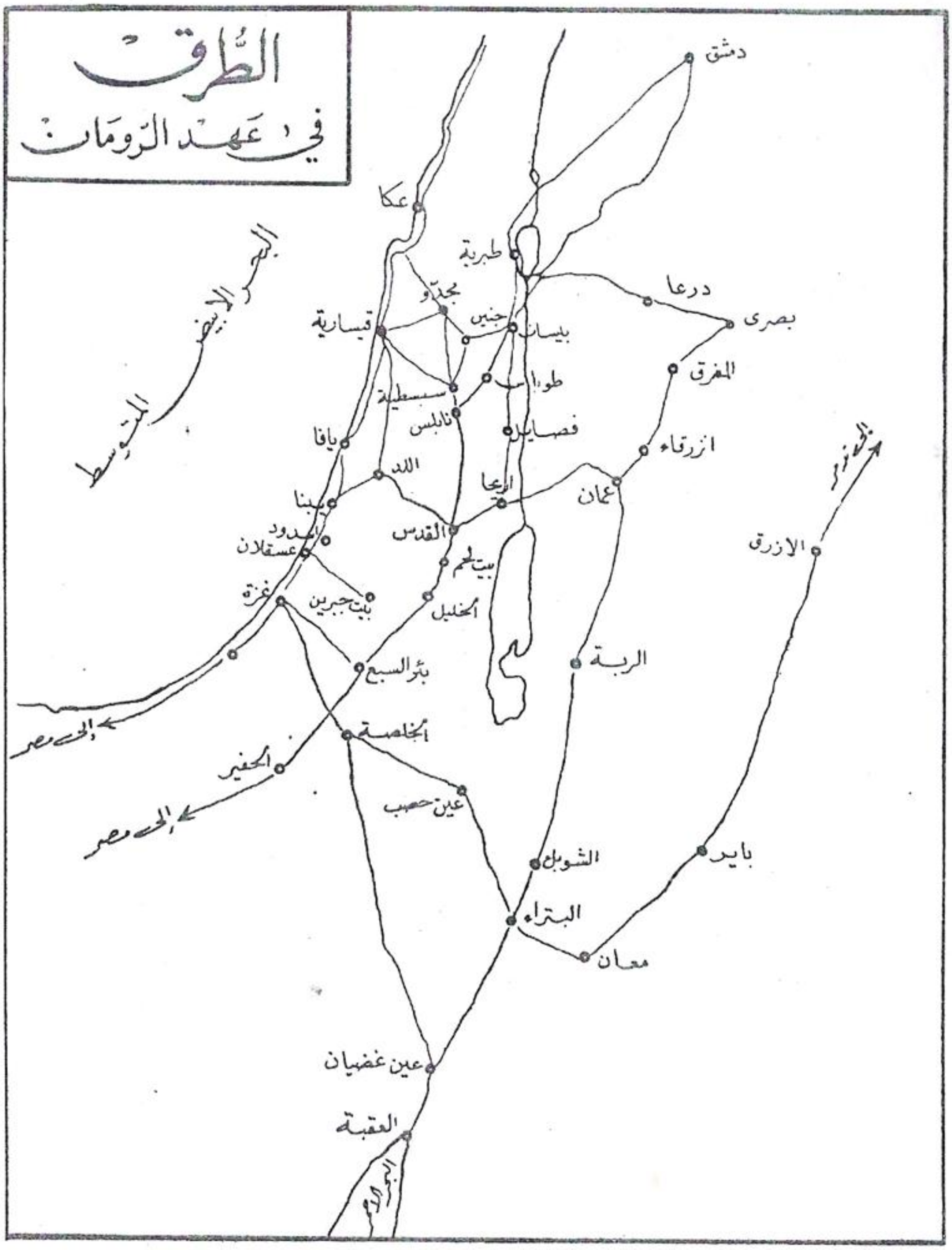
---

(١) اغسطس ١١١٠م ، الموافق المحرم وصفر ٥٠٤ هـ .

(٢) يقصد بها امارة الرها والمناطق التابعة لها .

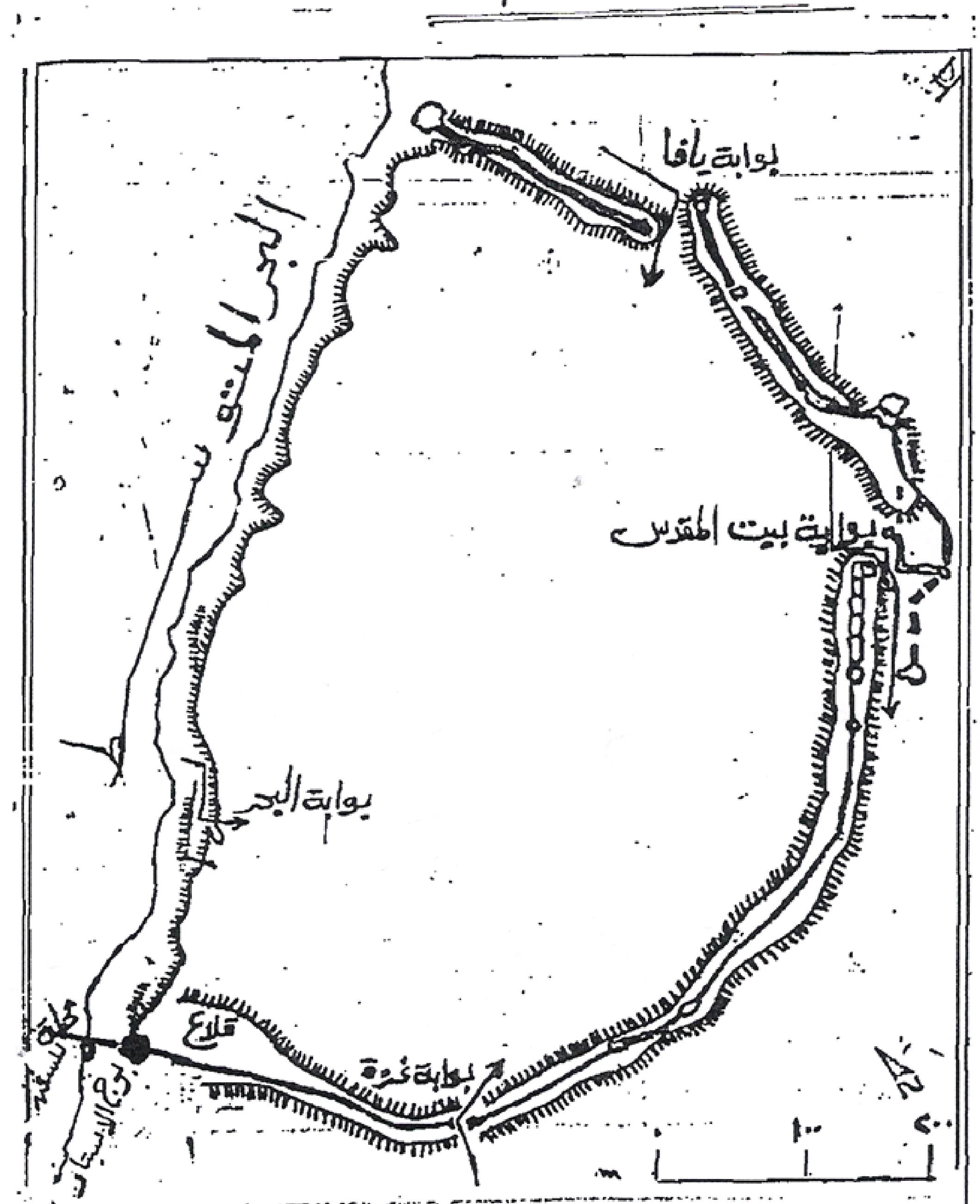
الملحق ٤: خرائط لمدينة عسقلان

الخريطة (١): الطرق في عهد الرّومان



الخريطة (٢): رسم تخطيطيّ لتحصينات المدينة الدفاعيّة

رسم تخطيطي رقم (أ)

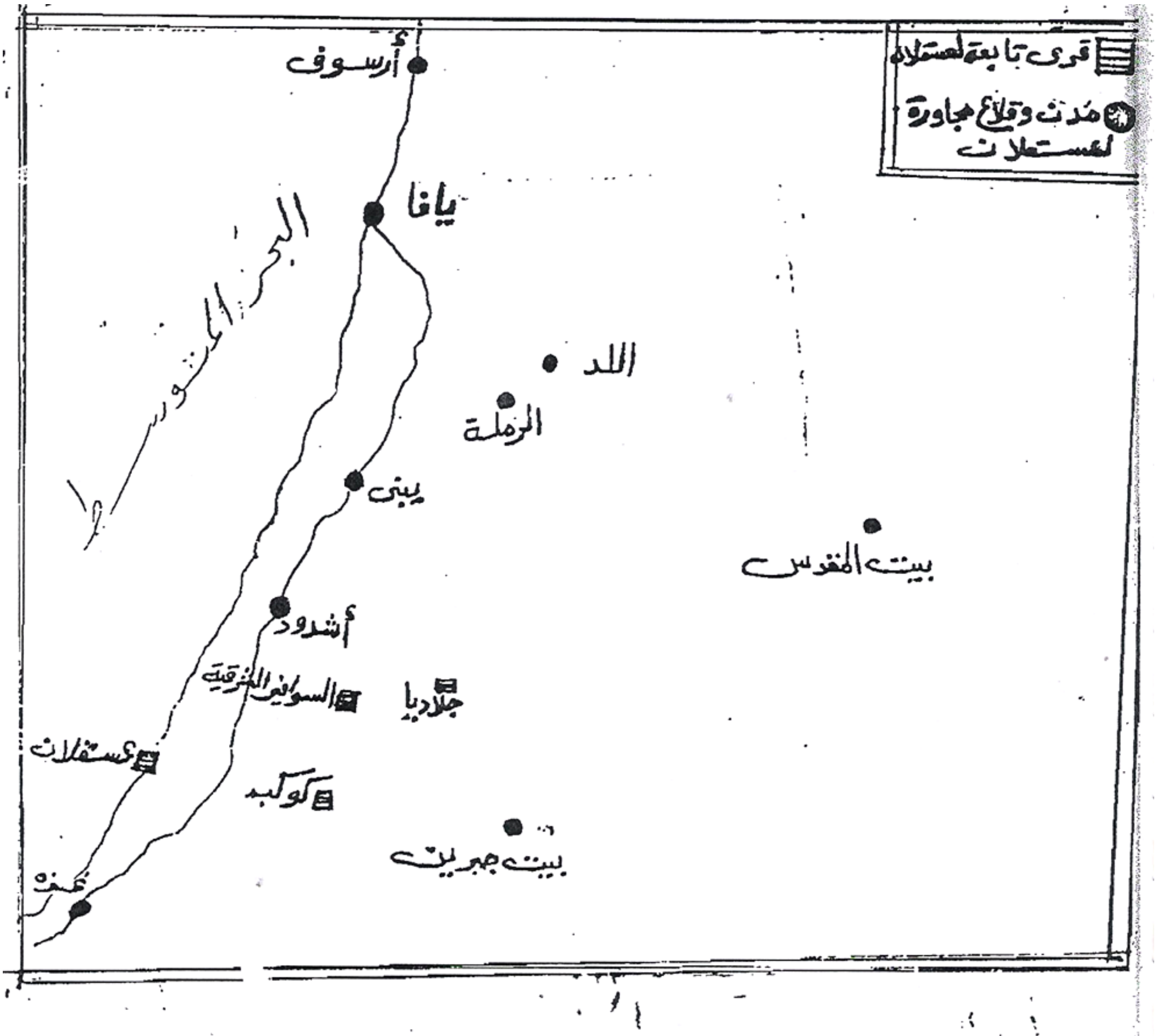


رسم تخطيطي لتحصينات المدينة الدفاعية وبواباتها.

نقلاً من:

Benvenisti: op. cit. p. 129.

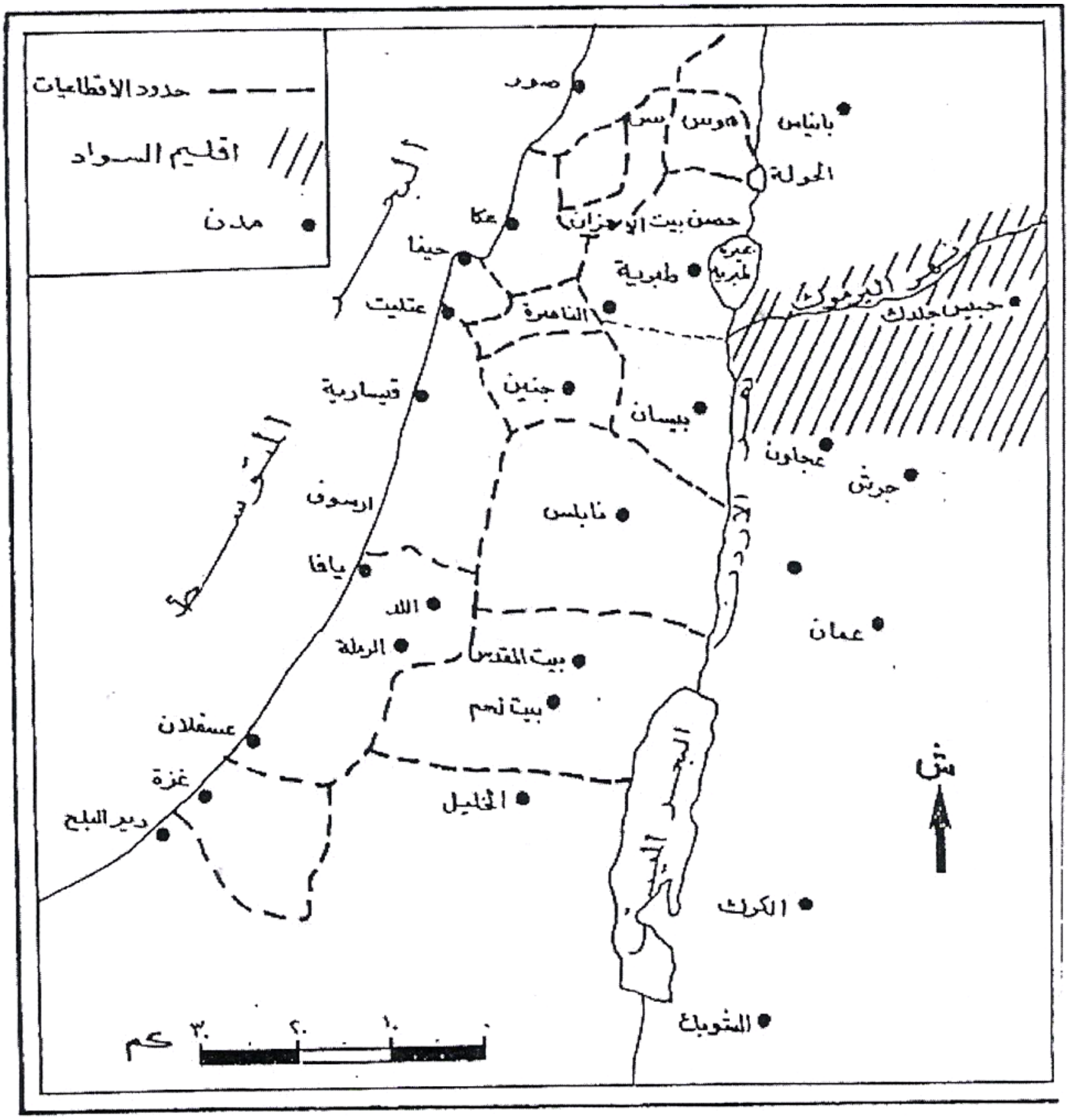
الخريطة (٣): أهمّ المواقع والقرى التابعة لمدينة عسقلان.



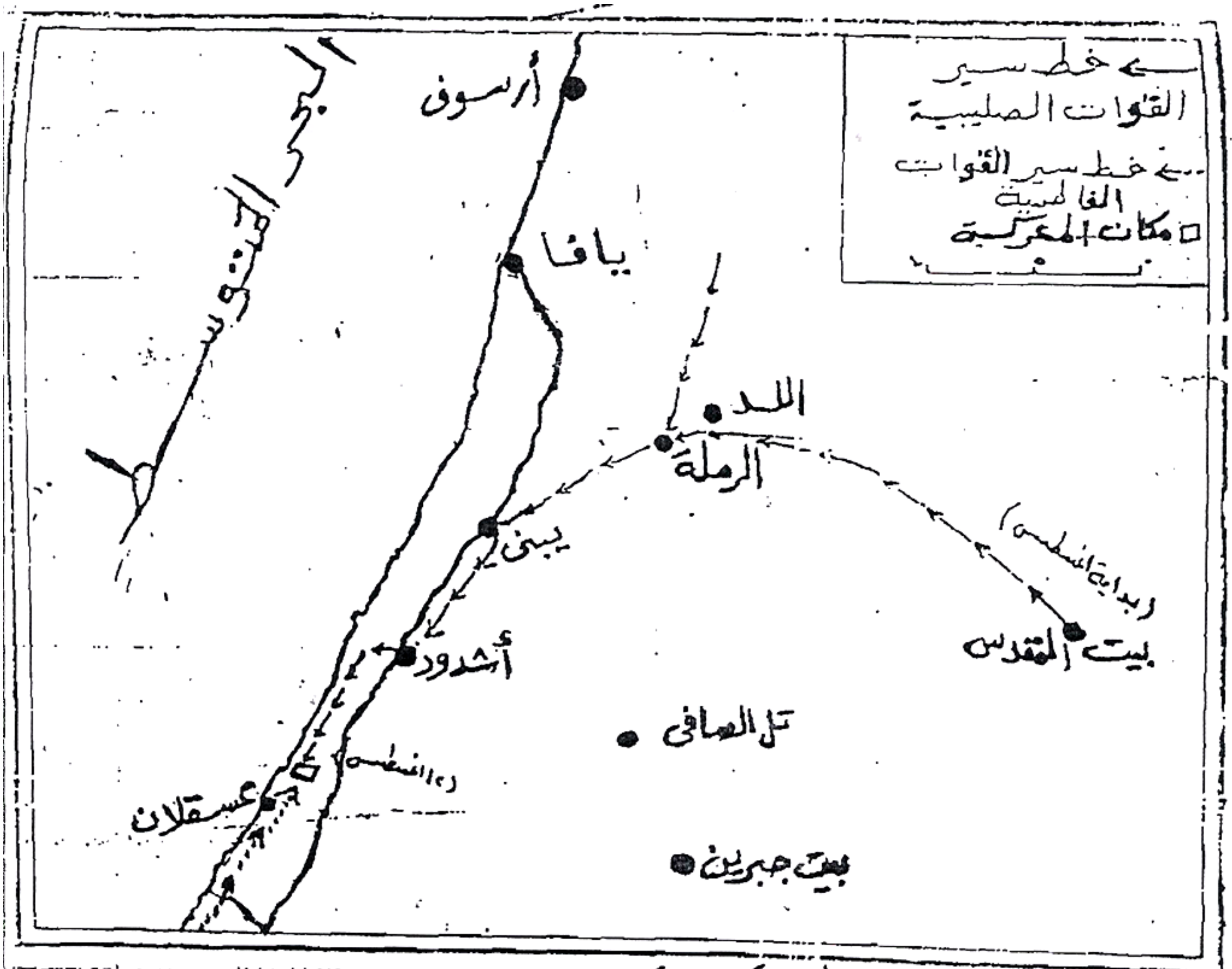
خريطة رقم (١)

أهم القرى التابعة لعسقلان والمدن المجاورة لهـــا

الخريطة (٤): مملكة بيت المقدس الفرنجيّة في أقصى اتّساع لها.

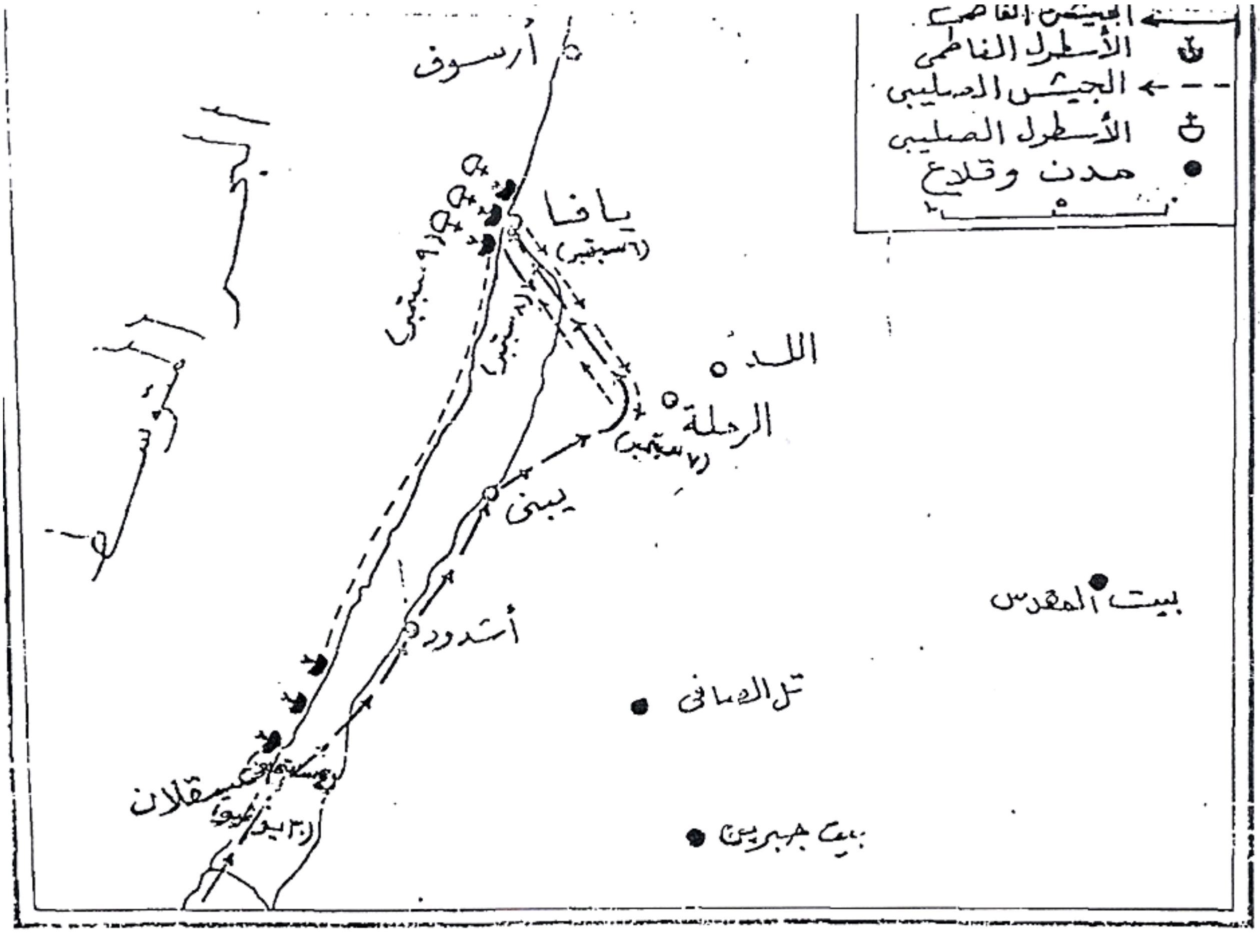


الخريطة رقم(٥): خط سير القوات الصليبية والفاطمية الى عسقلان (معركة عسقلان، ٤٩٢هـ/١٠٩٩م)، نقلا عن العسقلاني.



خريطة رقم (٢٠)
خط سير القوات الصليبية و الفاطمية إلى عسقلان.
(معركة عسقلان ١٠٩٩م / ٤٩٢هـ).

الخريطة رقم (٦) : سير القوات الفاطمية والصليبية البرية والبحرية في معركة الرملة الاولى (٤٩٤هـ/١١٠١م) نقلا عن العسقلاني.



خريطة رقم (٣)

خط سير القوات الفاطمية والصليبية البرية والبحرية في معركة (الرملة الأولى عام ٤٩٤هـ / ١١٠١م).

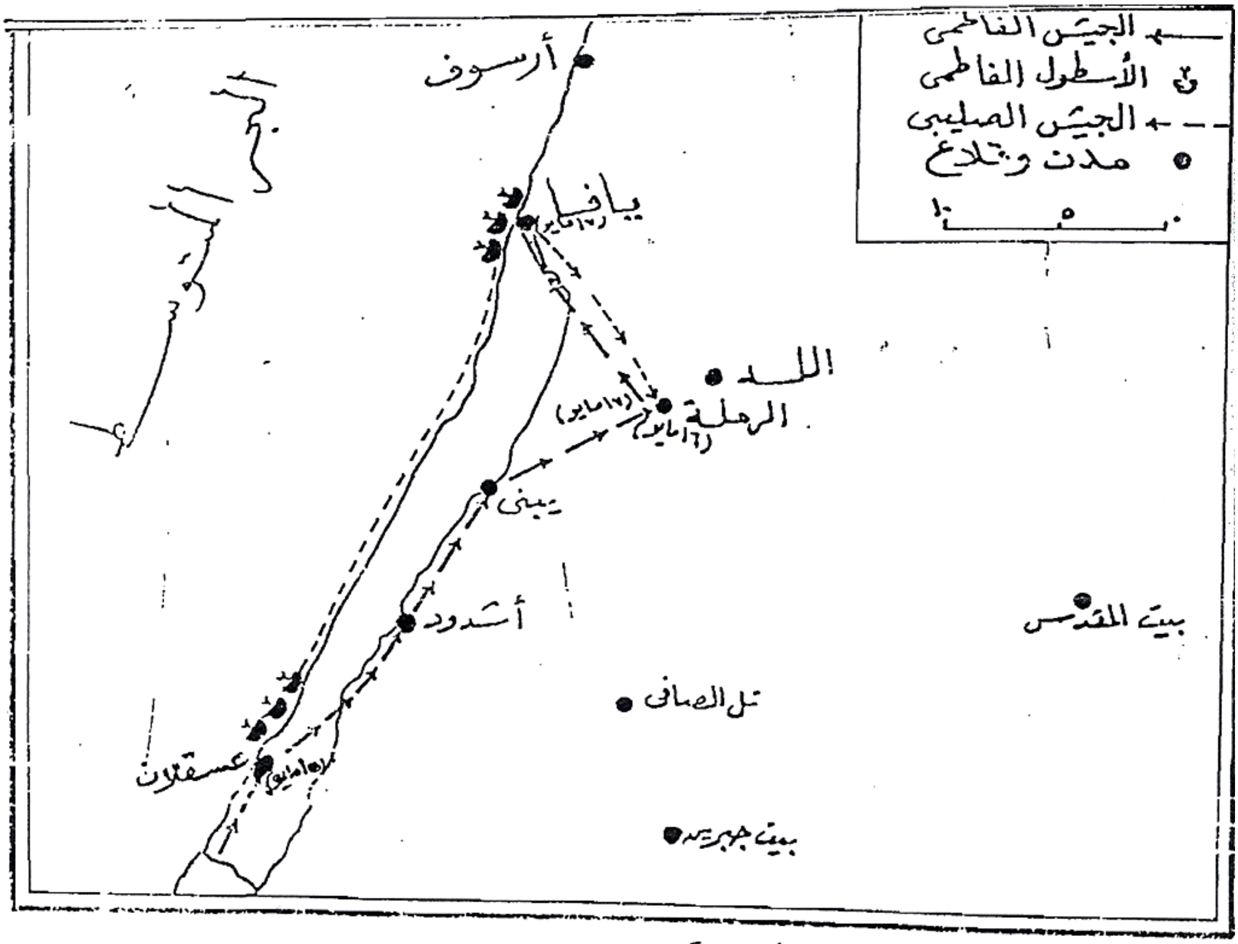
نقلاً من:

ابراهيم سعيد فهيم: يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي (١٠٩٩م - ١٢٩١م / ٤٩٢هـ - ٦٩٠هـ)

رسالة ماجستير تحت الطبع - الاسكندرية ١٩٩١م.

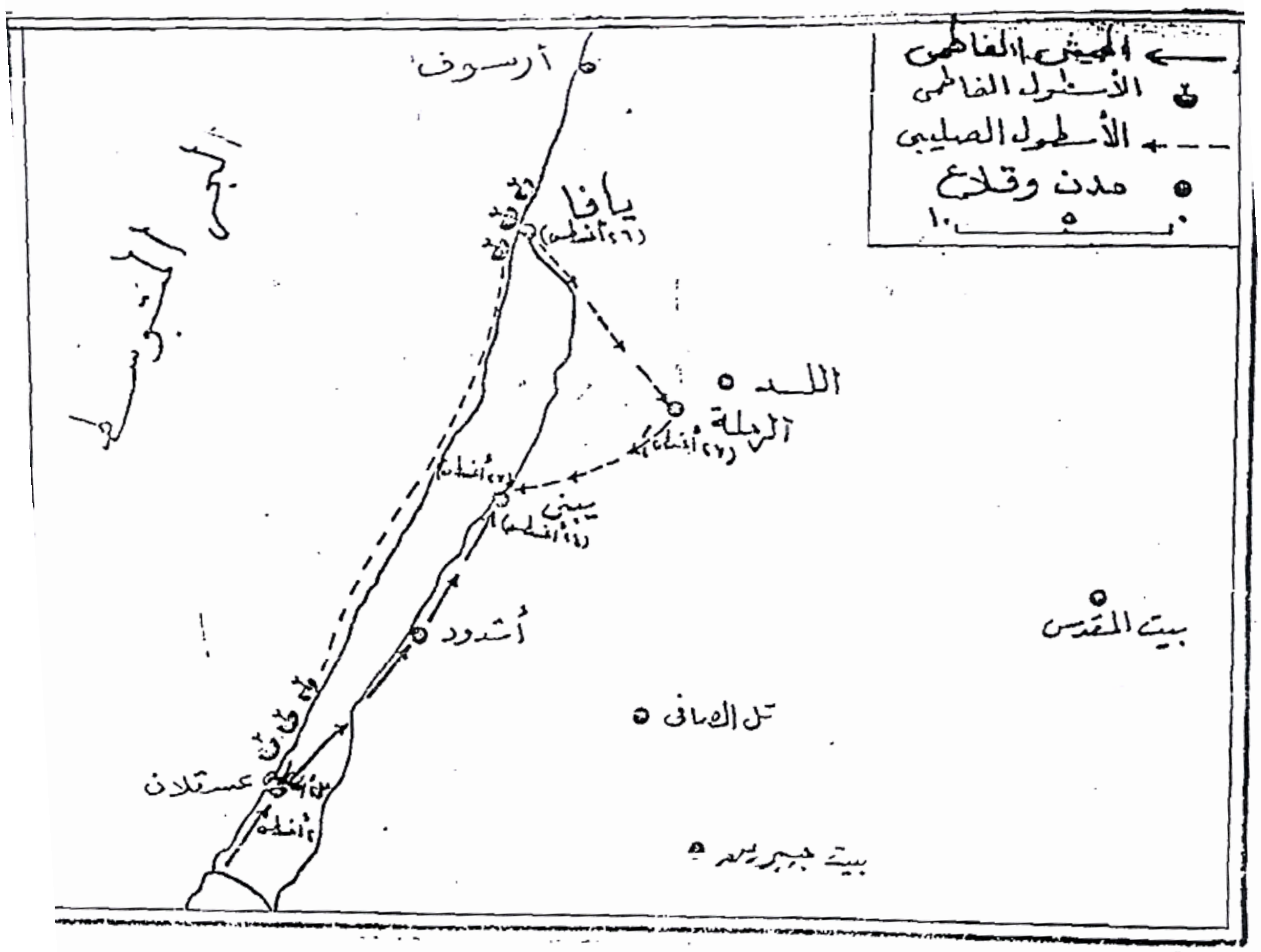
ص ٨٠.

الخريطة رقم (٧): خط سير القوات الفاطمية والصليبية في معركة الرملة الثانية، (٤٩٥هـ/١١٠٢م) نقلا عن العسقلاني



خريطة رقم (٤)
خط سير القوات الفاطمية والقوات الصليبية في معركة الرملة الثانية (سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م)
نقلا عن:
ابراهيم سعيد فهيم: المرجع السابق ص ٩٠.

الخريطة رقم (٨) : خط سير القوات الفاطمية والصليبية في معركة الرملة الثالثة، نقلاً عن العسقلاني



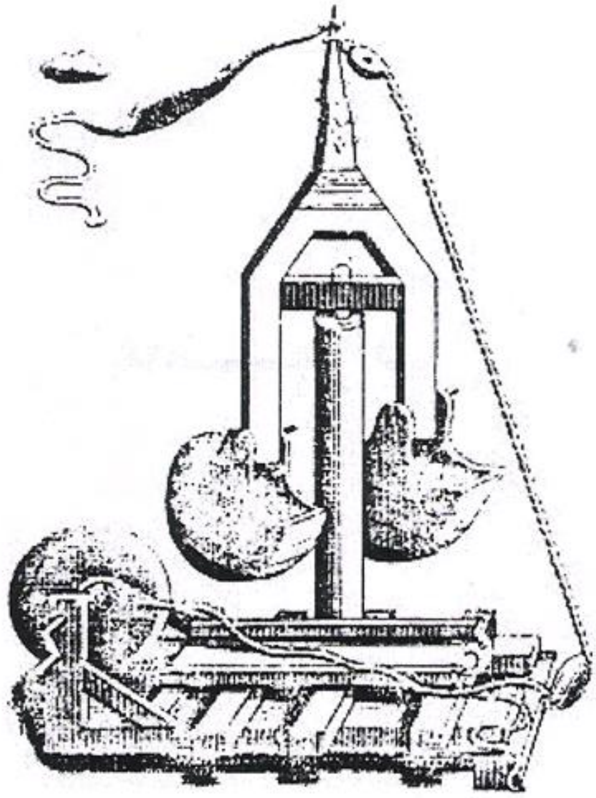
خريطة رقم (٥)

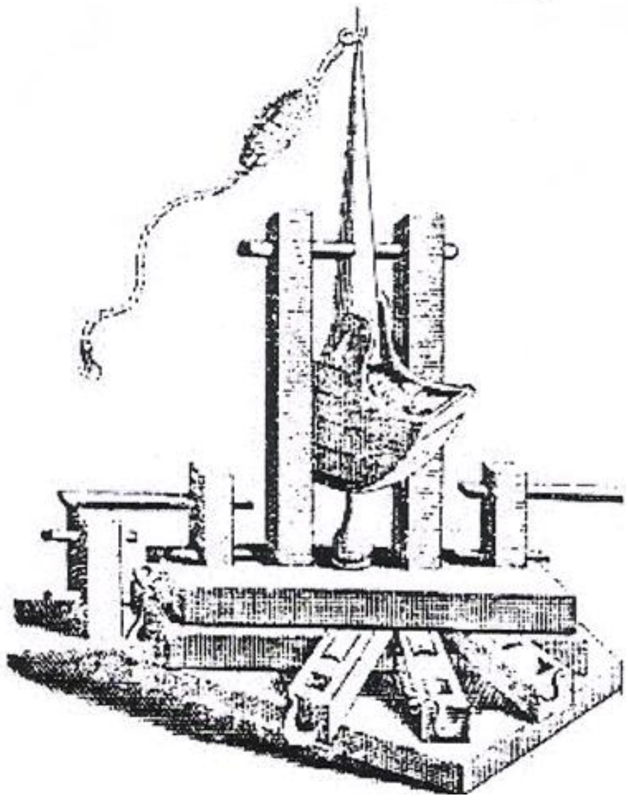
خط سير القوات الفاطمية والصليبية في معركة الرملة الثالثة (٤٩٨هـ - ١١٠٥م).

نقلاً عن:
ابراهيم سعيد فهيم: المرجع السابق ص ١٠١.

الملحق ٥: رسوم لمنجنيقات أثريّة

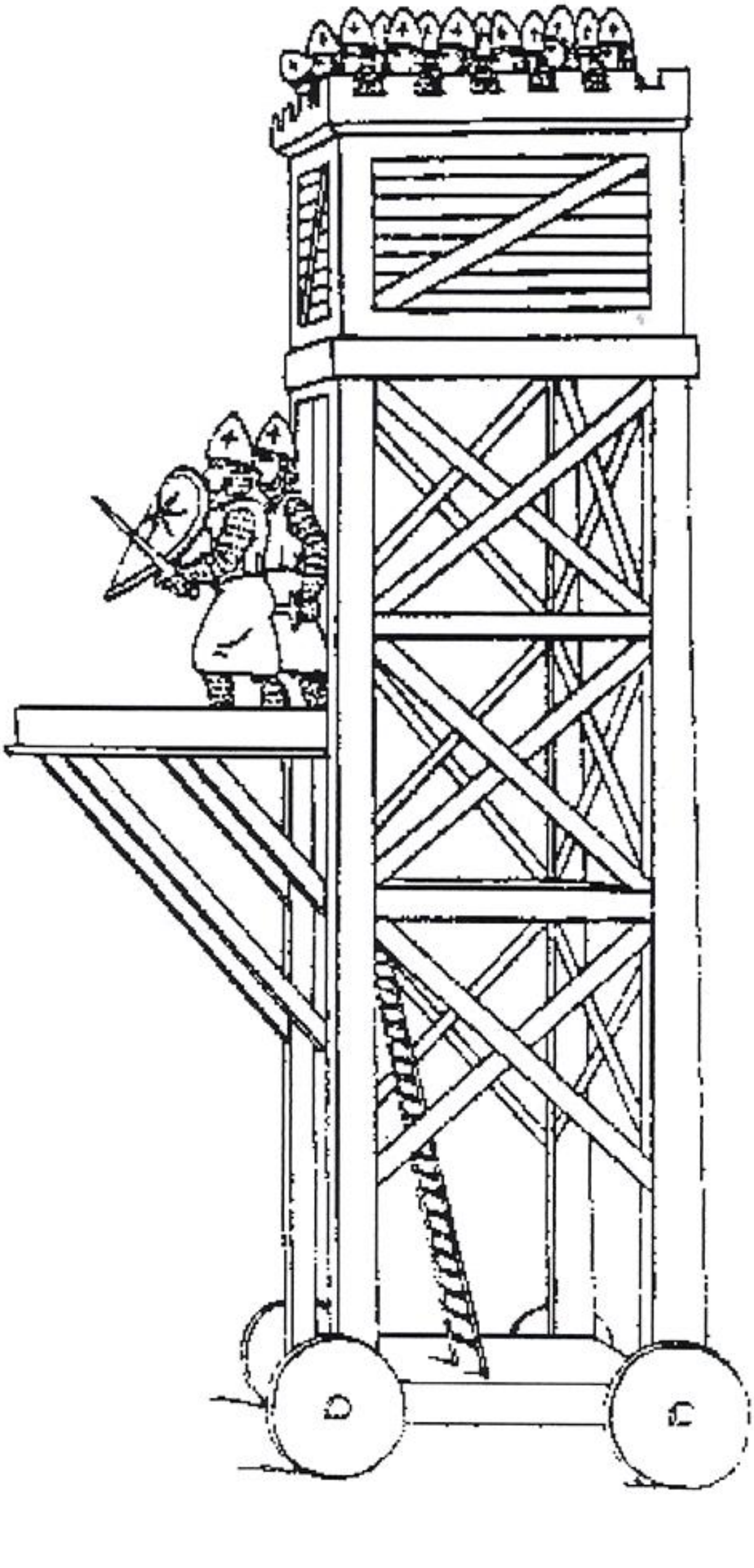
المنجنيقات



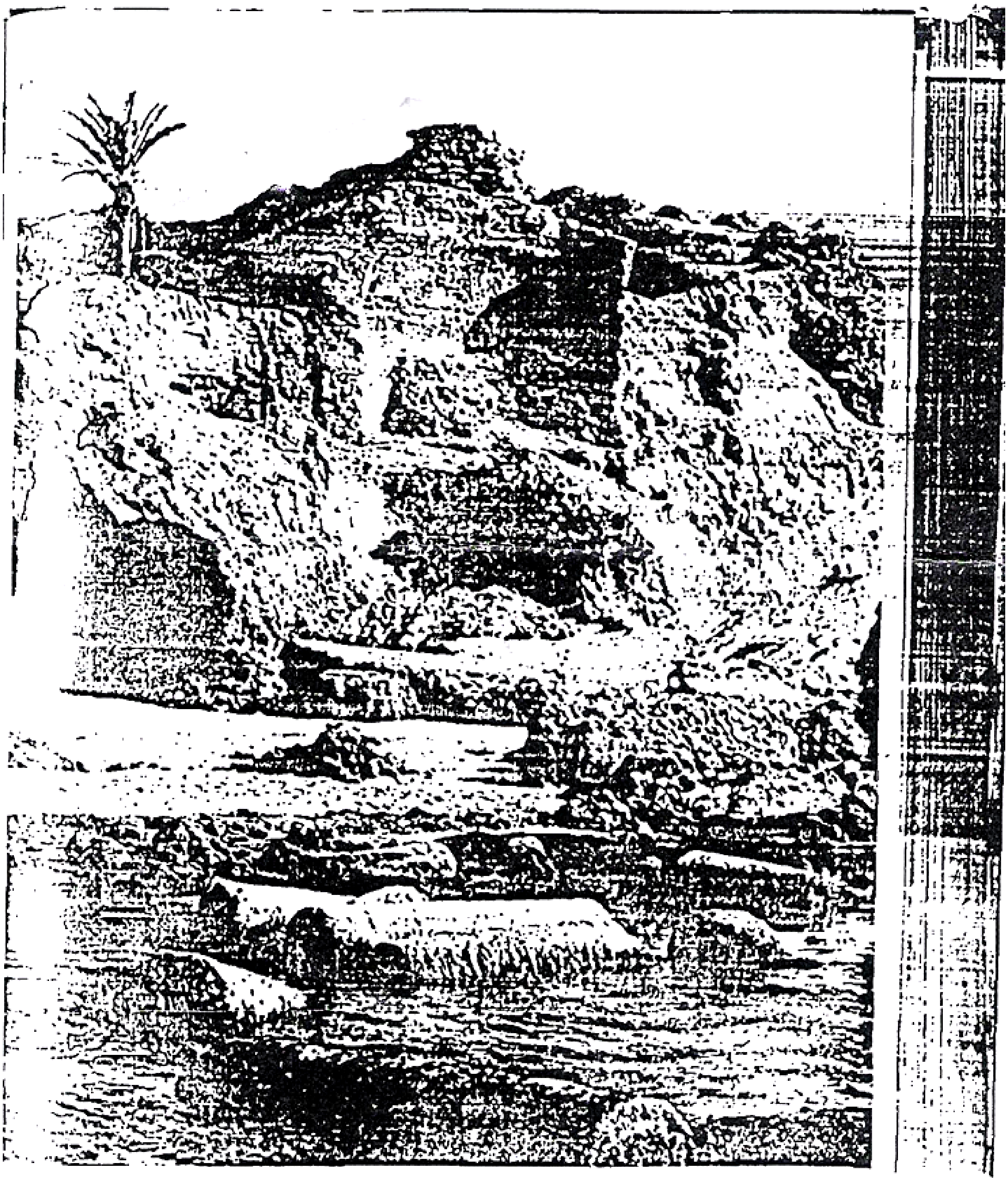


الملحق ٦: رسوم لدبّابات صليبيّة

الدبابات الصليبية



ملحق ٧: منظر عام لبرج الاسبيتار،

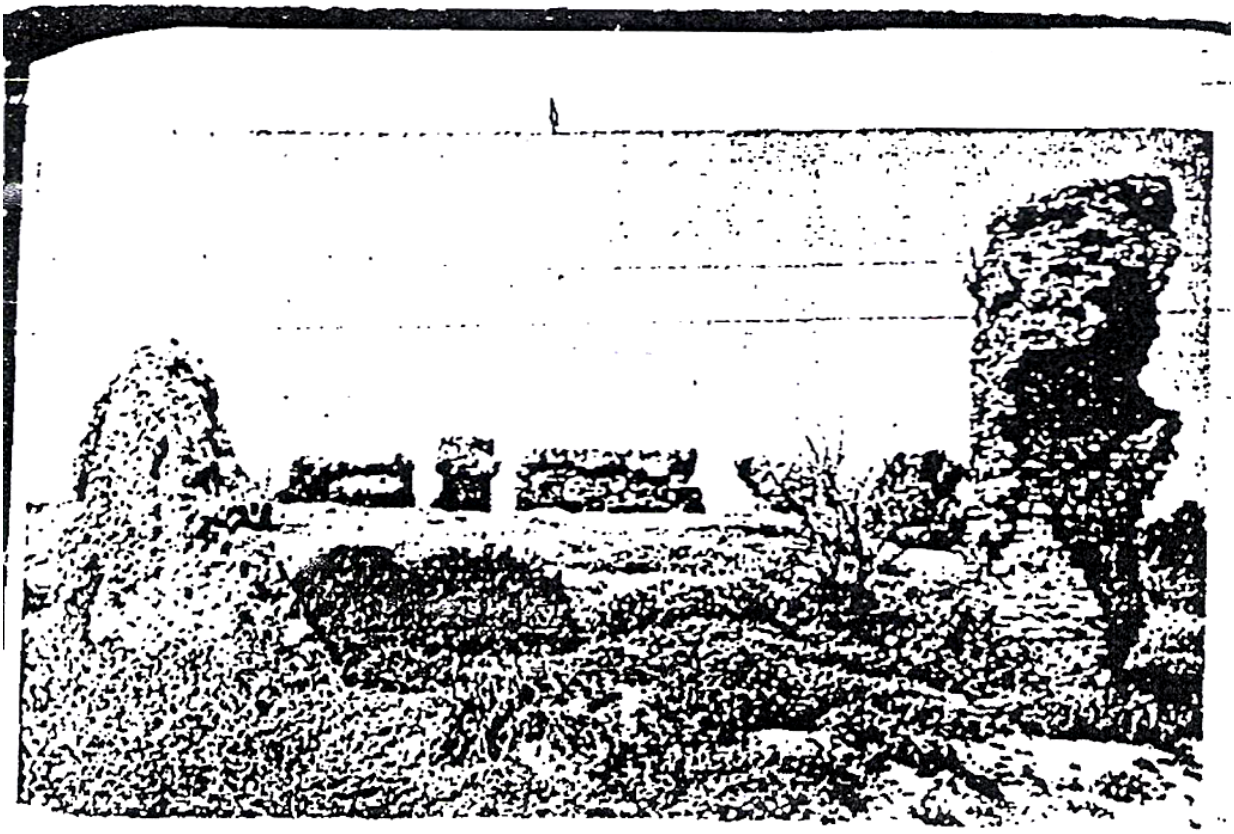


منظر عام لبرج الأسبتار،

نقلاً عن:

Benvenisti: op. cit., p. 126.

ملحق ٨: منظر عام للاسوار الشرقية لمدينة عسقلان



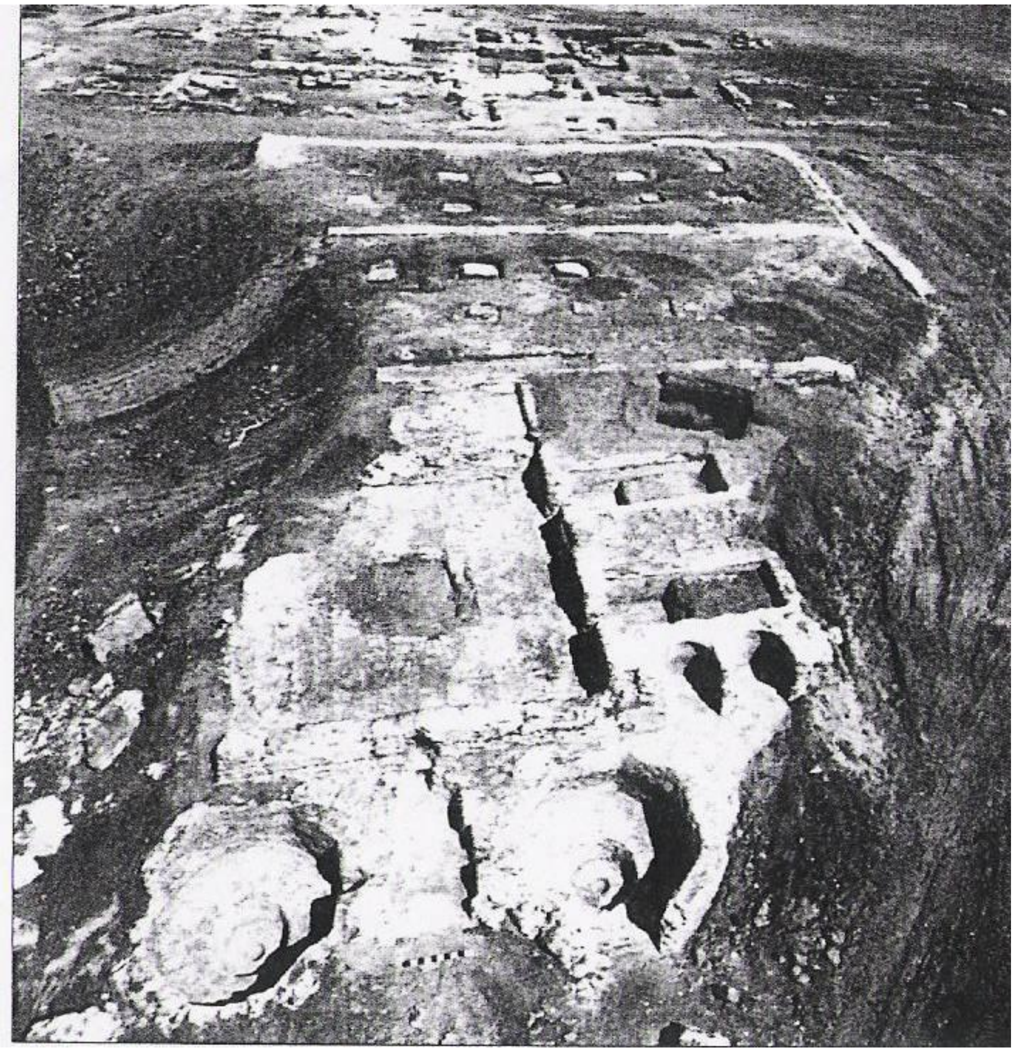
منظر عام للأسوار الشرقية لمدينة عسقلان.

نقلاً عن:

Benvenisti: op. cit., p. 124.

الملحق٩: مواقع أثريّة لمدينة عسقلان

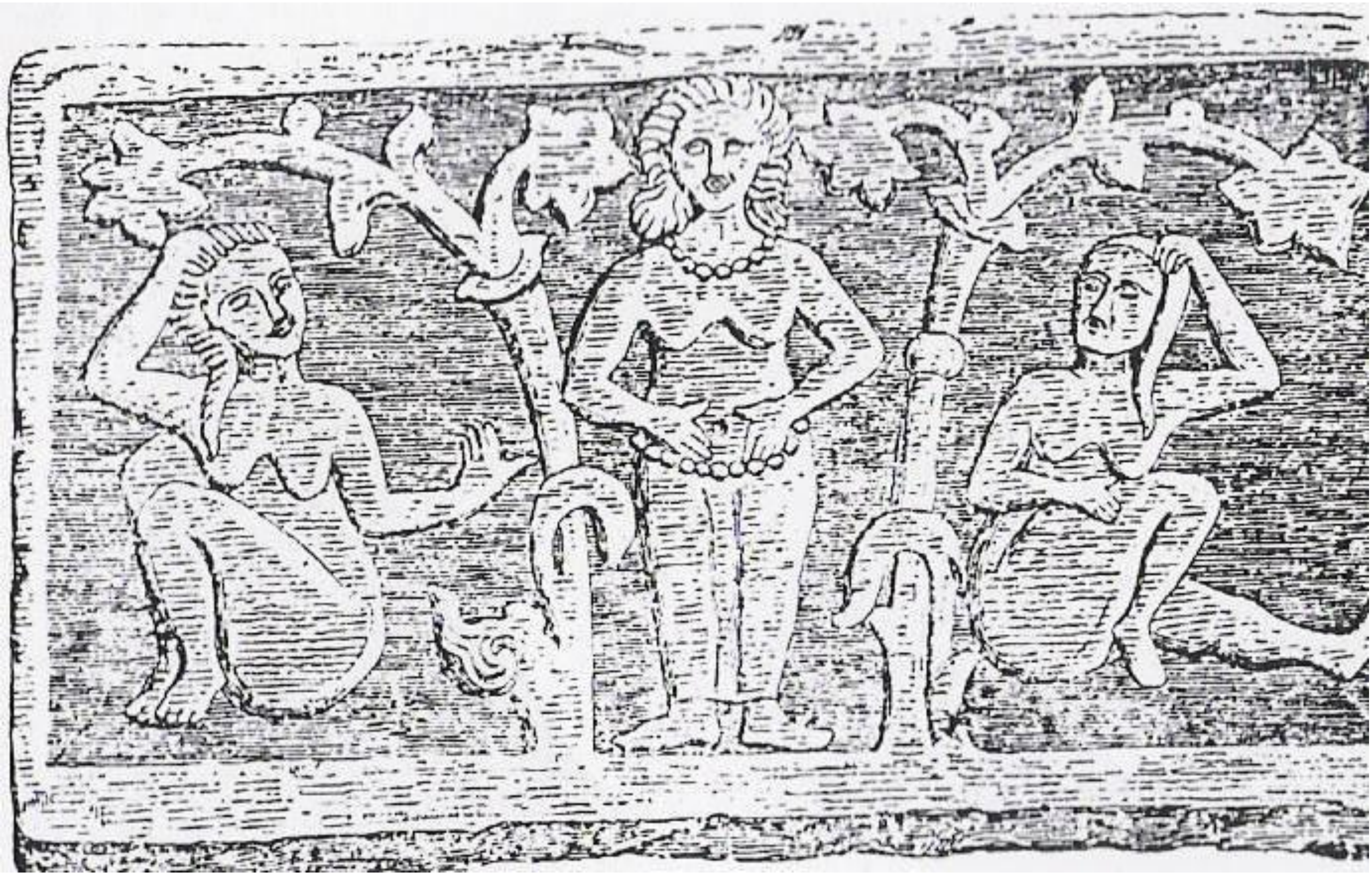
- **برك تربية الأسماك في عهد الرّومان**



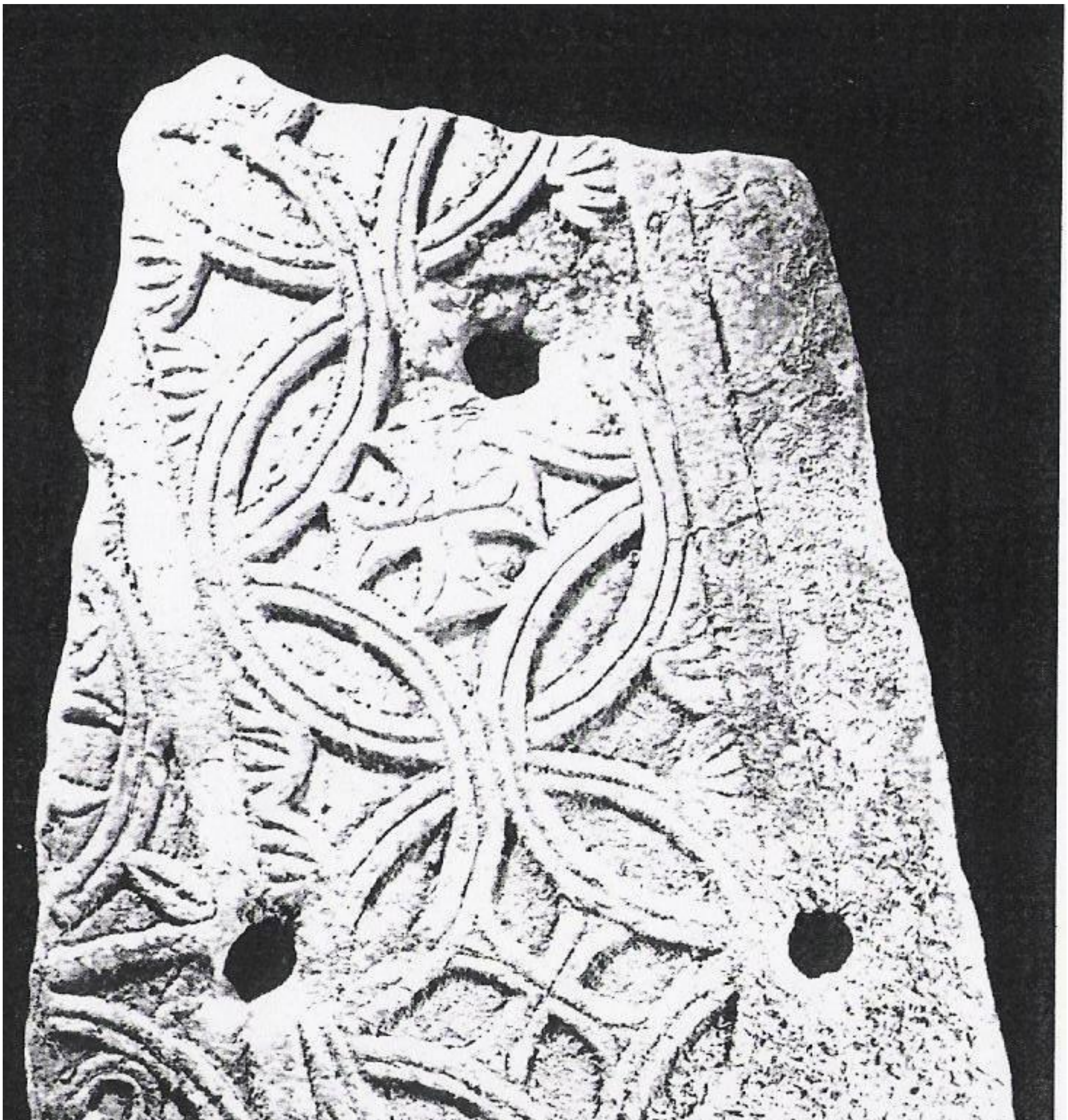
-النقود العسقلانيّة في الفترة البيزنطيّة



- نقش أثريّ للربّة عشتار في إحدى مُغر عسقلان



- نصّ تذكاريّ للصليب أيّام الحروب الصليبيّة في عسقلان



CITY OF ASHKELON FROM THE FOURTH CENTURY AH UNTIL THE SIX CENTURY AH (THE TENTH CENTURY AD UNTIL THE TWELFTH CENTURY AD)

By
Kefah Basim Rashq

Supervisor
Dr. Saleh Daradkeh, Prof

ABSTRACT

This study addresses the history of the city of Ashkelon (Asqalan) from the fourth century AH until the end of the sixth century AH (the tenth century AD until the twelfth century AD).However, it mainly focuses on its political and military aspects because it examines particular period in the history of Ashkelon and all the Levant during both local conflicts and the Crusades.

I divided this study into three parts: the introduction, the preface and three chapters. In the introduction, I addressed the reasons of selecting the city of Ashkelon, the importance of this city from a historical perspective, and the rationale for writing its history. Besides, I pointed out the reasons of choosing this particular period in its history, the difficulties I encountered during the search and the approachof writing the history of Ashkelon. In the preface, I addressedits history before that specified period, itsnaming, its geographical location,itsculturalgrowthbefore the Islamic conquest, itsreligious importance for Muslims, its rule under the caliphate Omar Ibn Al-Khattab, and its situationduring the early years of Islam.

The first chapter entitled *Ashkelon between the ruling powers in the Levant and Egypt*chronicles the city of Ashkelon under the Abbasids in ١٣٢ AH in the Levant. It also addressesits status under the Fatimids and other local forces in the Levant such as Bani Al-Jarrahin Palestine and their conflict with the Fatimids along with Ashkelon's role in this conflict in addition to the Fatimid-Seljuk conflict for Ashkelon.

The second chapter entitled *The role of Ashkelon in the period of the Crusades*addressesits history during the period of the Crusades,its circumstancesin various

aspects of life, the reasons that led to the Crusades in the Middle East, the fall of Jerusalem in the hands of the Crusaders, the Battle of Ashkelon in ٤٢٢ AH (١٠٩٩ AD), the military campaigns of the Fatimids against the Crusaders in Palestine which were launched from Ashkelon, and its siege and fall in the hands of the Crusaders in ٥٤٨ AH (١١٥٣ AD).

The second part of the second chapter addresses the history of Ashkelon after itsrule bythe crusaders, the Ayyubidsand Salah Al-Din who recovered it in ٥٨٣ AH (١١٨٧ AD), its second fall in the hands of the Crusaders in ٥٨٨ AH (١١٩٢ AD), the subsequentnegotiations which were known as Ramla Peace Negotiations, the Muslim-Crusader renewed conflict for recoverits rule, and its recapture by Muslims in ٦٤٥ AH (١٢٤٧ AD).

The final chapter three entitled *Ashkelon after the Crusades*addresses the history of the city under the rule of the Egyptian Mamluks, its social, economic, cultural and scientific aspects throughout the study period, and the impact of the Muslim-Crusader conflict on these aspects. Finally, the conclusion includes the most important findings of the study.